الإباضية في موكب التاريخ - 2

الاباضية فى ليبيا

تأليف: الشيخ علي يحي معمر

الإباضية في موكب التاريخ - 2

الاباضية فى ليبيا

تأليف: الشيخ علي يحي معمر

مقدمة

يسـرني أن أقدم إليـك أيها المسـلم الكريم ، الحلقـة الثانية مـن هذا الكتـاب الصغير، الذي سـميته " الإباضية في موكب التاريخ" وفي هذه الحلقة التي أطلقت عليها "الإباضية في ليبيا " أتحـدث عن هؤلاء الناس الذين يسـكنون الجزء الواقع بين مصر وتونس من الوطن الإسـلامي الشاسـع ، هذا الجزء الذي يسميه الناس اليوم " ليبيا " ....

وما ليبيا ومصـر وتونس والمغرب والباكسـتان وتركيا وغيرها مـا يقع بينها أو حولها إلا وطن واحد ، لأمة واحدة ، تنتشـر على أغلـب قـارات ، في عظمـة وشـموخ،رغم الحدود التـي افتعلها الاسـتعمار، في زمن الاستعمار، وحافظ عليها الاستغلال ، في زمن الاستقلال ، ورغم التدويل (1) الذي يدعيه أصحاب المطامع على كل قطعة من هذه القطع ، ورغم الشـعارات التي تقسم

1 - أقصـد بكلمـة التدويـل في هـذا الفصل جعـل كل قطعة مـن الوطن الإسـلامي الكبيـر دويلـة صغيرة منفصلة عـن بقية الأمة فـي نظام الحكم والسياسة.

بها السياسـة المسـتغلة ، وحدة الأمة ، إلى أمم صغيرة يسـهل السيطرة عليها، والتحكم فيها .

وأنـا حين أقدم إليك هذا الكتاب الصغير، لا أقدم إليك كتاب تاريـخ ، يعنى بتسلسـل الحوادث وترابطهـا ، ولا أقدم إليك كتاباً يرافق مواكب السلطان يحصى خطواته ، ويبرر أخطاءه ، ويفرض حكمه على الأمـة الكريمة ، وإنما أقدم إليك صوراً من حياة الأمة المسـلمة فـي أدوار كثيـرة من التاريـخ انتزعها من سـيرة الفرد العـادي ، ومن حياة المجتمـع الهادئ في بعض الأحيـان ، وأخذتها مـن مواطن النضال، وميادين القتال فـي بعض الأحيان الأخرى ، وكل ما أرجوه منـك أيها القارئ الكريم ، أن تقرأ الكتاب كله ، وأن تتغاضى عما فيه من ضعف الأسلوب، أو ركاكة التعبير، أو حدة النقـاش ، وأن تتعمـق إلـى الحقيقة التي أقصد إليهـا . والمعنى السـامي الذي أرمى إليه ، فإن قصر قلمـي عن إبلاغ ذلك إليك ، فإن ما أهد إليه من كل كتاباتي ، أن تذوب الفوارق بين الأمة ، وأن ترجع هذه الأمة إلى كرامة الإسلام ، وأن تعلق أواصرها بالله ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

التاريخ بين الدولة والأمة

إن تاريخ الدولة ، قد يكون هو نفسه تاريخ الأمة ، وقد يكون جانباً من تاريخ الأمة ، وقد يكون أبعد الأشياء عن تاريخ الأمة ، والمؤرخون في أغلب الأحيان يندفعون إلى تسجيل حركات دولة ما ، وأعمالها ، على أنها تاريخ الأمة التي تسيطر تلك الدولة .

وفي الأحيان التي تكون فيها الدولة مستبدة أو صاحب السلطان طاغياً فإن المسافة بينها وبين الأمة سحيقة البعد ، ومع ذلك فإن الكتاب الذين يشتهون أن يكونوا حداة للموكب الظالم ، أو أبواقاً لدعايته يكتبون وهم يعتقدون أو يتظاهرون بأنهم تاريخ الأمة ، وقد وقعت بهذه الطريقة مغالطات كبرى في تاريخ البشرية . وسوف أضرب أمثلة لما أرمى إليه حتى يتضح فكرى للقارئ الكريم .

يتحدث مؤرخ عن عظمة الأمة المصرية في عصر الفراعنة ، ويلتمس الشواهد على ما وصلت إليه هذه الأمة من مجد وحضارة ، فيقدم للقارئ الكريم ، الشواهد الثابتة التي لا تتغير ، يقدم إليه الأهرام ، هذه الجبال الشاهقة التي صنعتها أيدي

البشر ، في فترة من تاريخها الطويل ، فهل كانت الأهرام حقاً من الشواهد على عظمة مصر ؟ أيام كان خوفو يتولى زمام الحكم فيها ؟

قد تكون هذه الظاهرة براقة خادعة ، ولكن الإنسان إذا تغلغل إلى حقيقة التاريخ ، سرعان ما يعرف أن هذه الشواهد أبعد شئ عن حقيقة تاريخ الأمة المصرية في ذلك الحين . إنها قد تكون صورة من تاريخ خوفو ، فرعون مصر المريض بداء الحقارة ، أو دليلا على تمكن هذا المرض من نفسية ذلك الملك الطاغية . ولكنها ليست على كل حال حقائق من تاريخ الأمة المصرية .

إن الناظر الساذج قد ينبهر بعظمة هذا العمل . وقد يحسبه من أمجاد الأمة ، ولكن هل

نجد حقاً في ذلك العمل عظمة ومجداً ؟

أعتقد أن تلك الحالة كانت أبعد شيء عن حقيقة العظمة والمجد ، وأقصى شيء عن تاريخ الأمة وأعمال الشعب .

مائة ألف من الأجسام الفتية ، والسواعد القوية ، تسخر لنحت الصخر ، ودحرجة الحجر ، مدة لا تقل عن عشرين سنة . لو وجهت هذه الجهود لعمل مثمر ، لشقت مجرى نيل ثان يروي صحراء مصر القاحلة ، فوجد فيه الملايين من سكان مصر جنة على الأرض . ولكن النزوة الحمقاء التي سيطرت على رأس ملك المريض بداء الحقارة – أعوزته العظمة في نفسه ، فراح يلتمس لها الوسائل في الخارج – أبت أن توجه تلك القوى إلى الاتجاه النافع للأمة . فإذا بمجهودات الأمة جميعاً تسخر لإرضاء هذه

النزوة الطائشة .

وتمض عشرون عاما من حياة هذه الأمة لتبنى قبر شخصين ، وتصبر وهي تعمل تحت لذع السياط ، لتقدم المجنون قوة البدن وثمرة الإنتاج ، والمال القليل الذي تحصل عليه بالكفاح المستمر .

وفي هذا الحين ، الذي تبلغ فيه الأمة المصرية أحط ما تصل إليه أمة من الذلة والهوان ،والاسترقاق والمجاعة تحت حكم طاغية ، لا يجد بعض المؤرخين عنتاً في أن يشيدوا بالمجد العظيم الذي بنته الأمة المصرية . حين أقامت الأهرام .

إن هؤلاء المؤرخين يحسبون أن السلطان أو الأداة الحاكمة هي الأمة ، وما دام فرعون يعمل فإن عمله يعتبر تاريخاً للأمة ، وهم حين ينظرون إلى هؤلاء الآلاف من الناس ، الذين يكدسون الرمال ويرصفون الطرق ، ليدحرجوا القرية ليحمل نفقة العام، كأنما كل واحد من هؤلاء جاء بمحض إرادته ليبنى لنفسه برجاً في هذا القصر العظيم . ولم يلمحوا الفقر والذلة والمهانة التي تبلى بها الأمة ولا العذاب والسياط التي تسلط على هذه الجماهير الكادحة ، في عمل شاق ليست له ثمرة إلا الشهوة ، شهوة فرعون أن يكون عظيماً ، وأن يكون قويا وأن يكون من المخلدين .

فهل يعتبر هذا العمل حقاً من تاريخ الأمة ؟ هل تعتبر هذه الآلاف من العمال المسخرين الذين يدهدهون الصخر من الصبح إلى المساء ، وأبناؤهم يقتلهم السغب والفاقة ، هل تعتبر هذه الآلاف العاملة تحت السوط والسيف ، من الأمة ؟

وهل يعتبر عملها هذا تاريخا للأمة ؟

إنني لا أستطيع أن أتصور ذلك أبداً ، وكل ما أفهمه أن هذا قد يكون صورة من تاريخ فرعون ، وأن هؤلاء الآلاف الذين يعملون باستمرار مدة عشرين سنة ، ما هم إلا آلة صماء ، يحركها زر في يد فرعون . فهم في الحقيقة ليسوا قسما من الأمة ، فيكون عملهم تاريخاً لها ، وإنما هم قوة في ساعد فرعون ، وسواء كان هذا العمل الذي عملوه والجهد الذي بذلوه ، والجبل الذي شادوه ، سواء كان ذلك عظمة ومجداً ، أم مرضاً وشهوة ، فإنه من تاريخ فرعون وحده . لا من تاريخ أمته .

ضربت المثل بهذه الحوادث لأنني أعتقد أنها واضحة .

ومن المؤسف أن أكثر المؤرخين في مختلف العصور – حتى في هذه العصور التي كادت تتحرر فيها البشرية من طغيان الفرد واستعباده – لم يتحرروا من هذه النظرية التي لا تفرق بين الأداة الحاكمة والأمة ، فتجدهم يلهثون وراء السياسة يحدون لها ويصفقون، حاسبين أن عظمة التاريخ في أن يسيطر رجل أو هيئة ، على بقاع كثيرة ، فيتمتع بما لا يتمتع به غيره من شهوات ، ثم يسجلون ذلك على أنه تاريخ الأمة ، أمة ذلك الرجل ، أو تلك الهيئة .

إن هذه الصورة لا يمكن أن يكون فيها تاريخ الدولة تاريخاً للأمة . إن تاريخ الأمة بعيد جداً عن هذه المظاهر السخيفة ، التي تهدر فيها كرامتها ، وقوتها وإنتاجها .

أما الصورة الأخرى التي يكون فيها تاريخ الدولة هو تاريخ الأمة ، فذلك عندما تكون الأداة الحاكمة خاضعة لقانون الأمة

وشوراها ، فلا تصدر إلا عن رأيها ، ولا تمتاز بشيء عن أي فرد منها ، وفي الفتوح الإسلامية زمن الخلافة الرشيدة أمثلة واضحة لذلك. إن تاريخ الدولة في ذلك الحين هو نفسه تاريخ الأمة، وذلك لأن ما يصدر عن الدولة هو ما يصدر عن الأمة راضية به راغبة فيه .

إن الأمة جمعاء كانت تقوم بالغزوات الفاتحة مندفعة إليها ، متسابقة إلى القيام بها ، دون وعود بالمرتبات أو حصر بالدواوين ، أو إكراه بالتجنيد الإجباري ، وإنما كانت انتفاضات منبعثة عن عقيدة من أمة كاملة ، ليس للأداة الحاكمة منها إلا تنسيق العمل وتنظيم الصفوف . ولذلك كانت هذه الحركات تاريخ أمة لا تاريخ دولة ، وأن الدولة كانت داخلة في الأمة ، معبرة عنها تعبيراً صحيحا صادقا لأن جميع ما تقوم به من نشاط داخلي أو خارجي كان يصدر عن حقيقتين ثابتتين: حكم الدين ، ورأي الأمة .

أما الحالة الثالثة التي تكون فيها تاريخ الدولة جانبا من تاريخ الأمة ، فأعنى به عندما تقوم دولة في قسم من أقسام الوطن . وتحرص هذه الدولة أن تصدر في أعمالها عن حكم الدين ورأى الأمة ، وفي التاريخ الإسلامي أمثلة من ذلك .

ولم أحسب هذا التاريخ تاريخ الأمة ، لأن الأمة ، اكبر من ذلك وأوسع ، فعمل هذه الدولة الصغيرة تعبير عن قسم من الأمة . وهو وإن كان تعبيراً صحيحا صادقا إلا أنه ينقصه الإجماع أو الأغلبية المطلقة .

الوطن الإسلامي

إنني أعتبر الأرض الإسلامية وطناً واحداً بحدوده الشاسعة ، وعندما أضطر إلى تتبع التقسيمات السياسية الموجودة الآن ، أحس بالمرارة والألم ، ولقد كان تاريخ الأمة الإسلامية في عصوره المختلفة ، مرتبط الحوادث ، متحد المشاعر ، متوافق العواطف ، مشتبك المصالح ، متصل الأجزاء . ورغم ما اصطنعته السياسة من حدود ، فأنت حين تسافر من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى تمر بعدد من الدول وتتخطى مجموعة من الحدود ، وتختلف عليك أشكال من الحكم ، وقد تحس بما يعتمل في نفسية هذه الدول من عداوة وبغضاء ، وحروب حارة أو باردة، ولكنك في كل ذلك تشعر أنك تعيش في أمة واحدة ربطت بينها العقيدة ، التي وجهت قلوب أفرادها جميعاً إلى الإيمان بالله ، ومحبة الأخوان في الدين ، وتجد التاريخ الحقيقي لهذه الأمة التي تنبسط على أكثر قارات العالم ، في وحدة الشعور والعاطفة والعقيدة والأمل ، وفي طريقة التفكير والكفاح والعمل . وفي الاتجاه الذي يتجه إليه الأفراد والجماعات ، وفي عدم اعتراف هذه الأمة بالحدود التي تفصلها عن بعضها ، فتخترقها رغم حرس الحدود ، والعقوبات المترتبة على ذلك.

إن تاريخ الأمــة يكمن في الأعمال اليومية من أفراد وطبقات هذه الأمة في وطنها العام ، بعيداً عن أحداث الدول ، هذه الدول التي تفرض سلطانها لتثبت قواعد حكمها ، وتقر دعائم نفوذها ، وتسـخر كل شـيء لإرضـاء شـهواتها ونزواتهـا، دون نظر إلى حقيقة الأمة أو مستلزمات الدين .

وحين يذهب بعـض المؤرخين يتحدثون عـن أعمال هذه الدول المختلفة ، حاسـبين أنهـم يتحدثون عن تاريخ الأمة الإسـلامية ، يغفلون عن حقيقة هامة ؛وهي البعد الشاسع بين ضمير الأمة وعقيدتهـا ، وعملها وأملها ، وبين مجرى الحوادث التي تجرى عليها تلك الدول المسـتبدة ، إن حقيقة تاريخ الأمة أعمق من أن يكون أعمالا تقوم بها دولة دون أن تسـتمد هذه الأعمال من حقيقتين ثابتتين : دين الأمة، ورأى الأمة الحق . وحتى في هذه الحالة لا يكون تاريـخ هذه الدولة تاريخا للأمة إلا إذا كانت الأمة كلها مجتمعة على اعتبـار هذه الدولة واعترافها بهـا ، وخضوعها لأحكامها ، خضوعا شـرعيا ، حسبما قرره الدين لتنظيم الدولة ، مع احترام كرامة الأمة سياسـياً ، واجتماعيا ، واقتصاديـا ، واحترام كرامة الفرد في سـلوكه مع الدولة والناس ، وفي سلوك الدولة والناس معه .

إنني حين أتحدث في هذا الفصل وفي هذا الكتاب فإنما أتحدث عن الأمة الإسلامية ، والدولة المسلمة ، وما حديثي عن الفراعنة في أسـطر سـابقة إلا مثل عابر ، سـقته لتوضيـح فكرة ... إن الحـروب التي قامت بـين الدولة الأموية والخـوارج ، أو بينها وبين الشـيعة ، أو بينها وبين الدولة العباسية ، أو بين غيرها من الدول

التي تعاقبت على الحكـم ، أو تنازعت عليه في مختلف العصور الإسـلامية ، إن هذه الأحـداث الدامية لا تكون مـن تاريخ الأمة الإسـلامية ، لأن النـاس الذين اشـتركوا فيها كانـوا محمولين عليها، إما بالخوف ، وإما بالطمع . وإما بالتغرير ، فهم ينفذون إرادة واحدة ولذلـك اختلفت أنظار الأمة إلى القائمين بهذه الحركات . فأيدت كل قسـم من هذه الأقسـام طائفة من الناس ، من أجل الأغراض السـابقة ، أما الأمة فهي تعرف أن تلك الحروب ليسـت لمصلحـة الدين ، وليسـت لمصلحة الأمة . وعلـل من ينطق برأي الأمة أسباب تلك الحروب فجعلها مرة (الثريد الأعفر) ومرة أخرى (بغلات معاوية الشهب) .

إن هـذه الحـوادث ، ليسـت تاريخ الأمـة ، فإن انتصـار الدولة الأمويـة على الخوارج ، أو قضاءها على ابن الزبير ، أو تغلب الدولة العباسـية على الدولة الأموية ، أو تغلب أية دولة مسـلمة على دولة أخرى مسلمة ، لا يحسب مجداً للأمة المسلمة ، أو حقيقة مـن تاريخها ، فإنـه ليس من تاريخ الإسـلام ، ولا من تاريخ الأمة المسلمة ، ولا مما يحسب مجداً للإسلام ، أن يقضي بنو أمية على الخوارج والشيعة ، ولا أن ينتصر بنو العباس على بنى أمية ، ولا أن ينتزع بنو فاطمة كراسي الحكم من بنى العباس .

إن هذه الصور وأشـباهها قد تكون صـوراً من تاريخ رجال بنى أميـة ، أو بنـى فاطمـة أو الخوارج أو ابـن الزبير ، أو بنـى العباس ، ولكنهـا ليسـت بحال من الأحـوال صورة من تاريخ الإسـلام ، أو تاريخ أمة محمد عليه صلى الله عليه وسلم .

إمـا هذا العـدد الوفير من الناس ، الذيـن تتكون منهم الأداة الحاكمـة ، كالأمراء والـوزراء والقواد والأعـوان والأجناد في الدول المسـتبدة ، فهؤلاء لا يكونون جانباً من الأمة ، وإنما هم عبارة عن جهـاز آلي ليس لـه إرادة ، ولكنه يتحرك بإرادة الحاكم المسـتبد ، سواء كان هذا الحاكم فرداً أو هيئة ، إنهم عبارة عن صاروخ موجه ، يبعث به الحاكم للتدمير متى شـاء ، ولن يدخل ضمن آلات هذا الصـاروخ البشـرى ، إلا خائف ، أو طامـع ، أو مخدوع ، بالعقيدة ، أو المذهـب ، أو الشـعار ، وإلا فما هي مصالـح الأمة في نقل أداة الحكم من بنى أمية إلى بنى العباس ، أو بنى فاطمة ، أو بنى تميم ، أو غيرهـم من القبائل والأجناس ، وفيـم يندفع آلاف من الناس ليحطموا بنى أمية ، أو يحطموا الحسـين ابـن علي ، أو يحطموا بنى العباس ؟

وهب أن شـخصا أراد أن يجرى تصفية على آلات هذا الصاروخ الذي تسـتعد دولة من الدول المسـلمة ، لتضرب بـه دولة أخرى مسـلمة ، فأخرج منـه كل من دخل فيه بالخـوف ، وكل من دخل فيـه بالطمع ، وكل من دخـل فيه بالخديعة والتغرير ، حين صورت له الحقائق على ما هي ليسـت عليه . هب أن شـخصاً فعل ذلك فهل يبقى هذا الصاروخ صالحاً للعمل ؟ وهل يبقى من هذا الجند شـيء يسـتحق أن يطلق عليـه كلمة الجيش ؟ ويمكـن أن يدخل معركة مهما كانت هذه المعركة صغيرة ؟ إنه لن يبقى بالتأكيد إلا اليد التي تمسك بزر الصاروخ ، وهي تضغط على فراغ .

والحقيقة التي أرمي إليهـا من هذا البحث الطويل ، أن تاريخ الدول الإسـلامية التي تعاقبت على الحكم ، والتي تنازعت عليه

، والتـي اقتسـمته ، إن تاريـخ هذه الـدول ليس هـو تاريخ الأمة الإسـلامية ، لأن تاريخ الأمة الإسـلامية إنما ينبـع من ذاتها ومن نفسـيتها ومن الأعمال التي تصدر عنها برغبـة ورضا واقتناع ، دون تخويـف أو تطميع أو تغرير. أما تاريـخ الدول والأمراء والحكام فهـو تاريخ أفـراد لا يمثلون أمة ، بل كثيراً مـا يكونون أبعد الناس عن الأمة وسيرتها .

ولـما كانت الأمة الإسـلامية أمـة لها دين ، وضـع لها نظماً كفيلة بإسعاد الإنسـانية ، مجتمعاً وأفرادا ، وهذا الدين يساوى في الحقوق والواجبات بين جميع أتباعه ، من السـلطان أو صاحب الحكـم ، إلـى أدنى رجل من الأمة ، فإن أولئـك الذين يخرجون عن هـذا المنهـاج ، وينافقون عن أمـر دينهم ، ويحيدون عن سـبيله ، لا تحسـب أعمالهـم على الأمة ، ولا يوضـع تاريخهم في مقام تاريخها ، لأن مسلك الأمة بيّن ، وتاريخها واضح ، وسلوكها على العموم جار في الطريق الذي اختارته إرادة الله ، ليؤدى بهذه الأمة إلى السـعادة . السـعادة التي يعلم حقيقتها خالق الإنسان ، لا السراب البراق الذي ينخدع به بصر الإنسان .

إن الله قـد أختـار لأمـة محمـد الإسـلام ديناً ، وأوجب على الدولـة وأداة الحكـم فيه قانونا ، فما سـارت على ذلـك القانون فهـي من الأمة ، وتاريخها وعملها ومجدهـا للأمة ، وإذا انحرفت بها الشـياطين عن سـبيل الله ، فحسبها متاع الحياة ، وما متاع الحياة إلا غرور .

ولعل أوضـح صورة لهذه الفكرة هي واقع الأمة الإسـلامية

في هذا العصر ، هذه الأمة التي تنتشر على أفريقيا وآسيا وأوربا ، وتاريخ هذه الأمة هو مجموع سلوك أفرادها وطوائفها ، تلك الأعمال التي تنبعث في كامل الوطن العام ، أما الأعمال التي تقوم بها هذه الدول المتناثرة في كثير من بقاع الوطن الإسلامي فليست من تاريخ الأمة ، إنها تاريخ رجل ، أو رجال ، وصلوا إلى كراسي الحكم بوسيلة من الوسائل ، ومنهم من هو أبعد الناس عن فهم حقيقة الأمة ، وحقيقة مشاعرها ، وحقيقة أعمالها ومطالبها ، ومع أن الأمة وحدة لا تتجزأ ، فإن أولئك الذين يتولون الحكم ، ويحسبون أنهم أقاموا دولا ، لا ينفكون يقيمون الحدود بين أجزاء الأمة ، ليصنعوا منها أمما مختلفة : هذه عربية ، وهذه تركية ، وهذه فارسية، وغيرها ، ولم يكتف أصحاب المطامع والاستعمار حتى هذا ، فذهبوا إلى تقسيمها دويلات صغيرة جعلوا منها ممالك وجمهوريات .

إن هذا الشعارات الزائفة ، وهذه المبادئ الضالة ، أبعد ما تكون عن الإسلام، وعن تاريخ الإسلام ، إنها جوانب من تاريخ أولئك العدد القليل من الناس ، الذين نادوا بها ، وفصلوا بين أبناء الأمة الواحدة ، والدين الواحد ، ليحققوا لأنفسهم شهوة السلطة ، وشهوة المتعة ، وشهوة المال .

ومن الأخطاء التي أوحى بها الاستعمار، فتلقفتها آذان السياسيين من هذه الأمة ، فانطلقت بها ألسنتهم وأقلامهم : كلمة الصداقة والأخوة تزج بها بين هذه الدويلات المسلمة ، القائمة على قطع من الوطن الإسلام ، فيقف الخطيب منهم أو السياسي وهو يحسب أنه أوتي فصاحة سحبان حين يقول :

الدول الشقيقة، والدول الصديقة ، وهو يقصد بالدول الشقيقة :الدول التي تحكمها هيئة عربية أما الدول الصديقة فقد يكون من بينها أعدى أعداء الأمة ، وكم أتألم وأنا أسمع خطبا من أولئك الذين يقدر فيهم فهم القضية الإسلامية فهما صحيحا ، حينما تجوز عليهم هذه الخدعة الاستعمارية ، فتجدهم وهم يتكلمون عن الجزائر (2) ، أو عن فلسطين ، أو عن الكويت ، أو موريتانيا ، فيعبرون عنها بهذه الكلمة التي لقنها الاستعمار لأتباعه – الدول الشقيقة – حتى يقرر في أذهان الناس ، أن كل دولة من هذه الدول حقيقة قائمة بنفسها ، قد يربطها بالدولة الأخرى ، علاقة القرابة أو الصداقة ، أو المصلحة ، ولكنها مع ذلك شيئان منفصلان ، وتقطيع الأمة المسلمة إلى أشلاء متناثرة ، هي أعظم غاية يسعى إليها الأعداء بكل ما أوتوا من فكر ومكر .

إن الكتاب الكريم ، يقرر أن الأمة الإسلامية أمة واحدة في إندونيسيا وتركيا وإيران والباكستان والجزيرة العربية ومصر والمغرب الأقصى وما بينها ، فقال : (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) .

أما قوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) فالمراد به _ والله أعلم – أن الأخوة هي العلاقة التي تربط بين أولئك الذين أتصفو بالإيمان في جميع مراحل التاريخ ، إن المؤمنين في هذا العصر إخوان للمؤمنين الذين سبق بهم الزمن والذين سيأتون مع الزمن المقبل (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي

2 - كتب هذا الفصل قبل أن تتحرر الجزائر ، لكن طبع الكتاب تأخر لأسباب خارجة عن إرادة المؤلف .

قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا) .

ولعل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يوضح هذا المعنى أتم توضيح ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وددت أنني أرى إخواني . فقال بعض أصحابه رضي الله عنهم : أو لسنا بإخوانك يا رسول الله ؟ فقال علية السلام ؟ أنتم أصحابي ، وإنما إخواني قوم يأتون من بعدى ، يؤمنون بي ولم يروني) أما قوله صلى الله عليه وسلم : (ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالسهر والحمى) فهو نص في هذا المعنى ، ولا يوجد أي دليل على قصر معناه على الأفراد دون الدول .

إن المؤمنين الموجودين في عصر من العصور قوة مندفعة لأداء الرسالة التي أناطها الله بهم ، وليست العلاقة بينهم علاقة الأخ بأخيه يحسن إليه ويهاديه وكل منهم مقيم في منزله ، ولكن العلاقة بينهم هي العلاقة التي تربط جماعة تشترك في القيام بواجب ، يسأل عنه كل فرد منهم ، ولذلك فليس من الحق أن تعتبر قضية الجزائر للجزائر ، وقضية فلسطين لفلسطين ، وقضية إندونيسيا لإندونيسيا ، وقضية ليبيا لليبيا مثلا ، إن هذه القضايا وغيرها من القضايا ، هي قضية الأمة المسلمة ، الأمة الواحدة ، التي تمتد من الشرق الأقصى إلى المغرب الأقصى .

وهذه الجهود الضعيفة التي تقوم بها هذه الدول لتساعد إحدى قضايا الأمة في جانب آخر ، أو دولة أخرى ، في صورة مبالغ من المال تجمع من تبرعات الأفراد ، أو في خطب رنانة تلقى في

مجتمعات حافلة ، أو كلمة حماسية على منبر هيئة الأمم ، إن هذه الجهود الضعيفة ليست هي ما يطلب من هذه الدولة ، أو من هذا القسم من أقسام الأمة .

إن هذا التصرف يدل على أن هذه الدولة التي تقدم مساعداتها على هذا النحو مقتنعة بأن الجزائر ، أو فلسطين أو غيرها ، حقا شقيقة ، لها من الحقوق ما للأشقاء ، مواساة في المصيبة ، ومشاركة في الفرح ، وصدقة عند الحاجة وما أشبه ذلك ، ويظهر أن الناس مقتنعون بأن هناك فرقا بين الواجب على أبناء فلسطين في مدافعة إسرائيل ، وبين غيرهم ، وهذا الاقتناع خطأ كبير في حقيقة الأمة المسلمة ، إن ما كان يجب على سكان الجزائر في محاربة فرنسا هو الواجب على بقية البلاد الإسلامية والدول الإسلامية ، لو أنها آمنت برسالة الله وعملت بها ، وما يجب اليوم على الفلسطيني في مدافعة إسرائيل ، واستخلاص الحقوق منها ، هو ما يجب على كل مسلم في كل قطر من أقطار الإسلام . وإنه لحق على الدول المسلمة أن تعرف هذا الواجب ، وأن تعمل له ، وأن تنظم سير الأمة لتحقيقه . ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين ضرب مثلا للمؤمنين بالجسد الواحد لم يقل ذلك عبثا ، وإنما أراد أن يقرر أن المؤمنين في كل عصر من العصور حقيقة واحدة ، في آمالهم وآلامهم وأعمالهم ، وأنه لا يحق لأي واحد منهم أن يعتبر نفسه منفصلا عن الباقي وأنه يقدم له مساعدات .

إن ما قدمته الدول العربية والإسلامية للجزائر وفلسطين وهي تحسب أنها تقدم إليها مساعدات إنما كانت تقوم بواجبها

ولكنه قيام هزيل لم تبرهن فيه أية دولة من هذه الدول أو قسم من أقسام الأمة أنها فهمت حقيقة واجبها وأدركت أنها تتساوى في هذا الواجب مع من تساعده وتقدم إليه الإعانة . وما أسخف الإعانة حين تكون عبارة عن كلمة ينثرها لسان ، أو مال تجمعه يدان من عواطف الناس .

يظهر أنى أطلت في هذا الفصل وساقني الحديث إلى جوانب لم أكن قدرتها في نفسي ، ولذلك فها أنا أعود إلى تقديم هذه العصور من تاريخ الأمة في جزء من الوطن الإسلامي .

هذه الصور التي أعرضها عليك في هذا الكتاب الصغير ، هي بعض الجوانب من تاريخ الأمة ، وهي صور من تاريخ الأمة الحقيقي ، لأنها أعمال لأفراد من الأمة ، لم ينحرفوا عن سبيل الله إلى سبيل الشيطان ، ولم تسقهم شهوة عارمة ، أو تغرهم ثروة غالية ، ومن هذه الصور وأشباهها يتكون التاريخ الحقيقي للأمة المسلمة .

إن تاريخ الأمة الإسلامية يتضح :

في هذه القوى المسخرة لنشر العلم ، وإصلاح المجتمع ، وإنارة الطريق أمام السالكين بوحي العقيدة والضمير ...

في هذه الجهود المبذولة لبناء مجتمع مسلم ، على أسس سليمة ، وضعها الدين الحنيف لإسعاد البشرية ...

في هذه الأعمال المتواضعة للحياة الحرة الكريمة ، البعيدة عن الارتزاق ، والمتاجرة بمصالح الناس ...

في هذه الثورات المتتابعة على الظلم والطغيان في مختلف صوره وأشكاله .

في هذا الرباط المتين الذي يربط جميع المؤمنين بالحب ، ويقودهم بالإيمان الخالص إلى العبودية لله وحده ، وإقامة الحرية والعدل والمساواة على النظام الذي أقامته الشريعة السماوية للإنسان ...

في هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الذي يقوم به المؤمنون الأمناء لنشر الفضيلة والقضاء على الرذيلة في مجتمع نظيف ...

في هذه الدعوة الحارة إلى الإيمان بالله ، التي يراها المؤمنون أوجب واجب عليهم ، فلا ينفكون عنها أينما كانوا ...

في هذا الانبعاث الفردي الذي يرمى إلى أداء الرسالة ، هذه الرسالة التي يحس كل مؤمن صادق الإيمان أنه مسؤول بين يدي الله عن أدائها ...

في هذا الكفاح المتواصل إلى الارتفاع بالبشرية عن الأوضار والدنس والمادية الجافة ...

هذه الصور وأشباهها ، مما يقوم به الأفراد أو الجماعات أو الطوائف ، هي حقيقة التاريخ الإسلامي .

أما تلك المواكب الفخمة ، وتلك القصور الشاهقة ، وتلك الجواري الحسان، وتلك الأموال المكدسة ، وأولئك الجنود المتهيئون للقتل والتخريب في أية لحظة ، هذه الصور وأشباهها ، وهذه

الدماء المسفوكة ، والحرم المنهوكة ، والرؤوس المقطوعة ، والأموال المنهوبة ، والمتع المتاحة لأفراد معينين ، هذه الصور وأشباهها ليست من تاريخ الأمة . إنها صور من تاريخ فرد ، أو أفراد ،يشتركون مع ذلك الفرد فيها ، إما لأنهم وسيلة الوصول ، أو لأنهم آلة الوصول ، وسواء كانوا وسيلة أو آلة فهم لا يكونون جانبا من الأمة .

وإن أملنا في الله قوي أن يفتح باب الهداية لأمة محمد فيعتبرون بماضيهم وحاضرهم ، فيوحدون صفهم ، ويجمعون كلمتهم ، وينظفون قلوبهم من غير ، ويطهرون عقائدهم من آثار الفلسفة البشرية ، ويصرفون عن أفكارهم مجاراة أعداء الله في الفسوق عن أمر الله ....

كان أبو مسور يَصُليتَنْ النفوسّي يتحدث مع بنته الطالبة الذكية ، بعد أن غسلت له ثيابه ونشرتها في الشمس لتجف ، قال أبو مسور : أتمنى أن ينقي الله قلبي مثل هذه الثياب . فقالت البنت الذكية المتعلمة المؤمنة ؛ وددت أن الله جعل تطهير قلبي بيدي حتى أنقيه وأرسله إليه . فقال الشيخ : إنك أبلغ مني حتى في الأمان.

والمسلمون ما لم يطهروا قلوبهم من غير الله ، وما لم يبنوا أعمالهم على الأسس السليمة التي أوضحها دين الله ، فإن سيرهم سيبقى متعرجا ، وأمامهم بعيداً ، واتجاهاتهم متفرقة متباينة ...

وأني أستغفر الله من الخطأ والزلل ، وألجأ إليه تعالى أن

يعصمني من الشيطان ، وأن يطهر قلبي بالإيمان ، من الحقد والحسد والشهوة والغضب والعصبية ....

على يحيى معمر

منهج الدراسة

عزيزي القارئ ، يسرني أن أضع بين يديك المنهج الذي اتبعته في هذا الكتاب، حتى يتيسر لك السير مع خطواته ، لتتضح لك الصور التي أردت أن أقدمها إليك في إطاراتها الواسعة ، وفي إمكانك أن تراها كما يأتي :

* صورة لارتباط الدولة بالأمة .

* " لتماسك الأمة المسلمة في وطنها الواسع رغم الخلافات السياسية والمذهبية .

* صورة مصغرة لدخول المذهب الإباضي إلى ليبيا على يد دعاته الأولين .

* صورة للمذهب الإباضي وهو يقود الأمة الليبية بنظام الإمامة الكبرى المستقلة عن أية تبعية .

* صورة للمذهب الإباضي يرعى الأمة الليبية بقيادة عمال ليبين ، يتبعون الإمامة الرستمية .

* صورة للمذهب الإباضي يرعى الأمة ، بقيادة أمراء يختارهم ، مستقلين بأنفسهم .

تجد أيها القارئ الكريم هذه الصور حسب هذا الترتيب ، في القسم الأول من هذه الحلقة ، أما في القسم الثاني منها فتجد الصور الآتية :

* صورة للكفاح العلمي بعد الفتح الإسلامي ، بإلقاء الدروس ، ونشر المعرفة

الإسلامية ، وتأسيس المدارس ، وتكوين البعثات العلمية .

صورة لازدهار المعارف الإسلامية ونظم التعليم وطرق التربية التي وضعت لتكوين أجيال من المؤمنين المعدين لحمل الرسالة الإسلامية .

* صورة للمنطقة التي عاش فيها المذهب الإباضي ولا يزال يعيش منذ تكونت له الإمارات الخاصة به .

* صورة للمرأة في المجتمع الإباضي .

* " لأحداث تاريخية مشابهة .

* " للمؤمنين المتعصبين الذين تتحكم فيهم رواسب من الدعاية المغرضة.

* صورة للمجتمع المسلم النظيف .

هذه صور تشتمل عليها الحلقة الثانية من الكتاب في قسميها ، أرجو أن تساعد القارئ على فهم المنهج الذي اتخذته.

وهناك في الكتاب ملاحظة أخرى أرجو أن ينتبه لها القارئ الكريم ،وهي أنني قد تجوزت في استعمال كلمة ليبيا في كثير

مــن مواضيع الكتاب ، وأنا أعنــى أغلب إقليم فزان ، وأغلب إقليم طرابلــس ، فإن برقــة لم تكن في يــوم من الأيــام تابعة للحكم الإباضــي ، لا في دور الإمامات التــي تكونت في طرابلس ، ولا في دور تبعيتها للدولة الرســتمية ولا فــي دور الحكومات المحلية التي كانــت غالباً في بعض جهات من جبل نفوســة ، أو بعض جهات فزان .

دخول المذهب الإباضي إلى ليبيا

إن ســريان الأفكار والآراء والعقائد من بلد إلى بلد ، أومن قطر إلى قطر ، لا يمكن أن يؤرخ بالتحديد الزمني . فهي تتسرب تسرباً تدريجيــا ، قد يبطئ وقد يســرع ، من فرد إلى فــرد ، حتى تتغلب وتنتشــر ، وعلى هذه الطريقة نفسها دخل المذهب الإباضي إلى ليبيا .

بــدأ المذهب الإباضي يحــرر آراءه وعقائده فــي أواخر النصف الأول مــن القــرن الأول الهجــري ، ولــم يتم النصــف الثاني من هــذا القرن حتــى كانت الأصول التــي تميزه عن غيــره من الفرق والمذاهب قد تقررت . ففي البصرة التي كانت من مراكز الإشعاع الإســلامي ، عاش إمام المذهب ، التابعي الكبير ، جابر بن زيد ، ما بين سنتي 22 , 96 هـ .

ومن هذا المركز الإشــعاعي ، ومن البؤرة التي كان يســتضيء بها هذا الإمام . امتد النور إلى مختلف البلاد الإسلامية ، بصورة تدريجية بطيئة ، على طريقة العقائد التي تحارب الباطل بالحجة

لا بالقوة ، وتتسلح بالحق لا بالسيف ، ويعتنقها الناس بالاقتناع لا بالخوف .

ولعل التسامح في معاملة المعتدين من المسلمين ، والبساطة في مظهر السلطة والحكم ، والوضوح في الرأي والعقيدة ، والصراحة في قول الحق والعمل به ، والاستمساك بالواضح من دين الله ، كانت من الأسباب التي ساعدت على انتشار المذهب الإباضي في أكثر البلاد الإسلامية .

وفي ذلك الحين ، الذي كان فيه المعتزلة يشغلون أوقات الناس بالجدل ،وكان الأزارقة ومن ذهب مذهبهم ينطلقون في الأوساط الإسلامية المسالمة ، يبتزون الأموال ، ويقتلون الرجال ، ويستحلون سبى النساء والأطفال ، وكان الشيعة عاكفين على وضع الأحاديث في فضائل بنى هاشم ، وتخبير الخطب البليغة على لسان على بن أبي طالب ، والتغنى بعصمة أهل البيت ، وكان أهل السنة والجماعة (3) من أتباع معاوية منهمكين في مكافحة ثورات الخوارج وابن الزبير

وغيرها ، وفي التقاط العيوب ، وتلفيق الأكاذيب ، لتكون مادة السب واللعن لعلي بن أبي طالب، في خطب الجمعة .

في هذه الأحوال كان الإباضية ومن جرى هذا المجرى من التابعين وتابع التابعين يدعون إلى دين الله في هدوء واتزان . لا يصخبون صخب المعتزلة حباً في الظهور ، ولا يحاربون حرب

3 - جعل معاوية سب على بن أبي طالب على المنابر سنة . وسمي أتباعه أهل السنة ولما تنازل الحسن عن الخلافة زاد لفظ الجماعة فسماهم أهل السنة والجماعة

الأزارقة ، بالخطأ في تأويل كتاب الله ، ولا يفرطون إفراط الشيعة ، استغلالا للعاطفة الدينية ، ولا يكذبون كذب بنى أمية ليقيموا الدولة ، ويحفظوا الملك .

وبهذه الروح المؤمنة التي تضع كتاب الله جل جلاله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بين عينيها ، تدعو إليهما متجردة عن عواطف الحب والبغض في غير الله . عازفة عن زخرف الدنيا وبهرجها ، متأكدة من معنى آيات كتاب الله في التفريق بين المسلمين والمشركين ، معرضة عن حب الظهور الذي يسعى إليه المعتزلة جاهدين كان الإباضية يعملون .

وذهبت هذه الدعوة المعتدلة التي لا تحيد عن منهج الإسلام في البلاد دون جيش أو سيف أو مال ، فانتشرت في العراق والجزيرة العربية ، ثم امتدت إلى مصر، ومن مصر دخلت بهدوء إلى ليبيا وما بعد ليبيا من المغرب الإسلامي الكبير .

ولكن اتصال هذه البلاد من الوطن الإسلامي بمصدر الإشعاع في البصرة ، كان بعد ذلك يتم رأساً بين كل قطر من هذه الأقطار والبصرة ، ولم تمض عشرون سنة من القرن الثاني الهجري حتى كان المذهب الإباضي منتشراً في ليبيا وتونس والجزائر ، كما انتشر في العراق والجزيرة العربية وعُمان .

سَلمة بن سَعد

رجل امتلأ قبله إيماناً بالله ، ووعى عقله القوي ما دعا إليه الكتاب الكريم ، واتسع فهمه الذكي لما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأستحوذ على نفسه وحسه وجوارحه اليقين

بديـن الله ، فانطلق يدعوا إلـى الله ، لا يقيم الدنيا وما فيها وزناً، ولا يحسب للناس وأعمالهم حسابا ، ولا يخشى للتعب والمشقة عاقبة ، ولا ينظر إلى المعارضة إلا على أنها عوارض تعترض طريق المؤمن فيجب عليه أن يتخطاها .

قلبه عامر بالله وحده ، فلا يتردد لأي أثر من مخلوق ، وجسده بما فيه من قوى مادية وروحية مسخر للدعوة إلى الله ، لا يفتر ولا يلين ولا يتوقف .

انطلق من جزيرة العربية إلى إفريقيا وحيداً منفرداً ، يقتحم المجاهل ويدخل القفار ، ويغشى المجتمعات التي لا تعرف له جنساً ولا لغة ، وليس له من سلاح في كل ذلك إلا ذلك الإيمان الذي عمر به قلبه ، وتلك المعرفة الشاملة لكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيرة السلف الصالحين من الصحابة والتابعين ، ولم يمض عليه عشر سنوات حتى كانت دعوته تنتشر ما بين تلمسان وسرت ، وحتى كان المذهب الإباضي مذهباً لأغلب السكان في ليبيا وتونس والجزائر .

كان يقول في مبدأ أمره وددت أن يظهر هذا الأمر يوماً واحداً فما أبالي أن تضرب عنقي .

وقد تحقق أمله في الله في مدة لم يكن يتصورها ، وأصابه من التوفيق ما يضيفه الله على الأخيار من خلقه ، الذين تعدهم الأقدار لتبليغ رسالة الله بعد الأنبياء عليهم السلام فينطلقون بالدعوة صافية كما كانت في عهد النبوة ،خالصة من الشوائب والبدع والخرافة .

كان سلمة بن سعد ينتقل بين بلدان شمال أفريقيا من جهة إلى جهة لا يعتمد على جيش ولا حرس ولا رفيق ، ولم يصحبه في تلك الرحلات الطويلة من الجزيرة إلى العراق ، من العراق إلى أفريقيا ، إلا إيمانه بصحة العقيدة وصفاء الفكرة، وسلامة الدعوة ، ومعرفة واسعة للإسلام وأسراره ، وكانت هذه المميزات هي التي فتحت القلوب والعقول لدعوته وتقبلتها بقبول حسن .

وقد استطاع أن يوصل الدعوة إلى الأماكن التي لم تصل إليها ، وأن يوجه إفهام الناس إلى تفهمها ، وأن يوحد بينهم في الاتجاه العملي ، حتى استطاع أن يكون منهم بعثة علمية توجهت إلى البصرة مركز الإشعاع في ذلك الحين .

وقد استطاع أن يجعل أعضاء هذه البعثة العلمية من أماكن متفرقة ، بعيدة عن بعضها ، حتى يكون كل واحد منهم نبراسا يهتدي به في جهة من الجهات ، وحتى يعملوا جميعاً على توحيد جهود الأمة ، وتوجيهها إلى الخير العام . ونجح سلمة في إرسال هذه البعثة ، ونجحت هذه البعثة التي أطلق عليها " حملة العلم إلى المغرب " في دعوتها والقيام برسالتها ، وكان من أعمالها ما سوف تقرأ بعضه في حلقات هذا الكتاب .

لقد كان سلمة بن سعد بطلا من أبطال الإسلام ، وداعية من دعاة الحق والكرامة ، يتصف بجميع الصفات التي تلزم الداعية ، من معرفة كتاب الله وأسراره ، واستقامة على دين الله ومنهاجه ، وتخلق بآداب الإسلام وفضائله ، ووضوح في المنطق ، وسلامة في التعبير ، وقوة في الحجة . كان مؤمناً من أخلص

المؤمنين لدين الله ، فجزاه الله عن جهاده وكفاحه خير الجزاء .

ابن مَغْطير الجَنَّاوني

كان سكان ليبيا قبل الفتح الإسلامي ، إما وثنيون يعبدون الأصنام ، وإما نصارى يتبعون المسيحية المحرفة ، فلما بلغت الدعوة الإسلامية ليبيا ، في بساطتها ووضوحها وصراحتها ، وهدايتها بالحق وإلى الحق ، وتقريرها لعلاقة الإنسان بالإنسان ،وعلاقة الإنسان بخالق الإنسان ، على مبدأ تساوي بني آدم في حقوق البشرية والعبودية لله وحده . اعتنقها الناس لهذا الأسباب ، حينما قارنوا الحق الواضح فيها بالأباطيل التي كانوا يتبعونها، ولما كان حاملو الدعوة جيوشاً مهمتها الفتح ، والجيوش الفاتحة لا تجد الوقت الكافي لنشر الثقافة الإسلامية الواسعة ، لذلك فقد تكونت حركة البعوث العلمية إلى المشرق .

لقد جاء سلمة بن سعد في أوائل القرن الثاني ، يدعو الناس إلى التمسك بدين الله ، وعدم الانصياع لعبدة الأهواء ، وطلاب الدنيا ، والانخداع لأصحاب البدع ، تلك البدع التي ضل بها ناس عن صراط الله السوي ، وأضلوا بها .

وفي هذا الوقت الذي كان فيه هذا المؤمن الداعية يكافح من اجل المحافظة على صفاء دين الله وسلامته من الأهواء والانحرافات والبدع ، في هذا الوقت كان بطل آخر من أولئك الأبطال الذين يملكون إرادة أقوى من الزمن ، وعزماً أشد من مصائب الحياة . كان هذا البطل قد قطع المسافة العلوية بين جبل نفوسة والبصرة في العراق ، ليغترف العلم من منبعه

الصافي : أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، وزملائه في البصرة . في ذلك المعمل الذي أسس في ظاهرة لإنتاج القفاف، وفي الحقيقة لإنتاج الدعاة من حملة دين الله المخلصين . فأنتج رجالا كانوا مثلا أعلى للأسرة المسلمة ، في صحة العقيدة ، والتمسك بالدين ، والفهم الحق لرسالة الإسلام ، والتخلق بأخلاق سيد المرسلين ، ومن اهتدى بهديه من المؤمنين المتقين .

هذا البطل الذي أتحدث عنه : هو العلامة محمد بن عبد الحميد بن مغطير الجناوني ، فعندما كان الداعية سلمة بن سعد يكافح لتكوين بعثة علمية من أنجب الطلاب ، كان ابن معطير يغترف العلم من منهله العذب .

ورجع إلى وطنه قبل أن تسافر البعثة العلمية التي كونها سلمة بن سعد ، والتي كان لها شأن هام في ليبيا . شأن في نواحي الحياة المختلفة ، ناحية السياسة ، وناحية الدين ، وناحية المجتمع .

يبقى ابن مغطير في التدريس والفتوى ، حتى تخرجت البعثة العلمية في البصرة ، ورجعت إلى المغرب الإسلامي ، باسم " حملة العلم إلى المغرب " فامسك ذلك العلامة البطل عن الفتوى ، معتذرا بأن حملة العلم أولى بالفتوى ، لأنهم أخذوا عن الإمام بعد أن حرر جميع الأقوال .

إن ابن مغطير هو أول ليبي فكر في تكوين البعثات العلمية ، ونفذ الفكرة في نفسه وتبعه الآخرون .

والوطن الليبي بل المغربي مدين لهذا الجندي المجهول الذي

يقطع هذه المسافات الطوال من ليبيا إلى العراق في ذلك الزمن الذي يعسر فيه الانتقال . منفرداً وحيداً، يحمل مشعل العلم والنور إلى وطنه ، حتى يستنير به أبناء هذا القسم من الأمة العظيمة في هذا الطرف من المملكة الشاسعة التي لم تتح لها ظروف الفتح أولا ، والثورات الحمقاء المجنونة ثانيا – لم تنجح لها هذه الظروف غير المستقرة أن تهتم بقضية العلم والتعليم ، التي هي أهم رسالة يدعو إليها الإسلام ويطالب بها بنيه .

ومع هذا المجهود الجبار الذي يبذله هذا البطل لخدمة الأمة وإعلاء كلمة الله ، يمر عليه التاريخ فلا يشير إليه إشارات عابرة كما يشير إلى أي شخص عادي . ومع ذلك فالرجل راض عن هذا الموقف من التاريخ ، ونحن أيضاً راضون له بهذا الموقف من التاريخ، لأنه عندما كان يقدم على ألوان الكفاح ، واقتحام العقبات والصعاب ، لم يجعل في عمله حسابا للتاريخ ، أو لرأي الناس فيه ، أو لمدح المحبين ، ونقد المبغضين . لقد كان عمله خالصاً لله ، وقد علمه الله ، وعنده وحده يكون الجزاء .

ومهما يكن ، فقد فتح الطريق للبعثات ، واستجاب لأمر الله ، حين أوجب على طائفة من المسلمين أن يتفقهوا في الدين ، لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، وربط الصلة بين مشرق الأمة ومغربها ، ودعا إلى تطبيق أحكام الله ، وتنفيذ أوامره ، حسبما كان معروفاً في زمنه صلى الله عليه وسلم وفي زمن الخلفاء الراشدين ، وكان شديداً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقافا عند حدود الله ، لا يتدخل فيما لا يعنيه ، ولكن عندما يجترئ مجترئ على الحق يقف له موقف المؤمن الغيور الذي لا

تأخذه في الله لومة لائم .

وقد بارك الله في عمره ، فامتدت به الحياة إلى أن جاء الإمام عبد الوهاب إلى جبل نفوسه ، فكان يحضر مجلسه على كبر سنه . ولعل في الحادثة الآتية مثلا رائعاً لمن أراد أن يقتدي بأعلام الإسلام وأدبهم في إقامة الحق واتباع دين الله : ارتفع رجلان في خصومة إلى الإمام عبد الوهاب ، فاسترد الإمام المدعى عليه الجواب ، ولكن الرجل اعتز بالإثم ولم يجب الإمام ، فسأل الإمام عن ابن مغطير ، فأجيب بأنه غير موجود ، فقال للخصمين قوما إلى غد ، ورجع إليه الخصمان في اليوم الثاني والثالث ، فكان موقفهما منه مثل موقفهما في اليوم الأول . وفي اليوم الرابع عندما تخاصما من جديد وطلب الإمام إلى المدعى عليه أن يجب فلم يجب ، سأل الإمام عن ابن مغطير ، وكان بناحية من المسجد ، فما أتم الإمام سؤاله حتى وثب ابن مغطير – وكان شيخاً طاعناً في السن – على الممتنع ، فوطئه بركبته ، ولم يتركه حتى استغاث بالإمام وأذعن للحق .

وفي القصة مثل رائع عن خلق هؤلاء الأئمة وأدبهم ، هؤلاء الأئمة الذين لا يرتفعون عن الأمة ولا يحتجبون عن أفراد الشعب ، ولا يتخذون قصوراً دونها حرس وحجاب ، وإنما كانوا يجلسون في المساجد كما يجلس أي مسلم ، وهم يتولون شؤونها ، وينظمون أمورها ، ويفصلون مشاكلها بروح الإسلام الذي يفصل بين الناس بالعدل لا بالقوة ، وبالحق لا بالغطرسة ، وبالبساطة لا بالتبجح والدعوى .

وفي القصة مثل آخر رائع ، ضربه ابن مغطير ، هذا الشيخ الهرم ، الذي حضر دروس أبي عبيدة قبل أن يحضرها أبو هذا الإمام ، وامتدت به الحياة حتى رأى هذا التجني على الحق والاستكبار عن أمر الله ، وإساءة الأدب أمام أمير المؤمنين ،فأردا أن يعلم الحاضرين في المسجد أن القوي أمام الحق ضعيف ، وأن الضعيف إذا كان في جانب الحق قوي . بل أراد أن يعلم أولئك الحاضرين أن الحقوق لا تعطل لاستكبار المستكبرين ، واعتزاز الأثمين بالإثم ، فإذا خطر لأحدهم أن يقف هذا الموقف ، وجب على أولئك الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر أن يتناولوه بالشدة وأن يعلموه بالأدب .

أما العبرة الثالثة التي تستخلص من هذه القصة ، فهي هذا الاحترام العظيم الذي يسبغه الإمام العظيم على العالم العظيم . إن عبد الوهاب لم يتوقف عن تأديب هذا الشخص خوفاً منه ، ولا جهلا بأحكام الله ، ولا تساهلا في دين ، ولكنه أدب طبع عليه ، وتقدير لهذا العلامة الذي يجب أن يستشعر كل مسلم في ذلك الحين عظمته وطموحه ومحبته لدين الله ، وكفاحه من أجل العلم .

إن ابن مغطير ، هذا الرجل الذي جاب الآفاق طلبا للعلم ، وعاش للتدريس والفتوى ، ثم حمل أمانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لمثلٌ حي يجب أن يقتدي به المؤمنون ...

كفاح الإباضية ضد الطغيان

كانت جيوش الفتح الإسلامي تحمل رسالة الله منطلقة بها في البلاد ، تدعو إلى الإسلام ، الإسلام المجرد الذي دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، نظيفا من الظلم ، نظيفاً من الطغيان ، نظيفاً من الجهل ، نظيفا من العنصرية ، نظيفاً من البدعة ، فكانت الشعوب تستبق إليه ، وتدين به ، مؤمنة مخلصة .

فلما انتهي عهد الخلفاء الراشدين ، بما يحمل من هدى وعدل وحق ، وخلقه ملك عضوض ، يتنازع عليه أهل البيت الواحد قبل أن ينازعهم فيه البعداء عنهم ، ويجده من حصل عليه منهم فرصة سانحة للاستغلال . الاستغلال في أبشع صوره ومظاهره ، وأصبحت النفس المسلمة التي حرم الله قتلها ، أهون عندهم من نفس ذبابة ، وانحرف أولئك الذين يحملون أمانة الدولة عن الطريق التي رسمها لهم كتاب الله ، وهدي محمد عليه السلام ، وسيرة أصحابه الأخيار ، رضوان الله عليهم .

لما انحرف من بأيديهم مقاليد الدولة عن سبيل الله القوم ، إلى سبل مهدها الشيطان للنفس والهوى : ثار الناس . وكان حقاً على المؤمنين أن يثوروا لهذا التبدل ، وأن يعترضوا هذا الانحراف من حملة رسالة الله ، وأن يقفوا ضد الطغيان والظلم والعدوان .

ولقد اتخذت هذه الثورة على الانحراف عن دين الله مظهرين في الكفاح :

* أولها : كفاح الباطل الزاحف في ركاب الأمراء والعمال وأتباعهم .

* وثانيهما : كفاح الباطل الزاحف في ركاب المبتدعين من أدعياء العلم والإيمان . ويتضح الأول في الثورات الدموية – ضد الظلم – التي انتشرت في جميع الجهات للإطاحة بأجهزة الحكم الفاسدة ، والتي لا تزال إلى اليوم تقف هذا الموقف ، تسنح لها الفرصة فتمتشق الحسام . ويضيق عليها الخناق فتكفى بالنقد .

ويتضح الثاني في مواقف العلماء المخلصين من البدع والأهواء ، وفي تشوق الأمة إلى معرفة الحقائق العلمية من مصادرها الموثوق بها ، ولذلك تلجأ إلى إرسال البعثات رغم ما تتكبده في ذلك من مشاق وأتعاب .

ولقد وقف الإباضية في ليبيا كما يقف جميع المسلمين المخلصين إلى جانب دين الله ، يدافعون عن الحق بما أوتوا من سلاح وعلم ، وفي الفصول المقبلة سوف نعرض صورا من كفاح

الإباضية ضد الطغيان ، وصورا أخرى من كفاحهم ضد الجهل والبدعة والخرافة والانحراف عن سبيل الله .

بدأ كفاح الإباضيه ضد الطغيان ، في سلسلة ثورات قاموا بها في ليبيا . وكانت الشرارة الأولى التي أوقدت هذه الثورة ، ثورة الإباضية على عدوان عمال بنى العباس ما ستقرؤه في الفصل الآتي .

ورة الإباضية على اليَاس بن حبيب

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي في كتابه " تاريخ الفتح العربي في ليبيا " :" عين عبد الرحمن أخاه الياس عاملا على طرابلس ، وما زالت العرب إذ ذاك يخافون ثورة البربر وتدبير مكائدهم ، وكان رئيسهم في طرابلس عبد الله بن مسعود التجيبي رئيس الإباضية ، فقبض عليه الياس وضرب عنقه " .

وهكذا يناقش الأستاذ الزاوي هذه القضية على أنها قضية عرب وبربر لا دخل للإسلام فيها ، وما دام القاتل عربياً والمقتول بربريا فالقضية لا تستحق الاهتمام . وزعم الأستاذ الزاوي أن عبد الرحمن أراد أن يسترضى الإباضية فأقال أخاه الياس، ولكن هذا العمل لم يرض الإباضية ، فقال الزاوي في نفس الكتاب وفي نفس الصفحة : " وما زال الإباضية في غضبهم حتى نزعوا إلى الفتنة " انتهي كلام الأستاذ الزاوي .

إنني أريد أن أناقش هذه القضية بروح غير الروح التي يناقشها بها الأستاذ الزاوي ، أريد أن أناقشها بروح المسلم الذي يستوي عنده العربي والبربري ، والأمير والفلاح ، (المسلمون

تتكافأ دماؤهم) وأن أعرض هذه القضية على دين الله .

إن عاملا في دولة إسلامية خاف من فرقة أو قبيلة أن تثور على ظلمة ، وترد عليه عدوانه ، فدعا إليه رئيس هذه الفرقة أو القبيلة وقتله ، دون أن يرتكب هذا الشخص ما يحل به دم امرئ مسلم ، وليس له من جريمة إلا أن العامل الظالم كان يخشى عواقب ظلمه وطغيانه .

هل نجد مسلماً صحيح الدين ، سليم العقيدة يحل دماء المسلمين لوساوس الأمراء ومخاوف الظالمين . فيفتي بجواز هذا القتل .

أي شرع ؟ أو أي عقل يحل دم مثل هذا الرجل البريء ؟ ثم لماذا لا نعتبر هذا الاستخفاف بدماء المسلمين وإراقتها دون موجب بحثاً عن فتنة ، وإثارة لثورة ، وتدبيراً للمكائد ؟ .

إن الإسلام قد حرم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ، ولم يبح منها شيئاً لوساوس الحكام وتخيلات العمال ، وأوهام الأمراء ، ومكائد الحواشي ...

إن رجلا يتولى أمر جماعة من المسلمين فيبلغ به الهوس إلى هذا الحد حقيق أن تثور عليه الأمة ، وتقتص منه للحق والعدالة ، وقد ثارت الأمة واقتصت ...

ثارت بالطريقة التي يدعو إليها الإسلام ، وفي الحدود التي جعلها المشرع الحكيم. واقتضت بالطريقة التي يدعو إليها الدين والعقل والإنسانية في أسمى معانيها.

ولا أريد في هذه القضية أن أرجع إلى مصادر الإباضية في التاريخ ، ولكنني أعتمد أيضاً على الأستاذ الزاوي في كتابه " الفتح العربي في ليبيا " فاستمع إليه يقص علينا قصة هذا الثأر :

" وما زال الإباضية في غضبهم حتى نزعوا إلى الفتنة ، وتقدم إلى قيادتهم أحد رؤسائهم وهو عبد الجبار (4) ابن قيس المرادي ، فالتفوا حوله ، وأعلنوا الثورة على العكي ، فخرج لمحاربتهم ، وأناب عنه في القيام بشئون المدينة " بكر بن عيسى" فحاصروا العكي في بعض القرى ، فطلب منهم الأمان فأمنوه ، وأخذوا من أصحابه نصير بن راشد مولى الأنصار فقتلوه في عبدا لله بن مسعود التجيبي . "

لست أدرى لماذا يريد الأستاذ الزاوي أي يرمى الإباضية بطلب الفتنة ، وهو نفسه يقرر أن الإباضية لم يقوموا ضد هؤلاء العمال الظالمين بشيء ، حتى بدأ هذا العامل الموسوس عدوانه عليهم ، فقتل رئيسهم دون جريرة ، فثاروا ، ولما انتصروا لم يزيدوا عن قتل رجل واحد ، رجل برجل حسب أمر الله أما العامل العكي فقد أطلقوه في أمان بعد أن تم لهم النصر .

إن هذا الموقف المشرف لم يقفه عامل واحد من عمال بنى أمية أو بنى العباس في حروبهم ضد أي طائفة من المسلمين ، وفي حروبهم الطويلة مع الإباضية ، ولم يتجاوزا أئمة الإباضية هذا الموقف المشرف في جميع حروبهم مع الموحدين .

4 - بويع الحارث بن تليد وعين زميله وصديقه عبد الجبار قاضيا ، خلافا لما ظنه الزاوي .

ومع أن الحق في هذه القضية واضح جلى ، والأستاذ الزاوي نفسه يروى حقائق التاريخ كما وقعت ، إلا أنه مع ذلك غير راض ، فيزعم أن الإباضية ينزعون إلى الفتنة ، ويثير قضية العرب والبربر ، هذه القضية العنصرية البعيدة عن روح الإسلام ، ولكنه حرص أن يحييها ويتتبعها ، ولا ينفك في كل فرصة عن رمى البربر بأنهم أصحاب فتنة ، وتدبير مكائد ، وقد قدمت في غير هذا الفصل من هذا الكتاب ، أن أحياء العنصرية قضية لا يدعو إليها مسلم ، فقد حاربها رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، ويكفى فيها قوله عليه السلام (دعوها فإنها منتنة)

وقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام من العرب ، وارتد أقوام بعد الإيمان ، كما فعل ذلك أقوام من البربر وغيرهم من الأجناس ، ولكن ما فعله أولئك الذين كتب لهم الشقاء ، لا يحسب جريرة على أجناسهم أو عناصرهم ، والإباضية يحرصون كل الحرص أن يكون الرابط الذي يربط بين صفوفهم إنما هو التمسك بدين الله ، كما جاء عن محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن لديهم أي اعتبار لغير هذه الرابطة ، وحسبك أن تعلم أن هذا الإمام الذي بايعوه في ثورتهم على الظلم ، ليناهض عدوان المعتدين من عمال بنى العباس الظالمين ، إنما هو الحارث بن تليد الكندي العربي ، فهل هذه الثورة فتنة من البربر ؟

إن الإباضية لا يعرفون العنصرية ، ولكن يعرفون أن أكرم المؤمنين عند الله أتقاهم ، وأن أبغضهم إليه أظلمهم وأعصاهم.

يستوي في ذلك العرب والبربر ، والهنود الحمر والأحباش السود ، كلكم لآدم وآدم خلق من تراب .

إن مرارة العدوان على أقدس شيء في شريعة الإسلام وهي النفس البشرية ، هي التي جعلت الإباضية يثورون ، وحق لهم أن يثوروا ، وأن يقلبوا نظام الحكم على أولئك الظالمين ، فإن حكم الله أحق أن يتبع . وهم عندما يثورون لا يطغون ولا يتجاوزون الحدود التي رسمها لهم حكم الله .

والأستاذ الزاوي على ذلك من الشاهدين ، فإن قتل النفس بالنفس هو الحكم الذي نزل به الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ولن تجد مهما فتشت في مطاوي التاريخ ، وعند غير الخلفاء الراشدين ، هذه المواقف المشرفة التي يقفها الإباضية من أعدائهم ، حين ينهزم أولئك الأعداء ؛ يخير أمير الجند وقائد المعركة بين البقاء أو الرحيل آمناً موفوراً ، وتسلم جميع الأموال والأعراض لأصحابها ، لا يمس منها دانق ولا درهم ، وتحترم الدماء ، فلا تهرق قطرة دم بعد إيقاف القتال ، فلا عقوبة ، ولا تتبع ، ولا مثلة ولا حز رؤوس .

قارن هذا الموقف المشرف الذي لن تجده بعد الخلفاء الراشدين إلا عند الإباضية ، قارن هذا الموقف بمواقف أولئك الذين يحاربون الإباضية ويتهجمون عليهم ، ويقتلون منهم الأبرياء بغير ذنب ، ويهتكون الحرمات ، ويستحلون الأموال ، ويحزون الرؤوس ليبعثوا بها إلى دمشق أو بغداد ... ومع ذلك فإن بعض المؤرخين الذين يعيشون في القرن العشرين ، يحلوا لهم أن يقولوا : " ونزع

الإباضية إلى الفتنة " .

أية فتنة هذه التي نزع إليها الإباضية ، أأن قتلوا القاتل ، نفساً بنفس فحسب وأطلقوا سراح بقية المعتدين ، لم يمسوا شيئاً من دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحرماتهم ؟ لا يتبعون مدبراً ، ولا يجهزون على جريح ، ولا يأخذون دانقاً من مال ؟

ترى ما رأى هذا المؤرخ المعاصر لو أن الإباضية ارتكبوا ما يرتكبه فهم محاربوهم ، فلم يعفوا عن مال أو دم أو عرض أو حرمة ؟

وما رأيه لو أن جميع الحروب التي وقعت في التاريخ الإسلامي كان الدافع إليها والسيرة فيها مثل دوافع الإباضية وسيرتهم في الدماء والأموال .

لقد كان الخوارج يستحلون دماء المسلمين وأموالهم بالتأويل الخاطئ ، أما رجال الدول الظالمة وأجنادهم فقد كانوا يستبيحون جميع الحرم من دم ومال وعرض بالعمل . وكلا الموقفين بعيد عن الإسلام ومبادئ الإسلام ...

عمرو بن يمكتن (5)

مؤمن من المؤمنين المخلصين ، وبطل من أبطال الكفاح ،كفاح النفس عن الشهوة ، وكفاح الجهل بدين الله ، وكفاح الظلم والعدوان في شتى مظاهره وألوانه .

قال فيه أبو العباس – وحسبك بشهادته شهادة " ساد أهل زمانه علماً وعملا ، وسارع إلى الخيرات قولا وفعلا ،قال ابن سلام : كان عالماً من علماء المسلمين "

وهي شهادة من محقق ، لا تقل عن سابقتها لو كان الرجل يحتاج إلى شهادات، ولكن هذا البطل وأمثاله من الأبطال في غنى عن شهادات الناس لدينهم ولدنياهم.

كانت أمنيته وهو شاب صغير لا يجد مدرسة يلتحق بها ، أن يحفظ كتاب الله ، وأن يعلمه للناس ، ولما عسر عليه هذا المطلب ، وعز عليه تحقيق الأمنية الغالية في قريته النائية في جبل نفوسة ، سافر إلى مغمداس . هذه الطريقة التي يمر بها أفواج المسلمين مشرقين أو مغربيين . فيأخذ معه لوحه منذ الصباح

5 - ذكره أبو زكريا في الطبقة الثالثة ؛ فهو من علماء النصف الأول من القرن الثاني الهجري . كان عاملا للإمام أبي الخطاب ، على سرت ونواحيها

الباكر ، يعترض السابلة ، يتلقى منهم آيات من كتاب الله حتى إذا امتلأ لوحه رجع إلى البيت ليستظهر ما كتب من آيات بينات ، فإذا حفظها رجع إلى الطريق ، ولم يمض عليه وقت طويل في هذا الكفاح حتى حفظ كتاب الله وكثيرا من سنة رسول صلى الله عليه وسلم ، وحينئذ اطمأنت نفسه ، ويرجع إلى " أفاطمان " هذه القرية الحبيبة إلى نفسه ، والتي لم يبق منها اليوم إلا آثار شاهدة ، بين الخرابة والرحيبات من جبل نفوسه . وفي هذه القرية فتح عمرو ابن يمكتن أول مدرسة لتعليم كتاب الله . فكان الناس يقبلون عليه في شغف ورغبة .

لقد أنجبت دَمُرَا بنت دَرُجو الحمدانية هذا البطل وهو أصغر أبنائها وحسبها ولداً .

كافح مفرداً فحفظ كتاب الله من السابلة . وافتتح أول مدرسة قرآنية ، ما لبثت أن أصبحت مناراً يشع النور والعلم والإيمان في كامل جبل نفوسة ، بل في كامل الجزء الجنوبي من ليبيا ، وصارت " أفاطمان " منذ ذلك الحين مقراً لأهل العلم والفضل والدين .

أما عمرو بن يمكتن فلم يلبث أن أنتقل من أفاطمان ، انتقل ليكافح كفاحاً أعظم خطراً وأهم شأناً في واجهة أخرى .

بايع الإباضية أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح أميراً للمؤمنين على ليبيا وما جاورها، بايعوه على أن يقيم فيهم كتاب الله ، ويحكم بينهم بحكم الله ، ويسير بسيرة الخلفاء الراشدين ، وأن يرد عنهم عدوان المعتدين ، وطغيان الطاغيين

وسارع إليه المؤمنون الذين ملوا الجبروت والجور والظلم ، وكان من أسرعهم إليه وأخلصهم لإعادة حكم الإسلام كما أنزله الله ، عمرو بن يمكتن ، وعرف الإمام دينه وخلقه وأمانته فوثق به ، وَمَنْ لا يثق بمثل هذا الرجل القوى الأمين ؟ فجعله قائداً على بعض الجند في حروبه الأولى ، ثم عينه عاملا على سرت ، ومن أولى بعمالة سرت من عمرو بن يمكتن ، هذا الرجل الذي عرف مسالك البلاد وطبائع أهلها وهو طالب علم يقتبس الحكمة والهدى من حملة كتاب الله .

" سرت " هي طريق العباسيين للعدوان وخدة المعتدين ، ولذلك كان أبو الخطاب يلتمس لها عاملا تتوفر فيه معرفة البلاد وطبائع أهلها ، والقوة في دين ، والعلم بأحكام الله ، والشجاعة في مواطن الكفاح ، واليقظة والحذر والذكاء .

ووجد هذه الصفات في هذا البطل ، فجرى به التعيين .

وذهب العالم الحافظ البطل إلى هذا الثغر ليحول دون غارات الأعداء ، وليذيق سكان تلك الجهات طعم السيرة المرضية ، السيرة التي دعا إليها دين الله ، وسار بها المؤمنون حقاً .

لقد اتخذ أبو الخطاب مركز الدولة في طرابلس وكانت أهم الثغور عنده هي سرت والقيروان ، واختار الإمام أقوى رجلين عنده ليجعلهما في هذين الثغرين ، فولى عمرو بن يمكتن الأفاطماني على سرت وولى صديقه وزميله في الدراسة عبدالرحمن بن رستم على القيروان . وهذا يدل أن منزلة والي " سرت " في ذلك الحين لا تقل عن منزلة عبدالرحمن في نفس أبي الخطاب

، ولعل مركز سرت في ذلك الحين وهي معبر الجند والقوات أهم من مركز القيروان وهي مقصد الخوارج والمعتزلة وموطن الثورات والشغب .

أخذ العامل الحازم يعمل بما يقتضيه هذا المنصب : ينشر العدل ، ويوصل الحقوق ويقيم أحكام الله ويسير بين الناس سيرة المؤمن بين إخوانه المؤمنين ، وكان مستمداً لمحاربة الجيوش الغازية ، لا يخشاها ، وقلوب الناس معه وهم راضون عنه محبون له ، ولم يكن يخشى من تلك الجيوش إلا المباغتة حينما ينصرف الناس إلى أعمالهم وقد أمنوا العدو . ولذلك فقد كان لا ينفك يسأل عن تحركات العدو ونواياه ، ومن مأمنه يؤتى الحذر .

إن عمرو بن يمكتن الذي يسير بسيرة أبي الخطاب لم يكن يتخذ جنداً مقيما تدفع له الرواتب ، وهو ينتظر الساعة التي يدعى فيها إلى الحرب كما يفعل بنو العباس ، ولما كان يسير سيرة الخلفاء الراشدين ، عندما يخرب الأمر ويقتضي الدفاع أو إعلان الحرب ، يدعوا الناس إلى التطوع فيتطوعون وهم يؤمنون بالفكرة، ويحاربون عن مبدأ ، حاولت الجيوش العباسية أن تحارب أبا الخطاب علناً، فلم تستطع ، وانهزمت هزائم منكرة في عدة وقائع ، ولذلك لجأت إلى الحيلة.

كان محمد بن الأشعث الذي عينه أبو جعفر المنصور لمحاربة أبي الخطاب ، وجعل تحت قيادته جيشاً يتكون من سبعين ألف جندي معد للقتال يعرف أنه لا يستطيع أن ينازل هذا الإمام القوي في جند يحارب عن مبدأ ، ويدافع عن حق ، فلجأ إلى

الحيلة .

أوعز إلى من يخبر عمرو بن يمكتن عامل الإمام أبي الخطاب أن محمد ابن الأشعث لا يحاربه إلا علناً ، وفي وضح النهار ، وقال له (لا يأتيكم ابن الأشعث بغفلة ، وهو في جند أمير المؤمنين برجال مشمرين ، وخيل مضمرات ، وسيوف مهندات ، بل يأتيكم جهاراً نهاراً) وهكذا أمن عامل أبي الخطاب على سرت من المباغتة ، ثم أظهر ابن الأشعث أنه ينوي الرجوع ، وأمر جيشه بالتحرك ، وقتل من اعترض الفكرة ، فكره الرجوع ، فانطلت الحيلة على أصحاب أبي الخطاب وهم كما قلت سابقاً متطوعون ، والموسم موسم حصاد ، ففضلوا أن يذهبوا إلى كفاحهم من أجل الحياة ما دام الخطر بعيداً ، ورغم تحذير أبي الخطاب لهم وفهمه لنوايا ابن الأشعث ، إلا أن القوم تفرقوا ، وعندما فهم ابن الأشعث أن حيلته انطلت على أصحاب أبي الخطاب ، وأنهم تفرقوا عنه ، أغذ السير ، وجاءهم على حين غفلة ، وقتل عامل سرت فيمن قتل من الأبطال ، وتم النصر لابن الأشعث وجنده ، وارتكبوا من الجرائم – بعد الحرب – ما تعوده العمال الظالمون ، من نهب وسلب وتقتيل واتباع للفارين وترويع للآمنين المسالمين ، وانتهاك للحرمات التي صانها الإسلام ، وحفظها الإيمان بالله ...

وفي هذه الموقعة الحاسمة التي وقعت في تاورغا استشهد بطل من أشد الأبطال، وعالم من أعظم العلماء ، ومؤمن من أخلص المؤمنين ، فاختتمت صفحة بيضاء من صفحات التاريخ الإسلامي ، سجلت عليها مآثر في كفاح النفس وكفاح الجهل ، وكفاح العدوان .

وإذا كان سلمة بن سعد أول داعية إلى اتباع الحق في هذه الربوع ، وكان أبن مغطير أول منفذ لفكرة البعثات العلمية ، وهما بذلك يبنيان ركناً هاماً في تاريخ الكفاح العلمي ، فإن ابن يمكتن هو أول من استطاع أن يبلغ إلى درجة علمية بقوة الإرادة والعمل الدائب المستمر ، ثم هو أول من أفتتح مدرسة لتعليم كتاب الله ، وبهذا العمل المجيد يحق أن يعتبر من أهم أركان الكفاح العلمي في ليبيا ، ولكنه بالإضافة إلى هذه الصفات المشرفات التي يسجلها مع زميله في خدمة العلم والدين ، له صفحات أخرى مشرقات في كفاح الظلم والطغيان ...

إنه شخصية هامة في تاريخ الحركات الإسلامية في ليبيا ، وأنت حين تتحدث عن أبطال الكفاح السياسي أو العسكري لا يمكن أن تغفل هذا البطل القوي ، وحين تتحدث عن العلم والعلماء ، وعن الإيمان والمؤمنين ، وعن الكفاح من أجل الحق في جميع ميادينه ، لا يمكن أن ننسى عمرو بن يمكتن ، وهنيئاً لدَمُرا الحمدانية فيما أنجبت ...

إن الحديث عن عمرو بن يمكتن باعتبار الحوادث السياسية يكون بعد أبي الخطاب ، ولكنني حين تحدثت عن جانب من الكفاح العلمي ، وتعرضت لسلمة وابن مغيطر ، رأيت أن أتحدث عن هذا العامل هنا ، لأنه يمثل جانباً من الكفاح العلمي في ذلك العصر ،وبه تتم الصورة التي أردت أن أضعها بين يدي القارئ الكريم لذلك العصر .

الحارث بن تليد

بطل من أولئك الأبطال الذين يظهرون فجأة عند الحوادث ، فيبرزون بين الصفوف لقيادة الجموع عندما تكون القيادة رسالة يجب على المؤمن أن يؤديها .

لقد كان الإباضية في ليبيا منصرفين إلى دينهم وأعمالهم ، لاتهمهم مناصب الدولة ، ولا يلتفتون إلى كراسي الحكم ، حتى تحرش بهم الياس بن حبيب فقتل أحد المؤمنين دون جريرة ، ليرهب جانبهم ، ويزرع في قلوبهم الذعر فيما حسب، ولكن القضية جاءت بعكس المطلوب .

طلبت الإباضية من عبد الرحمن بن حبيب أن يقتل أخاه إلياس بقتله مسعود التجيبي ولكن العامل آبى من ذلك وكل ما فعله أنه عزل أخاه إلياس عن ولاية طرابلس وولى بدله حميد بن عبد الله العكي ، يعنى أنه جعل العزل من منصب يكافئ دم مؤمن برئ ...

ولما وقف العامل هذا الموقف البعيد من حكم الله ، ثار الإباضية ، فبايعوا الحارث بن تليد إماماً ، فتقدم وهو يعلم أنه يتقلد أمراً عظيما ولذلك اختار عبدالجبار بن قيس المرادي قاضياً

، ومشيراً ، وصديقاً ، فكانا ثنائياً لا يفترق حتى أن كتب التاريخ لا تذكرهما إلا مقترنين ، بل إن بعض المؤرخين لم يعرف الأمير من القاضي .

وما سمع العكي والي عبد الرحمن بن حبيب على طرابلس ببيعة الإباضية للحارث بن تليد حتى جهز جيشاً وخرج للقضاء عليه ، ولكن النصر كان في جانب الإباضية ، فتفرق جيش العكي وألقى عليه القبض في إحدى القرى ، فأطلق سبيله وخيَّر بين البقاء ، له حقوق المسلمين وواجباتهم ، أو السفر آمنا موفوراً ، فاختار السفر ، ولم يقطع الإباضية رأسه ليعلقوها على سور المدينة كما يفعل الظالمون ، وإنما كل ما فعلوه عندما تم لهم النصر أن قتلوا رجلاً في صاحبهم ، رجل برجل كما يقضى حكم الله من سبع سماوات ...

والتف الناس حول الحارث بن تليد في ليبيا لعدله واستقامته وسيرته الرضية ، فاهتم لذلك عبدالرحمن بن حبيب وصار يرسل الجيش تلو الجيش للقضاء على هذه الإمامة التي انتزعت ليبيا من الحكم الظالم ، ولكن جميع هذه الجيوش كانت تعود إليه منهزمة ، وأصبحت ليبيا كلها تحت حكم الإمام الحارث بن تليد .

وعندما عرف عبدالرحمن أن القوة لا يمكن أن تنتصر على الحق ، وأن الجند الذين يحاربون عن متاع من الدنيا قليل ، لا يمكن أن يقفوا في وجه جند يدافعون عن مبدأ اعتنقوه ، وحق اعتقدوه ، عندما عرف ذلك لجأ إلى الحيلة .

لقد كان الإمام الحارث يسير بسيرة الصفوة من حكام

الإسلام ، لا يتخذ حاجباً ولا يجعل على باب بيته حارساً ، ولا يرد عنه متظلم أو باك ، ولذلك كان الناس يغشون بيته في أي وقت شاءووا ليس بينهم وبينه إلا الإذن الذي فرضه أدب الإسلام على المؤمنين .

واستغل العدو هذه السيرة العطرة في أبشع ما يستغل به الحق للباطل ، فقد أوعز إلى جماعة ممن لا دين لهم ولا ضمير ، فدخلوا على الإمام وكان قاضيه وصديقه معه ، دخلوا في صورة متخاصمين ، ولما اطمأنوا إلى أن الإمام والقاضي مستغربان في تفهم المشكلة المعروضة عليهما ليحكما فيها بما أنزل الله وهما غير مسلحين ، وثبوا عليهما وقتلوهما ، وجعلوا في يد كل واحد منهما سيفاً ، ثم خرجوا ، وكأنهم لم يرتكبوا أفظع جريمة يرتكبها رجل سلب الإيمان والضمير .

واكتشفت الحادثة فيما بعد ، واعتقد كثير من الناس أن الصديقين تنازعا فقتل كل منهما صاحبه ، وكثر النقاش في معرفة الظالم من المظلوم ، ولم تنجل الحقيقة إلا بعد أن وجد عبدالرحمن بن حبيب الفرصة التي يتحينها ، فحينما كان الإباضية في موقف الحائر المتردد في معرفة الحادثة والأسباب الداعية إليها ، وعندما كان العارفون منهم يحاولون أن يوحدوا الصفوف والجهود فكانوا يسترشدون برأي إخوانهم في المشرق ، وكان الرسل يقطعون المسافات الطويلة ذهاباً وإياباً ، في هذا الحين استطاع العامل القيرواني أن يكسب المعركة ، وأن يرجع إليه حكم البلاد ، وهكذا نجحت المكيدة حينما فشلت القوة ، ولم تزل المكائد والفيلة هي سلاح الظالمين في كل عصر ومصر .

أبو الخطاب
عبد الأعلى بن السمح

كانت دروس أبي عبيدة في معاني الحرية ، وفي الكرامة البشرية ، وفي وجوب إقامة شعائر الله ، والمحافظة على حقوق الإنسان التي أقامها الإسلام ، وفي تحريم الخنوع والذلة والاستسلام على المؤمنين ، وفي وجوب محاربة الطغاة ومطالبتهم بالوقوف عند حدود الله ، كانت تلك الدروس الدينية والوطنية قد أثرت تأثيرها الحسن على نفوس طلابه الذين لقبوا فيما بعد " بحملة العلم إلى المغرب " ولذلك فقد سألوه عندما أخذوا حظهم من العلم ، وتحصلوا على الدرجة التي تؤهلهم لتبليغ الدعوة ، الدعوة إلى دين الله كما جاء به رسول صلى الله عليه وسلم ، سألوا الإمام الكبير هل يجوز لهم إذا أنسوا في أنفسهم قوة ، ورأوا أنهم يستطيعون أن يقيموا أمر الإسلام على ما جاء في دين الله وسيرة السلف الصالحين ، هل لهم أن يقوموا لذلك ؟ واستمع الإمام إليهم وهو يتوقع منهم خيراً وأذن لهم في العمل ، واختاروا لهم أبا الخطاب ليقوم بأعباء الدولة المسلمة الجديدة ، فإن امتنع قتلوه وولوا غيره .

ورحل الزملاء الأصدقاء الذين ربطت بينهم أواصر الدين وزمالة الدراسة ، فاختاروا ليبيا لأقامتهم ، واستقروا بعاصمتها طرابلس ، هذه المدينة الجميلة الجالمة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، أما البلاد التابعة لهذه المدينة فقد كانت تمتد في الأقطار الثلاثة :ليبيا ، تونس ، الجزائر ، هذه الأقطار التي أصبحت اليوم ممالك مستقلة عن بعضها بما أقامه الاستعمار من حدود بينها أما في ذلك التاريخ فإن الإسلام لا يقيم الحدود ولا يقسم الشعوب ، ولا يعرف القوميات الطبقية ، ولا الجنسيات المختلفة ، إن المبدأ الذي يؤمن به الجميع هو : (الله ربنا ، والإسلام ديننا ، ومحمد نبينا ، والكعبة قبلتنا ، والقرآن إمامنا ، رضينا بحلاله حلالا ، وحرامه حراماً ، لا نبتغي به بدلا ، ولا عنه حولا ، لا جنس ولا لون ، ولا وطن. فالجنس هو البشرية ، والوطن هو بلاد الإسلام ، أما اللون فإن الأبيض والأسود والأصفر والأحمر كلها من خلق الله الذي أحسن كل شئ خلقه ثم هدى) .

استمرت البعثة العلمية في طرابلس وكانت البلاد في ذلك الحين تعاني من الظلم والجبروت ، وتقاتل الولاة على مناصب الدولة لابتزاز الأموال ، واستذلال الناس ، والحكم بالهوى الذي ما أنزل الله به من سلطان . كانت البلاد تعاني من ذلك ما لم يبق في قوس الصبر منزعاً ، أو في صدر الحليم سبباً للأناة والاحتمال . وتشاور أربعة أصدقاء من أفراد البعثة في إنقاذ الأمة من هذا الطغيان المسلط عليهم ، وإتاحة فرص الحياة الكريمة لهم ، وإقامة أحكام الله كما أنزلها الله ، وعرضوا فكرتهم على أصحاب الرأي والعلم من أهل البلاد ، فوجدوا منهم إقبالا وتشجيعاً.

وحينئذ أخبروا زميلهم الخامس أبا الخطاب أنهم مطلوبون إلى صلح بين متخاصمين في الضاحية الغربية لطرابلس " صياد " وتم الاجتماع واتفقوا على مبايعة أبي الخطاب بالإمامة ، فلم يدر إلا والقوم يطلبون منه أن يمد يده للبيعة فيحكم بينهم بكتاب الله ، ويقيم الحدود ويسير سيرة الخلفاء الراشدين ، وحاول أن يمتنع من هذه المسؤولية العظمى ، وأن يتخلص من هذا الموقف الذي توضع فيه أمانة الأمة بين يديه ، وأجاب القوم بأنهم إنما أتوا لإجراء صلح بين متخاصمين لا لإقامة خلافة ، ولكنهم أصروا على موقفهم ، وذكروه بوصية الإمام أبي عبيده وخيروه بين قبول البيعة أو القتل ، فرضى مكرها ، ولكنه اشترط عليهم أن لا يذكروا مسألة الحارث وعبد الجبار ، واشترطوا عليه ما يشترطه المؤمنون الذين يلقون بمقاليد أمورهم إلى رجل يثقون بدينه وأخلاقه وأمانته ، وتمت البيعة ، ورجع القوم دون قتال لأن جميع السكان كانوا يتوقون إلى الخلاص مما هم فيه من عذاب ، ودعا أبو الخطاب الوالي السابق على المدينة ، فخيره بين البقاء وله ما لإخوانه من المسلمين ، وعليه ما عليهم من الحقوق والواجبات ، أو الرحيل آمنا موفور الكرامة، فاختار الرحيل . ورتب أبو الخطاب أمور الدولة ، فأسند القضاء إلى إن درار الغدامسي وولى عمرو بن يمكتن على سرت وما والاها .

بدأت الأخبار ترد على أبي الخطاب بما ترتكبه قبيلة ورفجومة البربرية من فظائع في القيروان ، فقد سمع بعتوهم وطغيانهم وجورهم وسومهم الناس سوء العذاب ، وربطهم لدوابهم في المسجد الجامع ، وأرسلت إليه امرأة كتاباً تخبره فيه أنها حفظ

ابنتها في مطمورة خوفاً من ورفجومة ، وأتاه رجل أخبره أنه مر بالقيروان فرأى ناساً من ورفجومة كابروا امرأة على نفسها ، والناس ينظرون إليهم ولا ينكرون ذلك خوفاً منهم ، وبلغه أن جماعة أخرى من هؤلاء الناس أخرجوا امرأة وهي تصيح : يا معشر المسلمين أغيثوني ، فلم يغثها أحد . عندما تواترت هذه الأخبار عند أبي الخطاب ؛ دعا الناس إلى اجتماع ، وحثهم على الجهاد في سبيل الله ، ودفع المنكر الذي يؤتى علنا في بلد مسلم ، وبين أناس مسلمين . فاجتمع عليه عدد وافر من أهل البصائر الذين يؤثرون الآخرة على الحياة الدنيا ، فأمر منادياً ينادى في الجيش ، من كان له أبوان أو أحدهما أو له عروس جديدة فليرجع بليل ، وفي الصباح يتقصى الأثر حتى إذا انقطعت الآثار الراجعة ولم يبق معه إلا أولئك الذين عزموا على الاستماتة في كفاح الباطل .

سار بهم حتى أتى قابساً فاحتلها دون عناء وجعل عليها والياً ، ثم سار إلى القيروان .

لقي جموع ورفجومة فقاتلهم حتى انهزموا ، فتحصنوا بالمدينة ، فبقى محاصراً لها مدة طويلة حتى اضطروا إلى القتال من جديد ، ووقعت بينهم موقعة هائلة، أسفرت عن انهزامهم ، فأمر بأن لا يتبع مدبرهم ، ولا يجهز على جريحهم ، ولا يؤخذ شيء من أموالهم ، وأعلن الأمان للناس ، فخرج الناس إلى أعمالهم كما كانوا يفعلون أيام السلام ، ومرت امرأة بميدان القتال وعجبت حين وجدت قتلى ورفجومة مجندلين في ساحات الكفاح دون أن يمس شيء من أسلابهم ، فقالت : "كأنهم رقود " وسمى المكان منذ ذلك اليوم " رقاده " وإن حاول بعض الناس فيما

بعد أن يغير هذا الاسم .

وكانت مفاجأة مذهلة للناس عندما وجدوا مزارعهم وحقولهم وثمارهم سليمة لم يمس منها شيء إلا إذا كان من تقلبات الجو أو وحوش الصحراء ، وعجبوا من عدل هذا الإمام ، ونزاهته وطاعة الجيش له ، وغفلوا أن هذا الجيش لم يتكون من جند يعملون لمكاسب الدنيا من رواتب يقبضونها ، وغنائم يختلسونها ، وإنما قوام هذا الجند قوم يدافعون عن الحق والدين ، لا يبتغون عرضاً من الدنيا ، ولا غنيمة في هذه الحياة القصيرة ، ولا جاهاً عند الناس ، وتفقد الإمام القتلى ، فوجد واحدا منهم قد أخذ سلبه ، فأمر برد كل ما أخذ ، ولكن الغال ، لم يسمع لأوامر الإمام واحتفظ بالسلب ، وغلب عليه الشيطان وعندما رجع الجيش بعد أن دفع المنكر عن الأمة وأشاع الأمن في البلاد ، وأرجع الحقوق إلى أهلها ، وعندما رجعوا وكانوا بالطريق خطر لهم أن يتسابقوا .

ووقع السباق بين الفرسان لإظهار البراعة والرشاقة ، وكان جميل السدراتي ممن يثق بنفسه ويعجب بفرسه فاشترك في هذا السباق ، ولكن شاء له سوء حظه أن ينقطع حزام سرجه ، وأن ينكشف السلب تحته ؛ وأن يشهد فضيحته كل الجيش فأدبه الإمام على خرقه لنظام الجيش واستحلاله لمال المسلمين ، وغلوله لما حسبه غنيمة .

وقال خالد اللواتي للإمام : " نأكل من أموالهم كما يأكلون من أموالنا ، قال الإمام: حقيق على الله أن يدخلنا معهم النار

إذن . وارتحل أبو الخطاب وجيشه إلى طرابلس بعد أن نصب عبدالرحمن بن رستم والياً على القيروان .

استكبر جميل السدراتي أن يفتضح أمره أمام الناس وأن يقام عليه الحد ، ولذلك فقد التحق بأبي جعفر المنصور وبقى يبذل المحاولات سنة كاملة ليقنع أبا جعفر بضرورة حرب أبي الخطاب والقضاء عليه ، واستجاب له أبو جعفر أخيراً .

وبدأ يجهز الجيوش إثر الجيوش لمقاتلة أبي الخطاب ، وبعد وقائع مذهلة ذاق فيها أبو جعفر مرارة الهزيمة استطاع محمد بن الأشعث أن يغرر بجيش أبي الخطاب وأن ينتصر عليه الانتصار الحاسم . وأن يرتكب من الفظائع ما يبرأ منه الإسلام والمسلمون.

إنني لم أضع هذا الكتاب لسرد وقائع التاريخ إلا بمقدار الضرورة التي أراها واجبة التي لتوضيح الصورة التي أضعها بين عيني القارئ الكريم ، فإن الوقائع التاريخية توجد في الكتب المعتنية بذلك مفصلة وإني أريد في هذا الكتاب أن أجلو سيرة أهل هذا المذهب وأثر الدين والعقيدة على سلوكهم الفردي والجماعي وتوجيهه لهم في حالتي الحرب والسلم والظهور والكتمان ...

ولقد قام أبو الخطاب بعدة حروب ، بعضها مع البربر ، وبعضها مع العرب وبعضها مع مزيج منهما ، ولكن سيرته في كل ذلك كانت سيرة واحدة . كفاح الظلم والطغيان ، ودفع للمنكر والعدوان حتى إذا انتهت الحرب أشاع الإمام الأمان بين الناس ،

وساوى بينهم في الحقوق ، ولم يؤاخذ أحداً منهم بما فعله إبان الحرب ، فلا يحاسب مجرى الحرب باصطلاح هذا العصر ، ولم يتبع الفارين ، ولم يروع المسالمين ولم يجهز على الجرحى و التي لم يمس شيئاً من أموالهم ولم يقطع رؤوس زعمائهم وكبرائهم .

تلك سيرته وهي السيرة الغراء التي يدعو إليها الإسلام والتي تعرفها للخلفاء الراشدين الكرام .

مواقف غير عادلة

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي في كتابه " الفتح العربي في ليبيا " بعد أن تكلم عن أبي الخطاب ، يقول : " والذي يمعن النظر في حروب أبي الخطاب مع جيوش أبي جعفر المنصور ، لا يشك في أنها حروب قصد منها توسيع النفوذ ، والاحتفاظ بالسلطة على أكبر عدد ممكن من الناس ، وعلى أوسع رقعة من الأرض " .

ولو لا أن كثيراً من الناس الذين لا يتبعون التاريخ ويسيرون مع أحداث الزمن قد يظنون صحة هذا الرأي ، ويقتنعون بتعليل المؤلف لهذه الثورات العارمة ، التي كان أبو الخطاب يجاهد فيها بما ملكت يداه من روح ومال .لولا ذلك لسكتُّ عن هذه الغمزة من المؤلف ، كما سكت عن عشرات الغمزات التي يمليها قلب غير سليم .

يقول الأستاذ الزاوي في كتابه " الفتح العربي في ليبيا " وهو يتحدث عن أبي الخطاب العربي : " وكان من أشد خصوم سياسة العرب في إفريقية ، وقاتلهم انتصار لبنى مذهبه ، وقد أخلص للبربر إخلاصاً جعله منهم في محل التقدير ، الخ ".

ويمضي المؤلف على هذه الوتيرة لا يتحدث إلا عن البربر

والعرب . وعجيب والله أمر رجل مسلم يكتب عن التاريخ في هذا العصر بهذه الروح البالية .

يقول الأستاذ الزاوي : إن أبا الخطاب كان من أشد خصوم سياسة العرب في ليبيا .

إن أبا الخطاب أيها الأستاذ والإباضية من قبله ومن بعده ، ليسوا خصوماً للعرب ، إنهم أخوة لهم وإنما هم ، خصوم للانحراف بدين الله ، وأعداء للطغيان والعدوان والظلم ، سواء كان ذلك من العرب أو من البربر أو من غيرهم من الأجناس ، فهم منذ أكرمهم الله بالإسلام كانوا ينظرون إلى المسلمين بأنهم أمة واحدة وينظرون إلى أولئك الذين يستغلون مراكز الحكم أسوأ استغلال بأنهم ظالمون يجب أن يؤخذ على أيديهم حتى يعتدلوا أو يعتزلوا ، وموقف الإباضية من طغاة البربر والعرب واحد في كل الأحوال ، على أن الذي يرجع إلى تاريخ أبي الخطاب نفسه وحسبما رواه الأستاذ الزاوي يجد أن أبا الخطاب هو الذي هاجم ورفجومة – القبيلة البربرية الكبيرة ، حين بلغه عنها البغي والفساد ، حاربها حرباً طاحنة حتى أخرجها من القيروان – هذه المدينة التي وضع الحجر الأساسي فيها أصحاب رسول صلى الله عليه وسلم ، فطهر مسجد عقبة من دواب ورفجومة .

وأبو الخطاب حين يهاجم هذه القبيلة الباغية لم يهاجم غيرها من القبائل والبلدان . فقد قام بأمر الإمامة في طرابلس دون أن يريق قطرة دم ، أما حروبه فيما بعد فهي رد للعدوان الذي تشنه عليه جيوش العباسيين المتعاقبة . وفي جميع تلك الحروب

الظالمة التي انتصر فيها أبو الخطاب سواء في ورداسة أو في مغمداس أو في غيرها ، كان أبو الخطاب مثالا حياً لسيرة الخلفاء الراشدين ، لا يتبع مدبراً ولا يجهز على جريح ، ولا يغنم مالا . ولا يعاقب على الموقف المضاد في الحرب ، ولا ينتقم من قادة وزعماء الفريق الثاني ، ولا يصل منه ولا من جيشه أي أذى للبريء والمسالم .

وعند ما خرج محمد بن الأشعث من مصر إلى لقاء أبي الخطاب ، أرسل عيوناً يستطلعون له الأحوال ، فلما رجعوا إليه سألهم فقالوا : أنطيل أم نجمل ، فقال ابن الأشعث : بل اجملوا . قالوا : " رأينا رهباناً بالليل ، أسوداً بالنهار ، يتمنون الجهاد بلقائكم كما يتمنى المريض لقاء الطبيب . لو زنى صاحبهم لرجموه ، ولو سرق لقطعوا يده ، خيلهم من نتاجهم ، ليس لهم مال يرتزقون منه ، وإنما معاشهم من كسب أيديهم (6) " ، أترى أنك واجد هذا الوصف في غير الرعيل الأول من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

يرى الأستاذ الزاوي كما نقلت عنه في أول هذا الفصل أن الحروب التي قام بها أبو الخطاب كان يقصد منها إلى التوسع والسيادة ، وهو جد عليم أن أبا الخطاب لم يقبل هذا الأمر إلا مكرهاً ، وبعد أن أفتى أعظم إمام ديني في ذلك العصر بقتله إن امتنع عن تحمل هذا العبء الذي يختار له القوى الأمين . وهل من علامات حب السيطرة والعلو أن يستولي أبو الخطاب على طرابلس دون إراقة قطرة من الدم وأن يخير حاكم ا لبلد بين

6 - السير 130

البقاء في أمته وبين إخوانه آمناً أو الرحيل إلى سلطانه موفوراً ؟ وهل من حب السلطة والتوسع أن ينتصر القائد ثم يتفقد قتلى العدو فيجد واحداً منهم مسلوباً فلا يقر له قرار حتى يعرف السالب ويؤدبه ، وهل من حب التوسع والنفوذ أن يحارب المحارب وينتصر ولكنه يعرض عن جميع المكاسب والغنائم ؟وهل من علامات التوسع أن يبقى جيش متكون من ستة آلاف

محارب محاصراً لمدينة كالقيروان مدة تطول أو تقصر ثم يخرج أهالي المدينة إلى حقولهم فيجدونها سالمة لم يتغير منها إلا ما غيرته عوامل الطبيعة من ريح ووحش . وهل يجد المتتبع لحوادث التاريخ صورة واحدة من هذه الصور الرائعة عند أولئك الذين يهاجمون أبا الخطاب ، ويوالون عليه الحرب ؟ إنه لن يجد بالتأكيد إلا عدواناً وظلماً وسرقة وغلولا ، وارتكاب الفواحش في الأنفس والأعراض والأموال لا يسلم منهم برئ ولا مذنب وهم حين تتاح لهم فرصة النصر لا يبقون على جريح ولا يرجعون عن فار ،ولا يسلم منهم مسالم ، ولا ينجو منهم مال ولا عرض . ثم هم يتجاوزون كل ذلك إلى المثلة وتشويه خلقه الله وقطع الرؤوس لنيل الحظوة بها عند ملوك البغي في الدنيا .

ويقول الأستاذ الزاوي في كتابه الفتح العربي : " ومهما بلغت كثرة جيش يذهب من مصر لغزو أفريقيا فلا يمكن أن تصل واحداً من عشرين من جيش البربر الذي يمكنهم أن يعدوه لمقابلة هذا الجيش ، ولكن النصر بيد الله ، والله مع الصابرين .

هذا كلام الأستاذ الزاوي بحروفه ، وهذا التلميح لا يصدر

من مسلم سليم الصدر ، صحيح العقيدة ، وأنا حين أنقل هذا الكلام عن الأستاذ وأضعه بين أيدي القارئ الكريم فإنما أريد أن يتأمل المنصف ما يدسه كتبه التاريخ عن الأمة ، وما يوحون به للناس من زيغ ، على أن قضية النصر والهزيمة في الحادثة التي يشير إليها الزاوي – إذا سلمت من المغالطة – واضحة !

إن محمد بن الأشعث أعد له جيش كامل يتألف من خمسين ألف مقاتل على أوسط الأقوال ، تدفع الأجور من بيت مال الدولة في مصر أو في بغداد ليقوموا لها بالحروب وهم على استعداد في جميع الأوقات ، أما أبو الخطاب فليس له جيش تدفع له الأجور ويكون تحت الطلب في جميع الأحوال ، بل إن المحاربين إنما هم أفراد من الأمة بدافع المبدأ ومحاربة الباطل ، وليس لهم أي غنم في هذه الحروب الهائلة ، فهم يزودون أنفسهم ويسلحونها ، ويندفعون إلى الحرب باختيارهم ليحموا أنفسهم وبلادهم من عبث العابثين وظلم الظالمين ، ولم يكن البربر كلهم مع أبي الخطاب كما زعم الزاوي ، فإن من البربر خوارج ومعتزلة واتباع بنى العباس ، وهؤلاء جميعاً لا يقاتلون مع أبي الخطاب ، بل إن منهم من يقاتله كورفجومة ، وإنما يتكون جيش أبي الخطاب من بعض البربر وبعض العرب يعبدون الله على مذهب عبد الله بن إباض ، وعدد هؤلاء ليس بالكثرة التي أراد أن يوحي بها الظاهر الزاوي ، ثم إن ابن الأشعث هجم على طرابلس حين نجحت مكيدته وتفرق جيش أبي الخطاب إلى حصاد الزرع وهم مطمئنون إلى أن الجيوش المهاجمة قد ولت الأدبار ، فلما وقعت الغارة المفاجئة لم يحضر إلا القليل في تتابع ، جماعة بعد جماعة ، وهكذا

استطاع جيش ابن الأشعث أن يقتل من هؤلاء الأبطال آلاف . ولم يرتو ابن الأشعث من هذه الدماء التي سالت في الموقعة ، فكان يتتبع الناس في بطون الأودية وشغاف الجبال يروع الآمنين ، ويقتل المسالمين ، ويجمع الأموال المحرمة التي عصمها الإسلام ؛ وأخيراً قطع رأس أبي الخطاب وأرسلها إلى بغداد .

وقارن أيها المسلم . بين الموقفين : موقف أبي الخطاب عندما استولى على طرابلس، وعندما احتل القيروان ، وموقف بنى العباس حين أتيحت لهم فرصة النصر .

وضع الصورتين أمام الأستاذ الزاوي ليستخرج العبرة والموعظة من التاريخ .

أبو حَاتمِ الملَزوزي

أبو حاتم يعقوب بن حبيب الملزوزي النَّجِيسِي مولى كنده ، علم آخر من أعلام الإسلام ، وبطل من أبطال الكفاح ، وعدو لدود من أعداء البغي والظلم والجبروت . ولدته الحوادث السود . وأبطال الحرية والكرامة والمبادئ لا يظهرون إلا في الحوادث السود لإنقاذ الإنسانية من شر الإنسان .

قتل أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري في معركة من المعارك الحامية ، بينه وبين محمد بن الأشعث ، العامل الذي عينه أبو جعفر المنصور لحكم أفريقية ، وتفرق جيش أبي الخطاب بعد الهزيمة ، ولكن ابن الأشعث لم يكتف بهذا النصر الذي أحرزه ، ولم يقنعه الاستيلاء على هذه البلاد الفسيحة ، التي كانت تابعة لأبي الخطاب ، فعمد إلى رأس أبي الخطاب وهو قتيل في المعركة فاجتزه وبعث به إلى بغداد ، ليزيد حظوة عند أبي جعفر ، ولم يشف ذلك ما في قلبه فأمعن يقتل ويسلب ، متبعاً الفلول المنهزمة ، والشراذم الفارة ، والأحياء التي يجعلها سوء حظها في طريقه ، لا يردعه دين ولا خلق ، ثم ولى أمر البلاد من يزيد عنه بغياً وعدواناً ، فكان ينتقل بين أحياء المسلمين وقبائلهم

يسلب وينهب ، يقتل ويفجر ، فكان يدخل الأحياء ويأمر المحصنات الحرائر أن يفُلين لحيته القذرة ، وليس بعد هذا الفجور فجور ، ولا بعد هذا الظلم ظلم ...

عند ذلك تداعى أصحاب الشهامة والكرامة الذين يؤمنون بأن الله لا يرضى لهم السكوت على هذه المناكر ، ولا يحل لهم البقاء على هذا الهوان ، ينزل بأمة مسلمة ، حفظ الإسلام أعراضها ودماءها وأموالها ، فانتهكها من خانوا الله ورسوله في أمانة الدولة والدين .

تداعى هؤلاء الأبطال ، وأظهروا أنهم يريدون النظر في قضية امرأة أساء إليها زوجها ، فعقدوا اجتماعاً بحثوا فيه موقفهم ، وموقف الأمة ، وموقف هؤلاء البغاة الظالمين ، ووجدوا أنهم لا يسعهم في دين الله أن يسكتوا على ما يقع بين أيديهم وأعينهم ، وأنسوا في أنفسهم قوة يمكن أن تخف على المسلمين ما هم فيه من ذلة ومهانة ، ولو إلى حين ، فقدموا عليهم أبا حاتم الملزوزي وبايعوه على أن يعمل بكتاب الله وسنة رسول الله وهدى السلف الصالحين ، فقبل منهم واستعد للكفاح .

وما سمع الوالي العباسي بهذا الحادث حتى بعث بحملة عسكرية للقضاء على هذه الثورة ، ولكن هذه الحملة لم تنجح ، وقتل عدد غير قليل من جندها ، وتفقد أبو حاتم القتلى فوجد بعضهم مسلوباً ، فغضب ، وقال إن لم تردوا أسلابهم تركت أمركم ، فأرجعت الأسلاب ، وأعلن الجيش توبتهم من عملهم ذلك ، وسار السيرة العادلة المعروفة التي سارها المؤمنون الصادقون

من قبله في حروب أهل الإسلام الباغين ، حفظ لكرامة المسلم في دمه وماله وعرضه ولو ظلم أو بغى ، ثم عدل بين الرعية ، وإنصاف لأفراد الأمة ، وإقامة لحدود الله ، لا جبروت ولا عدوان ، ولا ظلم ولا أثرة ولا استغلال . الناس متساوون في الحقوق وفي الواجبات ، وفي فرص الحياة ، فمن اعتدى نفذ فيه حكم الله ، وذاق الناس لمدة قصيرة طعم الحكم الإسلامي ، الحكم الذي أراده الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فاختلسه منها عبيد الشهوة وعبيد السلطة والمال .

هدأت الأحوال في طرابلس ، واستتب الأمن والسلام ، وبدأ الناس يشعرون بالحياة الكريمة للأمة الكريمة ، فاتجه أبو حاتم إلى القيروان ليخفف عن أهلها ما أصابهم من كرب ، وما لحق بهم من أذى ، ويرفع عنهم عبث أيدي ولاة الظالمين، لا يرقبون في الله إلاًّ ولا ذمة ، ففتحها بعد حصار طويل وكان الجهد والجوع قد بلغ مبلغاً عظيما من الجند المحصور بالقيروان ، فلما تم النصر لأبي حاتم ، وفتحت له أبواب المدينة ، واستسلم الجند المحاربون ، لم يفعل ما فعله محمد بن الأشعث ، يوم انتصر على أبي الخطاب في ليبيا . إن أبا حاتم مؤمن يحس ما يعانيه هؤلاء المسلمون الذين يسوقهم الظلمة سوق الأغنام ، ولذلك فلم يمعن فيهم تقتيلا ونهباً وسلباً وتعدياً على الأعراض ، وإنما زودهم بالماء والغذاء والسلاح الضروري ، فأعطى لكل خمسة منهم قربة للماء وعصاً وخنجراً يصلحون به أمرهم ، ويدفعون به ما يعترض طريقهم من وحش مفترس وهم يعودون إلى قراهم آمنين ، كما أعطى لكل واحد منهم رغيفاً من الخبز .

لـك أن تقارن أيهـا القارئ الكريم بـين الحالـة الفظيعة التي يلاقيهـا النـاس عندما ينتصـر الظالمون ، وكيـف تذهب الأرواح والأمـوال والأعراض هدراً بعـد أن ترفع الحرب أوزارها ، لك أن تقارن بين ذلك وبين هذا السـلوك الكريم الذي يعطف حتى على الباغي الظالـم ، فيقدم له ما تيسـر من مسـاعدة . لـك أن تقارن بين منتصـر يقتل ويسـلب ، ويجز الـرؤوس ، ويعبـث بالأعراض التي صانها الإسلام ، ومنتصر آخر ، يعطف على جيش العدو ، فيزوده بالزاد والسلاح ، ويتركه سالماً موفوراً ليلحق بأهله .

لقـد ضرب أبـو حاتم بهـذه السـيرة العطـرة مثلا سـامقاً للمؤمنين الذين يناط بهـم حمل أمانة الحكم ، وتجربهم الحوادث إلـى تربية البغاة ، ولكن هل تجد مثل هذه السـيرة أو قريبا منها عنـد أولئك الذيـن يحاربون باسـم الخلافة في الزمـن القديم ، أو يحاربون باسم الدولة في العصر الحديث .

أنـه ليس لأولئك ولا لهـؤلاء من مزايا أمانـة الحكم إلا حمل الأسـماء والشـعارات ، يتاجرون بها عند الرؤسـاء ، ويخدرون بها الشعوب ، ويسـتغلونها لأنفسهم ، وبسببهم وسبب أمثالهم من عبيد الشـهوة ، شـهوة المال وشـهوة السـلطة . وشـهوة الجنس . أصيب الإسـلام أمس ويصاب اليوم بالنكبات المتلاحقات ، أوقفـت تقدمه ، وغلبت عليه أعداءه الذين يتربصون به الغفلة ، ويتوقعـون منه الغرة ، وينتظرون منه العثرة . حتى واتتهم تلك المصائـب جميعاً ، ينزلها الجبابرة الذين يحملون اسـم الإسـلام على أمة الإسـلام ، والذين استخدموا شرف الخلافة في محاربة مـن أولاهم الخلافـة ، وأعطاهم الثقة ، وأخـذ منهم عهد الله ،

ولـم يردعهم رادع من خُلـق أو حياء أو دين . بل لقد ذهبت الخلافة ، وقامـت في كل بقعة من بلاد الإسـلام دولـة تنعق بأنها جاءت لخدمـة الأمة ، ولم تجد منهـا الأمة حتى اليـوم إلا خطباً تلقى ، واجتماعـات تعقـد ، ومديحاً تضفيه الإذاعـات والصحف على أصحاب المناصب وسـلوكا أبعـد ما يكون عـن مصلحة الأمة ، وروح الإسـلام ، وسيرة السلف الصالحين ، فلا عفة عن مال الأمة ولا وقوف عن إراقة دم برئ لا تحل إراقته إلا بحقه .

ما ضر هؤلاء الذين يحملون اليوم أمانة الدولة ، ويقدمون على حراسـة مصالح الأمة ، ما ضر هؤلاء أن يسـيروا سيرة الصالحين من سـلف هذه الأمة ، وأن يعفوا عن أمـوال الأمة ودمائها كما عـف عنها عمر بـن عبد العزيز وأبو الخطـاب وأبو حاتم وكما عف عنهمـا أمير المؤمنين علـي بن أبي طالب عندمـا أنهزم الثائرون بقيـادة طلحة والزبير فلم يتبع مدبراً ولم يجهز على جريح ، وإنما اسـتغفر للجميع ، وضمد الجراح وواسـى القلوب : ما ضر هؤلاء الذين يتداولون كراسـي الحكم ومرافـق الدولة في مختلف بلاد الإسـلام ، أن ينزهوا ضمائرهم عن الانتقـام . وجيوبهم عن المال الحرام . وأيديهم عن إراقة الدماء .

كان أبو حاتم حقيقاً أن يسـير بالأمة سـيرة الخلفاء الراشدين ، والسـلف الصالحين. لو أمهلته أيدي الظلمة المستبدين ، أولئك الحـكام الذين لا يرضيهم أن ينتشـر الأمن والعدل والسـلام في جهـة من الجهات ، لأن ظهور ذلك يظهر مسـاوئ الحكم عندهم ، ويبعـث دبيـب اليقظة في نفـوس رعاياهم ؛ تلـك الرعايا التي استنامت إلى الذلة والهوان بما لحقها من بطش وعدوان .

وهكـــذا جهز أبو جعفر الجيوش وأرســـلها إلـــى أبي حاتم ، وبعد حروب طاحنة ووقائع سود ، قتل هذا البطل المؤمن ، كما قتل من قبله أبطال ثائرون ، برهنوا أن في الأمة من يقوم بحجة الله على البغاة ، فينتزع منهم مقاليد السلطة ، ولو لزمن قصير ، ليظهر للناس ما في حكم الإسلام من كرم وسماحة وجمال ، حين تقوم بين أفراد الأمة من حاكم ومحكوم حقوق العدل والمساواة .

الزاوي
وكرامات الأولياء

إنني لا أريد في هذا الفصل أن أناقش موضوع الكرامة ، فقد ناقشـــها علماء الإسلام الأعلام بما فيه الكفاية ، وبما لا أستطيع ببضاعتي الضئيلة أن أبلغ أقله ، ولكنني أريد أن أناقش الأســـتاذ الزاوي في هذا الموضوع بالذات :

قرأت للأستاذ الزاوي في كتابه " تاريخ الفتح العربي في ليبيا " إنـــكاراً لكرامة نســـبت إلى أحد النـــاس ، فظننت أن الرجل من أولئـــك الذيـــن لا يعترفون بكرامات الأولياء ، ولـــو كان ذلك فليس مـــن حقي أن أطلبه بتصديـــق كرامة معينـــة ، ولكنني اطلعت فيمـــا بعد على كتابه " الأعلام " وعجبت من الرجل حقاً ، عجبت لهذا الرجل الذي ينقلب في قضايا التاريخ كما يشاء له الهوى ، وسوف أضع بين يديك أيها القارئ الكريم صوراً من هذا التقلب .

بعد أن تحدث عن أبي حاتم الملزوزي في أحداثه التاريخية ، وحاول أن يضخـــم عـــدد الجند الذي يحارب به هذا الإمـــام ، وأن يقلل من جيش خصومه ، ثم يمنحهم النصر لأن النصر للمؤمنين .

بعد هذه المحاولة التي فيها كثير من إســـاءة استغلال حوادث

التاريخ لإيحاءات معينة ، بعد ذلك قال :

" كان أبو حاتم من أئمة الإباضية المشهورين ، وبمناسبة قتله نقل الأستاذ الشماخي في كتاب السير خرافة من صنع الذين يعملون لتفريق الكلمة ورفع أقدار بعض الناس على حساب الطعن في أقدار غيرهم .

قال الأستاذ الشماخي ما نصه : " إن مكان المعركة يستضيء نوراً كل ليلة،وقد أشتهر عندنا – من غير أراه – أن النور ينزل على قبره – يعنى قبر أبي حاتم – وقيل لم يزل ينزل حتى دفن إلى جنبه أعرابي فكف . ا . هـ ما نقله صاحب السير .

ومثل هذه الخرافة لا يصح من الأستاذ الشماخي أن يسود بها صحائف كتابه ، فإن أي إنسان لا يصدق أن النور الذي كان ينزل على قبر أبي حاتم انقطع لما دفن الأعرابي إلى جانبه ، ولكن الذي اختلق هذه الخرافة يريد أن يرفع من شأن أبي حاتم بالطعن في العرب ، وهو خطأ في التقدير يؤدى إلى الفتنة بين المواطنين ، وإلى تأريث الكراهية بينهم . ولو اقتصرت الخرافة على مدح أبي حاتم لما عندنا شئ منها ، ولما تعرضنا لها بنقد " . انتهي كلام الأستاذ الزاوي .

وعجبت وأنا أقرأ هذا التعليق عن المغالطة المفضوحة ، وعن تأويل كلام الناس بما لم يخطر لهم على بال .

لست أدرى – مهما فكرت – ما دخل العرب في القضية ؟ لِمَ يحشرهم الأستاذ الزاوي حتى في هذه الجزئية الصغيرة ؟ إنها حادثة فردية تتعلق بشخصين ، سواء كانت صادقة أو كاذبة ، فما

الذي أدخل الجنس ، جنس العرب أو البربر في الموضوع ؟

إن الشماخي حين نقل القصة احترز، فأعلن أن القصة مشهورة ، ولكنه لم يشاهدها بنفسه ، وهذا تحقيق لا يكون إلا من ثقة يتثبت فيما يقول ، فقد جعل العهدة على راويها ، ولما تحدث عن دفن الأعرابي ، حكاه أيضاً بقيل ، حتى لا يجرأ زاعم على تكذيبه ، ورغم كل ذلك ، فإن الأستاذ الزاوي ناقم على الشماخي ، والشماخي يذكر أن النور أنقطع عندما دفن (أعرابي) ، ولكن الزاوي يجعل المسألة طعناً في العرب ورفعاً لأقدار بعض الناس بالحط في أقدار الآخرين ، إلى ما هنالك من مزاعم لا تصدر إلا عن نفس مريضة ، وحب متمكن لإيقاد الفتنة .

لقد كان جديراً بالأستاذ الزاوي ، وهو يكتب التاريخ في هذا العصر ، أن ينزه قلمه وضميره ، كان جديراً به أن يتخذ من نزاهة الشماخي وصدقه أمثلة يحتذيها ويسير عليها .

إن الكرامة إذا وقعت لأبي حاتم ، فلا يعنى ذلك ، أن جنس أبي حاتم كلهم أصحاب كرامات ، وأن المعصية إذا وقعت من أعرابي ، فلا يعنى ذلك ، أن الأعراب كلهم أصحاب معصية ، إن أبا حاتم شخص واحد ، نسبت إليه كرامة ، وإن الأعرابي الذي دفن إلى جانبه شخص واحد ، قيل عنه إن النور انقطع لما دفن إلى جانب أبي حاتم ، وما يدرى الأستاذ الزاوي ، أن هذا الأعرابي ، ممن يشمله قوله تعالى : " الأعراب أشد كفرا ونفاقا .. الخ ، ثم لماذا يجعل الأستاذ الزاوي الأعراب عرباً ؟ ويبنى على ذلك هذا التعليق الذي يحرص بما يملك من حيلة الأسلوب وخدعة التعبير ، أن يجعل

الموضوع بين عنصري الأمة ، حتى يفتح أبوابا للخلاف ، ومن يا ترى يسعى لتأريث الكراهية بين الناس ؟ أهذا الذي يحمل اليوم قلمه ليبحث بين مطاوئ التاريخ عما يفرق به بين أبناء الأمة الواحدة ؟ أم ذلك الذي يحتاط فيما ينقله ويعلن أنه لم يشاهد .

وهل عن حسن نية يذكر الأستاذ الزاوي هذه القصة وأشباهها ليعلق عليها بهذه العبارات التي تدعو إلى الفتنة السافرة ! ؟ إن الشماخي توفي قبل أربعة قرون ، وكتابه لا يطلع عليه إلا قلة من الباحثين الذين يرجعون إلى مصادر التاريخ ، فلماذا يعمد الأستاذ الزاوي إلى التنقيب ، ونقل هذه القضية اليوم ؟ لماذا لم يتركها نائمة بين أحداث التاريخ الماضي ؟ إنه لو فعل ذلك لما وجد سبباً يوجد به هذه الطعنة إلى قلب الأمة ليذكرها بأنها تتكون من عنصرين .

أنني سوف أعود إلى الأستاذ الزاوي والشماخي في حديث قريب ، ولكنني الآن أريد أن أناقشه في قضية الكرامة .

قلت في أول هذا الفصل : إنني حين قرأت كتاب الزاوي ووجدته يعلق على هذه القصة التي نقلها الشماخي بأنها خرافة . حسبت أن الزاوي لا يصدق بكرامات الأولياء ، ولو كان كذلك فليس من حقي أن أطلبه بتصديق هذه الكرامة أو غيرها . ولكن هل حقا أن الأستاذ الزاوي لا يصدق بكرامات ؟ لنأخذ بين أيدينا كتاب " أعلام ليبيا " ولنتصفح منه بعض الفصول .

قال الزاوي في كتابه " الأعلام " صفحة 47 : " ومن كراماته أنه لما حج بقى أمام النبي صلى الله عليه وسلم وقال في نفسه

: أنا لا أذهب لزيارة حمزه ولا غيره . النبي صلى الله عليه وسلم يكفيني ، قال : فأخذتني سنة ، فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، فقال لي : يا أحمد يا حبيبي ، عم الرجل عوض أبيه ، قال فقمت في الحين وذهبت لزيارة سيدنا حمزه ، وكان وقت خوف ، فلقيت هناك ثلاثة رجال ، أخرهم الخضر عليه السلام .

وفي فوائده قال : أخبرني الشيخ اللقاني أن الوزغ يتغذى بعينه ، وأنه – أي اللقاني – كان ذات يوم يأكل بطيخا ووزغ ينظر إليه من السقف ، فأمر بقتله ، فوجدوا معه من الخضراء التي كان الشيخ يأكلها " انتهى

قال الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 147 : " قال أبو القاسم : فلما حججت وزرت ، سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت : يا رسول الله أبو الفضل الغدامسي يقرأ عليك السلام ، وصاحبيك ، قال : فسمعت صوتا لا شك أنه صوت عمر بن الخطاب لجهارته . وهو يبلغنا . وكان يتكلم على الخواطر .

ويقول الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 199 : " كان أستاذا فاضلا – أبي عبد الوهاب القبسي – ورجلا صالحا وكان يرى النبي صلى الله عليه وسلم ويتحدث معه . ويقال إن هذه المحادثات وجدت بعد موته مكتوبة بخطه وبتواريخها. " انتهى .

قال الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 225 : (يحكى عنه – أي على ابن محمد البشت – إذا شكا إليه أحد ضياع حاجته قال له : اذهب إلى المحل الفلاني تجدها فيه ، فيذهب

فيجدها كما ذكر . أنتهي "

وقال الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب يتحدث عن محمد بن احمد الطرابلسي صفحة 264 : شيخ متعبد فضله مشهور . قال في كتاب " رياض النفوس " قال أبو عبد الله مكي بن يوسف : نزلت بطرابلس عند انصرافي من الحج فكنت أداوم الاختلاف إليه ، فإني جالس إليه ذات يوم ، إذ أتته امرأة بصبي قد احدودب ظهره، فلا يقدر أن يمشي ، ولا يرفع رأسه ، وأجلسته بين يديه ، فقال له الشيخ : يا ابني : ارفع رأسك فما قدر فالتفت إلي وقال : يا أبا عبد الله أما ترى هذا الصبي ما استطاع أن يمشي . فقلت له نعم يا سيدي ! فأمرَّ بيده على ظهره ، ثم كتب أسطراً لم أقف على ما فيها ، ثم قال له : ارفع رأسك ، فرفع رأسه ثم قال له : أمش ، فمشى . واختصم مرة في طرابلس قوم من المسلمين مع قوم من النصارى على حجر، فزعم المسلمون أنه كان بمسجد انهدم ، وأن النصارى قد أدخلوه في ركن من أركان كنيستهم عماداً له – وزعم النصارى أن الحجر لهم قديما . فقال أبو العباس : اذهبوا بنا إلى موضع الحجر ، فساروا حتى حازوا المكان ، فوقف أبو العباس ووقف الناس معه ، فقال : أيها الحجر : إن كنت كما قال المسلمون فقع بإذن الله وقدرته ، وإن كنت كما قال النصارى فاثبت مكانك . فمال الحجر حتى وقع على الأرض ، فقال للمسلمين : ارفعوا حجركم .

وقال الأستاذ الزاوي في نفس الكتاب صفحة 20 : " وهو من جملة الصلحاء الذين بعثهم العارف الأكبر مولاي العربي الدرقاوي وتبرك بهم ، وقد أورده في رسائله قائلا ما نصه : "

وكنت أعرف سيدي أبا بكر الطرابلسي المكنى عند أهل فاس " سيدي أبو بكر بوقلاس " وجدته بمدينة فاس حين عرفتها ، وكان من المجاذيب الكبار ، غائبا عن حسه دائما ، وقد شربت بوله يوماً لشدة تصديقي بولايته . وحدثني الأستاذ الجليل أبو عبد الله سيدي محمد اللحائي عنه أنه قال لبعض الطلبة : هل تسيح معي ؟ فقال نعم: فخرجا معا على باب الفتوح – أي من فاس – فإذا هما بباب من أبواب طرابلس التي هي بلدته . وسمعت أنه كان من أولاد الباي الذي كان هنالك ، وكان هذا الباي لما فقده يعطي عليه قنطاراً من المال لمن يخبره به ، والحاصل أنهما دخلا إلى المدينة الطرابلسية، وجالا فيها ما شاء الله ، وهذا لا يكلم هذا ، ثم خرجا ، فإذا هما بباب الفتوح بفاس ." انتهي كلام الأستاذ الزاوي .

نقلت إليك هذه القصص من كتاب الزاوي أيها القارئ الكريم لا لأنتقدها ولا لأنتقد أصحابها ، فإن ذلك ليس موضوع بحثي ، وإنما أريد منك أن تعرف موقف الزاوي من التاريخ .

ينقل الشماخي مع الاحتراس أن نورا ينزل على قبر أبي حاتم حتى دفن إلى جنبه أعرابي فانقطع النور، فيثور الأستاذ الزاوي ويغضب ويكذَّب وبجعل نقل مثل هذه الكرامة مما يبعث الشك في أمانة المؤلف .

ولكن الزاوي ينقل إلينا أن وليا استطاع أن يكلم الرسول في النوم ، وأن يذهب لزيارة حمزه فيجتمع بثلاثة رجال أخرهم الخضر، وينقل أن الوزغ يتغذى بعينه ، وأن فلانا كان يأكل بطيخا

ووزغ ينظـر إليـه ، فلما قتل الوزغ وجد البطيـخ في أمعائه ، وأن حاجا يبلغ سـلام رجل إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم فيرد عليـه عمر بن الخطاب تحيتـه . وأن رجلا كان يحـادث النبي صلى الله عليه وسـلم ، ولما مات وجدت محاضر هذه الجلسات مكتوبة بخطه ، وأن رجلا يعرف مواضع الأشياء التي تسرق أو تضيع ، فما يجيئه أحد يشـكو ضياع شـيء حتى يدله على مكانه ، وأن وليا مـن الأولياء يوضع بين يديه طفل أحدب لا يسـتطيع المشـي أو رفع الرأس ، فيمسـح عليه بيده ثم يأمره بالرفع فيرفع ، وبالمشي فيمشـي ، ويختصم ناس على حجر أقيم عماداً ، فيأمره بالوقوع فيقع ، وينقل عن ولى آخر يأخذ معه ابن الباي في فاس ليسـيح معـه وعندما يخرج من باب الفتوح يحد نفسـه بباب من أبواب طرابلـس ، ثم عندما تخطر لهما العـودة فيخرجان من طرابلس يجدان نفسـيهما ببـاب الفتوح في فاس ، ويبلـغ من ولاية هذا الرجل أن يشرب العارف الأكبر مولاي العربي الدرقاوي بوله لشدة تصديقه بولايته .

هذه قصص ينقلها الأسـتاذ الزاوي في كتابه ، وهو لا ينقدها ولا يتعرض لها بتعليق ، ولا يخاف أن يشك الناس في أمانته حين ينقـل مثل هذه القصـص . والذي أريد أن أقوله للأسـتاذ الزاوي : أن الوقائع السـالفة – سـواء ما وقع منها لهؤلاء الذين تحدث عنهـم في كتابـه ، أو لأولئك الذين تحدث عنهم الشـماخي في كتابه – أشـياء لا تجرى على سـنة الطبيعة ، فهي إما أن تكون متعلقـة بقدرة الله ، وإرادته وحينئذ فلا معارضة سـواء ما قبله العقل أولم يقبله ، ويسـتوي في ذلك قصة مهدى النفوس وأبي

حاتم الملزوزي ، وهذا الـذي يجد باب فاس وباب طرابلس متجاورين، وهذا الـذي يحدث عمر بـن الخطاب وبينهما عـدد غير قليل من القرون الزمنية وغيرها كثير تجد كتبا مشـحونة بها لكل طائفة من طوائف المسلمين .

أمـا إذا أراد فهمها على قانـون الطبيعة والحياة المادية للخلق فإن شـيئا مـن ذلك لا يصدق ولقد كان جميلا أن ينقل الأسـتاذ الـزاوي عن الشـماخي كما نقل عن غيـره دون أن يجعل من هذا النقل وسيلة من وسائل الطعن ، أو أن يترك ما لا يثق في صحته من هذه الحوادث ، فإنها ليسـت حادثة من حوادث التاريخ البشري التي لها علاقة مباشرة بالأمة ، ولكن الأستاذ الزاوي لا يريد ذلك إنه يتلمس وسائل الطعن، وحين كان يؤلف كتاب " الفتح العربي في ليبيا " لم يكن يقدر أنه سيؤلف كتاب الأعلام وينقل فيه ما كذَّب غيره فيه .

علـى أن الذي يقـرأ كتاب أعـلام ليبيا للأسـتاذ الـزاوي وهو يحشـر فيه ما لا يحشـره رجل أوتى عقلا وتفكيرا سـليمين في هذا العصر يأسـف لهذا الإسفاف ، ما الذي يدعو الأستاذ الزاوي إلـى ذكر قصة الوزغة في هذا العصـر ، إنه لم ينقلها على أنها كرامـة ، وإنما نقلها على أنها حقيقـة علمية توصل إليها عالم من العلماء في ذلك العصر بالتجربة ولكن الأسـتاذ الزاوي يعلم أن هذه التجربة غير صحيحة ، فما الداعي إلى ذكرها ؟ .

وينقل الأسـتاذ الزاوي قصة هذا العارف الأكبر الذي يشـرب بول آدمـي ، ومهما كانت ولاية هذا الآدمي فـإن بوله يبقى قذرا

– ولو طهرته ولايته – على أنه لا شيء يجعل بول الإنسان طاهراً ، وكان ما يفهم من القصة هو التشكك في سلامة عقل هذا العارف الأكبر . لماذا ينقل الأستاذ الزاوي هذه القصة ؟ وما الحاجة إليها ؟ ألكي يزيده في تدعيم الخرافة في هذا البلد ؟ ويقوى جانب الشعوذة، حتى يطمئن أولئك الذين يستغلون عواطف الناس الدينية ؟ إن هذه القصة بالتأكيد لا ترفع من مقام الشارب ، كما أنهما لا تزيد من مقام المشروب بوله ، إن الكرامة لا تكون معصية أو سببا إلى المعصية .

فلماذا يسود الزاوي صحائف كتابه بهذه الخرافة ؟ هل يعتقد أن أحد من الناس يمكن أن يصدق ذلك ؟ .

انتقال القيادة من ليبيا

بعد المعركة الطاحنة التى قتل فيها أبو حاتم وخيرة جنده وقواده في جندوبه، وبعد أن أصبحت القوة بأيدي عمال بني العباس الظلمة، الذين لا يتورعون عن دم أو مال أو عرض، انتقل مركز مقاومة العدوان من ليبيا إلى الجزائر، وتكونت في تاهرت دولة الرستميين.

وليس معنى هذا أنه حينما كف الإباضية عن الثورة، أن الثورة قد توقفت في ليبيا.

إن الثورة لم تتوقف يوما واحدا في جميع المملكة الإسلامية، وإن كانت أغراض الثورات وأسبابها تختلف، وما دامت الدولة مستبدة وعمالها ظالمين، فإن الناس لا يكفون عن المطالبة بالحقوق، وإقامة العدل، إما باللسان وإما بالسيف.

كان الإباضية في ليبيا وتونس مستقلين عن بني العباس ؛ وحينما انتقلت قيادة الحركة الثورية إلى الجزائر أصبحت أدوارهم في تاريخ السياسة وكفاح العدوان تابعة لتلك القيادة، وهم وإن كانوا يتبعون دولة بني رستم في تاهرت إلا أنهم شبه مستقلين.

وقد عمد أكثر الإباضية في ليبيا، بعد انقراض الدولة الرستمية، إلى سكنى جبل نفوسه وإن بقيت بقايا منهم منتشرين في كامل القطر. وكان أغلب هؤلاء المنتشرين يعيشون حياة سكان البادية الرحل، أو حياة شبيهة بتلك الحياة.

وقد أستطاع عمال بني العباس بما أوتوا من مال وسلطان ومكر أن يشحنوا نفوس الناس بكراهة هؤلاء القوم، وأن يحكموا عليهم أحكاما غير صحيحة، من حيث الدين والمعتقد، وبذلك تسنى لهم أن تفترق الأمة فيما بينها لتستقر كراسيهم على هذه الدعامة، دعامة التفريق التى يحسنها الحكام الجبابرة في كل زمان ومكان.

رجع الإباضية إلى أنفسهم، واستمرت حياتهم على طريقتهم المعروفة : عمل دائم لله، ومحاسبة للنفس، ومجاهدة للشيطان والهوى، وإحياء للسيرة المرضية، لا يأبهون للدنيا ولا يقيمون لها أي وزن، إنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة. فكانت مساجدهم عامرة، وأعمالهم في البر متواصلة، ودعوتهم إلى التمسك بدين الله وسيرة السلف الصالحين مستمرة، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر لا يتوقف، واستقامتهم في الأعمال مضرب الأمثال، ونشرهم للعلم كما لم ينشر في أي مكان.

وكان الأئمة في تاهرت يبعثون إليهم، فيخبرونهم في الولاة فكانوا – يجتمعون ويتشاورون ثم يبعثون باسم من يقع عليه اختيارهم إلى الأمام، فترد اليهم الموافقة عليه. فلما انقرضت الدولة الرستمية صاروا يجتمعون فيختارون من بينهم من

يثقون في دينه وخلقه وعلمه، فيسندون اليه أمورهم، ويولونه شؤونهم، وقد استمروا على هذه الحال حتى مجئ الأتراك وامتداد الخلافة الإسلامية في ليبيا.

السَّمْحُ بن أبي الَخطاب

بقــي الإباضية في ليبيا بعد قتل أبي حاتم شــبه مســتقلين عن جميــع الحكومات فعمــال الدولة العباســية لا يجرأون على مطالبتهــم بشــيء، وعبدالرحمن بن رســتم لــم يطلب منهم الطاعــة، رغم الــولاء المتبــادل، واعترافهم بإمامتــه فلما تولي الإمامة عبدالوهــاب بن عبد الرحمن واســتقرت الأمور، واطمأن إلى ارتياح السكان، وانتشار السلام، وخمود الحروب والثورات، فكر في تفقد أحوال الإخوان في كل من الأراضي التونسية والأراضي الليبية، وقرر أن يقوم بذلك وهو في طريقه إلى الحج.

وكان النــاس يقبلون عليه ويقدمون له البيعة، فيولي عليهم ولاة يوصيهم أن يســيروا سيرة الســلف الصالحين، ولما وصل إلى الأرضي الليبية ودخل جبل نفوســه أجتمع إليه العلماء الأعلام، ودرســوا معه موقف الدولة، وما ينبغى للإمــام فعله، وصارحوه بأنهــم لا يوافقونــه على قيامه بالحج، فإن أعــداء الإمامة الذين يتحينــون الفرص للإنقضاض عليه، لا يقفــون مكتوفي الأيدي، وقــد دخل ممالكهم وحيداً فريداً بدون جند أو أعوان، واقتنع الإمام برأي هؤلاء العلماء الناصحين.

ولكنــه أراد أن يطمئــن، فبعــث برســالة إلى علماء المشــرق يســتفتيهم في أمره، ويســتوضحهم مشــكلته فــي حق ربه،

ووصل الرسول إلى أئمة الإباضية في العراق ورجع بالرد.

أمــا الإمام المحدث الربيع بن حبيب فقــد أجاز له أن ينيب عنه أحداً يقوم عنه بالحج مادام مشــغولا بأمر المسلمين. أما العلامة ابن عبــاد فأفتى له بســقوط الحج لعدم أمن الطريق بالنســبة إليه، وأمان الطريق شــرط أساسي في وجوب الحج، وطلب للإمام العظيم أن يقيم في جبل نفوســه وأن يتخذ قرية " ميرى " مقراً له. هذه القريــة الصغيرة التى أصبحت اليــوم خراباً، وكانت في ذلك الحــين مركزاً من مراكز العلم والديــن والخلق العظيم. وبني هنالك مســجده الفسيح الذي لا يزال منصباً إلى اليوم في ربوة شامخة يطاول الزمن، ويستعرض التاريخ، ويحتفظ باسم الإمام العظيــم، والذي لا يــزال أبناء القبائل المجاورة مــن الرجبان يلوذون بعدله فيضعون في حرمــه نتائج زراعاتهم فلا يتعدى عليها ولا تنالها اللصوص.

طابت للإمام الإقامة في هذا الجبل، وانصرمت ســبع سنوات كأنهــا ليلة واحدة، وكان يعيش كما يعيش المســلمون، وكان من أهم مايشــغله التدريس، فكان مسجده هذا من أعظم المدارس التى نشرت العلم وهدت الناس، لقد كانت حلق الطلاب تتعاقب عليه أكثــر النهار وزلفا من الليل، وكانت دروس الوعظ والإرشــاد وشرح أسرار الإســلام للناس من أهم ما يتناوله الإمام العظيم، علــى أن أعظم موضوع أخذ الوقت منه وحرص أن يتفهم الناس أســراره ومعانيه هــو موضوع الصــلاة، هذا الركن الــذي يجعل المســلم يناجــي ربه عــدداً من المرات فــي اليوم، ويســتلهم منه الرشــاد والهداية والتوفيق والذي لا يزال يتقرب بفرائضه ونوافله

إلى الله، حتى يحبه.

ولكثرة ما أنشغل الإمام بتدريس موضوع الصلاة على الناس، بالغ بعض المؤرخين فحسب أن الموضوع الوحيد الذي انشغل الإمام بتدريسه سبع سنوات في جبل نفوسه – هذا الجبل التى كان حينئذ يموج بالعلماء الأعلام – هو موضوع الصلاة فقط، والحقيقة أن الإمام العظيم كان يتناول جميع فروع العلم، ولكنه حبب إليه موضوع الصلاة، فكان لا يناجي يوم إلا ويتحدث عنه.

وعندما فكر في مغادرة ليبيا والرجوع إلى مركز الخلافة، اجتمع إليه الناس وطلبوا منه أن يولي عليهم عاملا يفصل مشاكلهم، ويجمع منهم الحقوق ويوزعها على مستحقيها، ويتولي قيادة الدفاع إذا هاجمهم عدو. فخيرهم الإمام فاختاروا السمح بن أبي الخطاب المعافري ؛ وكان السمح في مقام الوزير للإمام، يلازمه دائما، فيعرض عليه المشاكل، ويستشيره في النوازل، ويكل إليه الفصل والتدبير في كثير من الأمور، ولا يكاد يستغنى عنه في شأن من الشؤون، فعز عليه أن يفارقه، إنه من أعز أصدقائه إليه، وهو أخلص مستشاريه وأحب أصحاب الرأي والعلم إليه. فحاول أن يرضيهم بغيره، ولكنهم أصروا على موقفهم وألحوا عليه فيه، فاضطر أن يستجيب لهم، وأن يؤثرهم به وأن يقلده ولاية ليبيا – ماعدا شريطا رفيعا من الساحل كان تابعا للأغالبة – معتمدا في ذلك على دينه وأمانته، وعلى دينهم وأمانتهم، وشمر الوالي القوي عن ساعد الجد، واستعد لتحمل الأمانة في هذه الولاية الشاسعة، التى تشتمل عليمعظم

المملكة الليبية وبعض المملكة التونسية، لا يخرج منها إلا شريط ساحلي ضيق بقي للأغالبة بعد المعاهدة التى عقدت بينهم وبين الإمام عبدالوهاب سنة 196.

وتولي السمح تنظيم الولاية وترتيب القضاة، وأمراء الجند وجباة الزكاة، فساد الأمن، وانتشر السلام، ووجد الناس الحياة التى ينشدونها في ظل الإسلام، حرية في العمل والكسب، وكفاح لله، وعدل يشمل الغنى والفقير، والقوي والضعيف، وسيرة كسيرة عمال الخلفاء الراشدين، قوة في غير عنف، ولين في غير ضعف، وإيصال للحقوق إلى أصحابها من أكرم السبل وأقربها، فأحست البلاد الراحة والطمأنينة، وذاقت لذة العيش الهنيء، الذي لا يكدره الاستبداد ولا يشوبه الظلم، وماذا ينتظر من وال أخذ الدروس الأولى من أبي الخطاب عبدالأعلى ؟ وأخذ الدروس الأخيرة عن الإمام عبدالرحمن بن رستم ؟ وصحب الإمام عبدالوهاب ؟ إنه أقتبس الهدى والدين والخلق من ثلاثة أعلام، كان كل واحد منهم حجة من حجج الله في الأرض.

عندما مرض السمح مرض الوفاة، اجتمع إليه الناس، وطلبوا منه أن يوصيهم 8، فأوصاهم بتقوى الله واتباع الشرع الشريف، ونصرة الأئمة ما ساروا على الحق، واستقاموا على الطريق، وهى وصية وإن كانت مختصرة في ألفاظها، ولكن لا مزيد عليها لمستزيد، إن تقوى الله في السر والعلانية واتباع الشرع الشريف هو كل ما يطلب من مؤمن يطلب السعادة لنفسه في الدنيا والآخرة، أما قضية الأمة فقد لفت إليها هذه اللفتة الكريمة التى هي القاعدة التى تبني عليها سياسة الأمة، والتى جرى

عليها الإباضية منذ نشأتهم، فإن الأئمة أو الخلفاء الذين تسند إليهم الأمة مهلة الحكم، وتضع في أعناقهم أمانة الدولة، تجب لهم الطاعة الكاملة من هذه الأمة، ما أقاموا كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وصاروا بسيرة السلف الصالحين، فإن انحرفوا عن هذا الصراط السوي وحادوا عن الطريق القويم، وخانوا الله والأمة في الأمانة، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ؛ وعلى هذا النمط كانت السيرة ؛ سيرة الولاة وسيرة الأمانة من هذه الفرقة في أزمنة الظهور وفي أزمنة الكتمان.

أبو الحسن أيوب بن العباس

بطل آخر من الأبطال الذين يملؤون الدنيا ويشغلون الزمان، يشهد له أبو العباس الشماخي بأنه : " من أهل التقى والصلاح، والاشتهار في طرق الخير وسبل الرشاد ".

ولكن هل تكفي هذه الشهادة للدلالة على منزلة الرجل في عصره، ومقامه بين قومه، وأثره في الحياة ؟ إن أبا العباس الشماخي من أولئك المؤلفين الحريصين على الدقة في الوصف، والصدق في الحديث، وهو يختار كلماته اختياراً يقصد ما ترمي إليه من معان، وتؤديه من أغراض ؛ ولذلك فإن هذه الجملة القصيرة التى وصف بها هذا الفارس البطل بالأشتهار في طرق الخير وسبل الرشاد، قد تقتضي من مؤلف آخر عدداً طويلا من الصفحات ليدل بها على هذا المعنى الكبير العميق.

إن الشهرة في طرق الخير وسبل الرشاد أمراً ميسوراً يستطيع أن يحصل عليه الإنسان بعمل يسير، أو كفاح قريب، أو مظهر خادع غرار، وحتى لو استطاع الإنسان أن يحصل على شهرة في جانب من جوانب الخير، فإن هذه الشهرة الكاذبة سرعان ما يبدو زيفها، وتتضح حقيقتها، ويزول البهرج الذي غطيت به.

إن الإنسان لا يمكن أن يشتهر في طرق الخير وسبل الرشاد إلا إذا اتخذ ذلك المبدأ يعتمده ويعتنقه ويعمل به لنفسه، ويكافح

مــن أجله، ويحاول أن يجعله مبدأ للنــاس جميعا يعتقدونه حقا ويعتنقونه مبدأ، ولايصل الإنسان إلى هذه الميزة إلا إذا كان عمل الخيــر خلقا يتحلى به، ويحمل من تحت رعايته على اتباعه ويدافع عنه في جميع الأحوال.

وإذا كان أيــوب بن العباس مــن ذوى العقائــد الثابتة، والايمان الراســخ، والخلق المتين، والعلم الغزيــر، إذا كان هذا الرجل يتحلى بجميع هذه الفضائل، وبما هو أكثر من هذه الفضائل، فإن له ميزة أخــرى يمتاز بها عــن الناس، وينفرد بها دونهــم، هذه الصفة : هي الشــجاعة التى لاتعرف التــردد أو الهزيمة أو الخور، إنها قوة القلب الكبير في قوة البدن الســليم الــذي وهبه الله الصحة والعافية والســلامة، وهو بهذه النعمــة التى خصه الله بهــا يثق في ربه ثقة لا تحســب للخــذلان حســاباً ويثق في قوته ثقة لا تخشــى الضعــف أو الخور، ويثق في مهارتــه وذكائه وعبقريته الحربية ثقة لا تخشى مراوغة أو مكيدة أو حيلة، وهذه الثقة بنفسه، جعلت الأمــة تثق فيه، وتعتمد عليه عندما يحزبها أمر أو يشــتد عليها كرب، ولعل في القصص الآتية برهانا على هذه الصفات الممتازة التى لا يتحلى بها إلا أفراد في تاريخ البشــرية الطويل. يقول عن نفســه: " لا أعلم من فاس إلى مصر فارســاً يبارزني " فهل يكون هذا القول من هذا البطل غروراً ســولت له به نفســه، ووسوس به إليه الشــيطان ؟ هل يكون هذا الإدعــاء باطلا عندما يجبهه بالحقائق ويصطدم بالأبطال ؟ إنه يتحدى نصف قارة كاملا، يزعم أنــه لايجد فيه من يقف له يرد له الضربات، ويكيل له اللطمات، ويغدق له كؤوس الشراب من حياض المنون المترعة.

إننا ولا شك سنتردد في تصديق هذا القول حين يعرض علينا في هذا الدعوى الفضفاضة الواسعة حتى نعرضه على التاريخ، وللتاريــخ حــق الحكم علــى صحة هــذا الإدعــاء أو بطلانه، فهل تكفى شهادة التاريخ ؟

كان عبد الوهــاب بن عبدالرحمن بن رســتم أميراً للمؤمنين، وخليفة للمســلمين على أغلب شــمال أفريقيا من مراكش إلى ســرت، ما عدا شريطاً ســاحلياً ضيقاً ينقطع في بعض الجهات. وثــار على الإمام جماعة من المعتزلة فــي الجزائر، لهم علم ولهم قوة ولهم بطولة. وتضايق الإمام من هذه الثورة التى كانت تهدد أمن الدولة والبلاد فاســتنجد بجبل نفوسه، وطلب منه أن يمده بمائة من خيرة الفرسان الشجعان، على أن يكون معهم ثلاثمائة من الفقهاء والمفســرين وعلماء الكلام، وتشــاور الناس في هذا الطلــب، وبحثوا أمر الإمــداد، وقرروا بالإجماع أنــه واجب عليهم، ولكنهــم فكروا في هذا الجيش الذي ســيكلفهم ويكلف الإمام مؤونة وتعباً، واقترح مقترح أن يختاروا أربعة أشــخاص يقوم كل واحد منهم مقام المئة، ووجد الاقتراح قبولا، فصادق عليه الجميع، ثم بدأت عملية الاختيار؛ إن الإمام يريد مائة فارس من الفرســان المغاوير، وهم يريدون أن يرســلوا إليه فارساً واحداً يقوم مقامهم ويغنــى غناءهم، ومن لهذا الموقــف غير هذا البطل الذي يتحدى نصف القارة كاملا في اعتداد وشجاعة، إنه الرجل المطلوب أو هو رجل الساعة كما تجرى تعابير السياسيين.

وعرض عليه القوم الطلب والاختيار، فهل فكر وتردد ؟

موقف صعب يوضع فيه الرجل أمام أقصى امتحان، إنه لم يكلف بالدخول في معمعة حرب يجالد الأبطال كواحد منهم، ولكنه وضع في مقام جيش يسير من قطر إلى قطر ليهزم جيشاً يهدد الإمامة. قبل البطل هذا العرض بإعتداد واستبشار، وبرهن أنه أحق رجل بالثقة التى وضعت فيه، واجتمع بزملائه الآخرين وقرروا المسير. قرروا أن يقطعوا هذه القفار الموحشة من جبل نفوسة الى غربي الجزائر، ليقفوا أصعب موقف وقفه بطل في التاريخ. ووصل أيوب بن العباس حتى ينتظره الموت، فاغر الفم، مكشر الأنياب. وعرض خدماته على الإمام وأعلن أنه مستعد أن يقوم مقام العدد الذي يطلبه الإمام من أبطال الكفاح ورجال الحرب، فكانت ذراعه القوية ؛ وسيفه البتار أقوى ضربة وجهها الامام عبدالوهاب إلى الواصلية من المعتزلة الذين طالما تحككوا بالإمامة، واعلنوا عليها الثورة أوالعدوان.

إن هذه القصة تشرح معنى الشهرة التى أشار إليها أبوالعباس الشماخي في أول هذا الحديث، فهل استطعت أن أكشف النقاب عن الغرض الذي أرمي إليه ؟ أم لا يزال يكتنفه الغموض ؟ إنه لو لا الشهرة بالسير في طريق الخير والرشاد ولولا الشهرة بالصلاح والسداد، ولولا الشهرة بالقوة والشجاعة والمضاء، لما اتفق شعب كامل على وضع ثقتهم في رجل واحد ينوب عنهم في الدفاع عن الكرامة في بلد بعيد يجهلون كثيراً من قوة أصحابه واستعداداتهم. ولو لا الشهرة لما اتفق شعب كامل على أن يقاوموا رجلا بمائة رجل. لقد سبق للتاريخ أن قص قصص الزعماء والأبطال. واشار إلى أن كلمة بعضهم

لا تسقط في الأرض، ولكن ذلك لم يكن لقوة الشخص نفسه، ولكن لمن يتزعمه، كما قيل : إن للأشتر ألف سيف يسلها غضبه، ويغمدها رضاه.

إن هذه القصة التى ترويها كتب التاريخ عن بطولة أيوب بن العباس، تكفي شاهداً على ثقته في نفسه، وثقة الناس فيه. واستحقاقه لتلك الثقة.

ولكن لماذا نقتصر على شاهد واحد وللرجل مواقف كثيرة لا تقل مجداً وعظمة ؟

اتفق الواصلية من المعتزلة فيما بينهم بعد أن أوقع بهم هذا البطل العظيم القوي وقتل أبطالهم وفرسانهم، وأذاقهم مرارة الهزيمة، اتفقوا أن يكيدوا له فيقتلونه غيلة إذا استطاعوا، وهم يعرفون أنهم لا يقدرون عليه مواجهة، ويعسر عليهم أن يجدوا منه غرة في الأحوال العادية، ولذلك فقد دبروا المكيدة الآتية.

إنهم قوم بداة يسكنون الخيام، ويرعون الأغنام، فلماذا لا يستضيفونه إلى حيهم، ويكثرون له أطائب الطعام والشراب، حتى إذا ثقل عليه وغلب عليه النوم وثبوا عليه وقتلوه.

وجاءوا يعرضون عليه ضيافتهم فقبل وهو يعرف أنهم أشد الناس حقداً عليه وبغضاً له.

ونصحه الإمام ونصحه الأصدقاء أن يرفض هذه الدعوة غير الكريمة، ولكن البطل العظيم أصر على قبول الدعوة وتشريف الحى بالزيارة. وركب مع القوم ووصل إلى الحي المحتفي المضياف، فقدم إليه العشاء الذي تعبت في إعداده بنات الحي : طعام

كثير، وشراب كثير، ولبن حامض كثير، وأكل هذا الرجل الشره الأكول. أكل حتى أتم الطعام، وأكل حتى أتم اللحم، وانتقى العظم. وشرب حتى أستنفذ ما في الركاء من البان. وكان القوم ينظرون إليه وهم يتغامزون مستبشرين فرحين ...

إنه يأكل كأنه في منزله، لا يتكلف ولا يتعفف، ولا يخاف ولا يحذر، ونتيجة ذلك سوف تظهر سريعاً، سوف يثقل عليه الطعام والشراب، وتأخذه سنة من النوم فيجدون الفرصة التى انتظروها بفارغ الصبر، وأعدوا لها الأسباب والوسائل. ولكن الرجل خيب ظنهم، فقد قام بعد أن نظف الأواني مما فيها من طعام، فصلى صلاة العشاء الآخرة، ثم تربع في مجلسه وبدأ يتلو القرآن الكريم، واستمع الناس إليه، فأطال، وبدأ الملل يتسرب إلى نفوسهم، والنوم يهز أعناقهم ويؤرجح رؤوسهم، وطالت التلاوة وامتدت حتى بلغت صلاة الفجر، فصلاها ثم أستاذن رجال الحي في الرجوع. إن الفرصة الأولى قد ضاعت إلى غير رجعة فما العمل ؟ وفكر أذكى القوم وأشجعهم فقال : لو طلبنا منه أن يعلمنا الفروسية حتى إذا لاحت لنا منه غرة قتلناه، وتكفل أن يقوم بمهمة القتل. وأعجب الشباب بالفرصة الثانية واستعدوا لها، وحمل رئيس القوم سيفه وجاء إلى المحارب المقدام يعرض عليه ملتمس الشباب، فأجابهم إلى ما طلبوا، واصطفوا على مقربة من الحي، وبدأ الدرس.

كان الشباب يحملون عصياً في مقام السيوف، وكان الفارس الكبير يدربهم على مقارعة الأقران ومجالدة الفرسان، وأساليب الكر، وخدع الفر، حتى ظن رئيس القوم أن صاحبهم قد استغرق

في الدرس ونسى الحذر، وأمكنته منه الفرصة، وواتته الغرة التى كان يتحينها، فوجه الضربة القاضية فيما يظن، ولكن الفارس الذي عرف نوايا القوم مقدماً، ولم يغفل عنه لحظة عين، راغ عن الضربة، واتجه إلى يمينه فقتل، واتجه إلى يساره فقتل، وأطلق بقية الفتيان أعنّة خيولهم، وأوغلوا في الفرار، فالتفت الشيخ إلى نساء الحي وهن يعولن وقال لهن : أزيدكن أم كفاكن ؟ فصحن به كفى كفى، ولكز جواده فطار به إلى تاهرت عاصمة الأمامة ومقر زملائه الذين كانوا ينتظرون في كل لحظة أن يوافيهم خبر مقتله، ولكن أيوب بن العباس الذي يتحدى الفرسان ما بين فاس ومصر عاد سالماً موفوراً ...

إن هذه القصة صورة أخرى من صور الشجاعة والبطولة والثقة بالله وبالنفس. يذهب البطل إلى عقر دار العدو.. العدو الذي لا يتورع عن الغدر والخديعة والغيلة، يذهب ليأكل طعامهم ويشرب شرابهم ويبيت بين أعدائه في حيهم، ويسلك في كل ذلك سلوك الرجل المطمئن المؤدب حين يكون مع أعز الأصدقاء وأوفى الأحبة الذين يكرمونه بكل ما تميل إليه النفس والشهية.

إن هذا الرجل بهذا السلوك نادر من نوادر البشرية في خَلْقه وفي خُلقُه، وفي دينه وأمانته وعلمه وثقته بربه وبنفسه.

وصل إلى تاهرت بعد سفر شاق قطع فيه آلاف الأميال في صحاري قاحلة جرداء. ومهما كانت قوة الجواد الذي أعده لهذه المغامرة الفريدة في التاريخ، فإن التعب لا بد أن يلحقه. إنه

يتكــون كما تتكون جميــع المخلوقات الحية من لحــم ودم وعصب، ولذلك فقد طلب من الإمام أن يعطيه جواداً يستطيع أن يدخل به المعركــة ويقارع عليــه الأبطال، واســتجاب الإمــام العظيم للبطل العظيــم فخيره في خيول الدولة و قــد كانت الدول في ذلك الحين تســتمد بالخيول] وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْـتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِــن رِّبَاطِ الْخَيْـلِ [ودخل البطل إلى اســطبل الدولة وبدأ يختار الجياد واحداً واحداً فهل وجد ما يرضيه ؟ وهل نجحت خيول الدولة في هذا الامتحان الذي يقوم به هذا البطل الليبي العتيد ؟ لقد كان يمســك بناصية الجواد ويجذبه إليه فيقــع على ركبتيه، ولم يزل كذلك بها حتــى اختبرها جميعاً، وحينئذ رجع إلى هذا الجواد الذي قطع الصحراء، وظن أن التعب أنهكه وطول السفر أضناه، فلما أمســك بناصيته وجذبه إليه لم يستجب له الفرس ولكنه رفعه إلى أعلى في اعتزاز وخيلاء تجيدها الجياد. عند ذلك انطلقت من شــفتى الفارس الكبير هذه الكلمة التى تدل على الإعجاب والإعزاز والحب لهذا الجواد الأصيل : " البركة في البرذون " فضربت مثلا، وكلام هؤلاء الفحول كله مثل وعبرة.

هــذا بطل عــرف الإمــام عبدالوهــاب دينه وخلقه وشــهرته بالصلاح والتقوى وعرف شجاعته وقوته وثقته في ربه وثقته في نفسه وعمله الخالص لله والأمة، فلما بلغه خبر وفاة عامله على ليبيا، هذا القطر الــذي كان يعرف في ذلك الحين " بحيز طرابلس " ويعنــون بذلك جميع الأراضي الواقعة ما بين ســرت والقيروان وجبل دمر ما عدا طرابلس المدينة.

لمــا بلغــت الإمــام وفاة عاملــه الســمح، ذلك العامــل الذي

تتلمــذ عن أعظــم إماميين في ذلــك العصر، وهمــا أبو الخطاب وعبدالرحمــن، ثــم دربه علــى شــؤون الإدارة الإمــام عبدالوهاب، الإمــام العالم القوي فــي دين الله، كان من أوائل الأســماء التى قفــزت إلى ذهــن الإمام : أيوب بن العباس، ومنذ ذكره لم ينســه، ولم يســتطع اســم آخر أن يطغى عليه رغم كثرة العظماء في ذلك العصر. إنه لم يفضل عليه حتى بعض زملائه الذين سافروا معــه في الوفد، والذين قد يفوقونه علماً ومعرفة، ولذلك رأي أن يحمله هذا العبء الثقيل وهو مطمئن إلى أنه أسند الحمل إلى أكفــأ رجل يســتطيع القيام به. ولما استشــار بعض خواصه من أهل الشــورى وافقوه فأرســل إليه يوليه مكان ســلفه العظيم السمح المعافري.

تولــي العمــل وقام به كما قام به ســلفه، قوة فــي دين الله، ومحافظة على شــرع الله، وعــدل بين جميع النــاس في الحقوق والواجبــات، وحفاظ على الأمن والســلام، حتــى كانت أيامه خير وبركة ورخاء.

أبو عبيدة عبدالحميد

عندما توفى البطل العظيم أبوالحسن أيوب بن العباس أصابت الإمام حيرة وربكة فيمن يختاره ليقوم بالعمل في ليبيا، من هذا الرجل الذي يستطيع أن يقوم مقام أيوب بن العباس ؟ ويملأ فراغه ؟ ولا تعنى هذه الحيرة أن الأبطال كانوا قليلا في ذلك الحين، أو أن المسلمين المخلصين الذين يوثق بدينهم وخلقهم، ثم هم يقوون على تحمل أعباء هذه الأمانة التى توضع في أعناقهم كانوا من النزرة بحيث يبحث عنهم الباحث فلا يهتدى إلى واحد منهم إلا بعد عناء. ليس هذا ما تعنيه حيرة الإمام، وإنما احتار الإمام لأن عدداً جما تتوفر فيه شروط الكفاءة للقيام بهذه المهمة، ولم تتبادر الى ذهنه ميزة خاصة بأحدهم حتى يكون ذلك سببا لإناطة هذا الواجب به، ولذلك بعث إلى نفوسه يستشيرهم في الأمر، ويخيرهم في الوالي الذي يضعون بين يديه مقدراتهم، واجتمع أهل الشورى وبحثوا الموضوع من جميع أطرافه، واستعرضوا الرجال الأكفاء، واحداً واحداً، وأخيراً قر رأيهم على أبي عبيدة عبدالحميد الجناوني ؛ فأخبروه أنهم رشحوه لأن يتولي أمروهم، وأنهم كتبوا بهذا الترشيح الى الإمام، وما عليه إلا أن يستعد للقيام بهذه المهمة الخطيرة. ولو كان أبو عبيدة من أولئك الرجال الذين يطلبون الدنيا، ويبحثون عن الجاه ويلتمسون

وسائل السلطة، لو كان من هؤلاء لطار فرحاً، ولامتلأ غبطة، ولكنه كان مؤمنا مخلصا في إيمانه، تقيا صادقا في تقواه، فلما أبلغ القوم اختيارهم له، وتكليف الإمام له، امتنع كما امتنع سلف 12 له من قبل عن تولي الأمامة، وبذل الشعب كل وسيلة ليحملوا الرجل على قبول هذا الشرف الذي توليه إياه الأمة والإمام، فلم يقبل، وكان جوابه لهم في كل محاولة قوله : أنا ضعيف : أنا ضعيف : أنا ضعيف، يكررها في إصرار وتأكيد، ولما لم يتمكنوا من إقناعه كتبوا إلى الامام برفض أبي عبيدة واعتذره لضعفه.

لو كان القوم طلاب دنيا لتبدل وجه التاريخ ولسخر الإمام من هذا الرجل المغفل الذي يعرض عليه الجاه والسلطة فيزور عنها، ولأناط الإمام هذا الشرف بغير هذا الرجل الجامد العزوف، لكن الإمام لم يكن من أولئك الناس الذين ينظرون إلى الأشياء بقيمة الحياة الدنيا، ولكنهم يزنونها بميزان الإسلام، فلما وجد هذا الرجل الذي يفر بدينه في حرص وتشدد، عرف أنه وقع على أصلح رجل للأمر، وان هذا الرجل حقيق أن لايخاف غير الله، وأنه لا يطمع في غير الله، وهاتان الصفتان هما أكرم الفصائل التى يجب أن يتجلى بها من يلي أمراً من أمور الدولة.

بعث الإمام رسالة أخرى يؤكد فيها أمره الأول بتولية أبي عبيدة، وأقسم في هذه الرسالة بكل اللغات التى يعرفها أن لا يولي أمر المسلمين إلا رجلا يخاف ضعف نفسه، ثم حلل العذر الذي اعتذر به أبو عبيدة فقال : " إن كنت ضعيف البدن فتول

أمر المسلمين والله يقويك، وإن كنت ضعيفا في المال ففي بيت المال غناء للجميع، وإن كنت ضعيف العلم فعليك بأبي زكريا التوكيتى "، إنها رسالة من راع يعرف كل شئ عن رعية هو مسؤول عنها أمام الله، وأصبح أمر الإمام واجب الطاعة حتى التنفيذ، ولو كان متردداً، إنه يطلب مهلة للتفكير وتقليب الآراء، ولذلك طلب من إخوانه الذين يمسكون برسالة الإمام، ويطلبونه بالتنفيذ أن يمهلوه إلى الغد ليستشير.

من يستشير أبو عبيدة ياترى ؟ ومن هذا الرجل العظيم الذي يلجأ إليه أبو عبيدة يلتمس منه الرأي والنصيحة ؟ لعله أبو زكريا التوكيتى ؟ لعله أبو مهاصر ؟ لعله أبو زيد ؟ لعله أبو مرداس ؟ لعله واحد من عشرات العلماء الأعلام الذين تغص بهم المدن والقرى في ذلك الحين ! ... لا !! لا !! إنه لم يكن واحد من أولئك، إنه آخر من يخطر على بال شباب اليوم، الشباب الذي يدعو إلى تحرير المرأة، وهو يعتقد أن معنى حرية المرأة أن تنطلق في الميادين العامة شبه عارية تزرع الفتنة، أو تدخل سكرتيرة في مكتب المدير لتعمل عمل المنبه في إثارة الأعصاب الغافية، أو مضيفة تسلى الركاب باللفتة والبسمة، أو موظفة تندس بين صفوف الموظفين تحمل أيديهم على العمل بشهوة عيونهم الزائفة التى تحملق في جوع إلى وجهها الجميل أو قدها المياس، أو متنزهة تزاحم الناس في المراكب العامة، والمجالس العامة، والميادين العامة، تزاحمهم بالصدر والعجز، فإن لم تفعل ذلك واحتفظت لنفسها بكرامتها، ولزوجها بجمالها، ولولدها بحبها وحنانها حسبت أسيرة لا تخدم المجتمع.

ولكن الواقع غير ذلك، فلقد استطاعت المرأة المسلمة في مختلف أدوار التاريخ – وهى محتفظة بكرامتها – أن تؤدي للأمة والمجتمع أجل خدمة، دون أن تغمز بعين، أو تميس بقد بين أنظار الجائعين، أو أن تكشف عن الصدر والنحر، وأن تطلى وجهها بالمساحيق، وتثقل ميزانيتها وميزانية زوجها بمصاريف الازياء والتجميل.

قلت إن أبا عبيدة ذهب يستشير المرأة، المرأة الكريمة العالمة، التى يجهل شاب اليوم ماضيها المشرق في العصر الذهبي للإسلام. كانت هذه الشخصية العظيمة التى فزع إليها أبو عبيدة والتى كان رأيها أرجح من رأي جمع غير قليل من أفذاذ الرجال. والتى استطاعت أن تخضع هذا الرجل العتيد لإرادة الأمة والإمام وأن تقنعه بالحجة والبرهان، كانت هى " مارن " العالمة الذكية البارعة، جدة المشائخ : هذه المدرسة التى لا تزال آثار مدرستها تطاول الزمن في القرية الجميلة " الجمارى " هذه القرية التى تنحنى بدلال على الزرقاء الفاتنة، وترنو في حب وإعجاب إلى زميلتها " مزو " إنهما قريتان شاعريتان تحضنان وادي الزرقاء الجميل، إحداهما تستقبل قبلة الشمس عند البزوغ والأخرى تتلقاها عند الغروب. عرض أبو عبيدة قضيته على جدة المشائخ، عرض عليها هذه المشكلة التى حيرته. وأقضت مضجعه، فماذا كان الجواب؟

إن العالمة العجوز لم ترد أن تبسط له في الرجاء، وأن تسند طلب المشائخ والإمام، وإنما وضعت المشكلة أمام حساب الضمير، وضعتها أمام المحاسبة النفسية التى لا يستطيع الإنسان أن

يتملص منها، إنك تستطيع أن تتملص من جميع الناس بالحق أو بالباطل، ولكنك لا تستطيع أن تهرب من ضميرك، ولذلك فقد قالت له : " إن تقدمت فأنت في النار، وإن تأخرت فأنت في النار " وأوضحت له مقدصدها فقالت : إن تقدمت وأنت تعرف أن في المسلمين من هو أكفأ منك، فأنت في النار، وإن تأخرت وأنت تعلم أنك أكفأ المسلمين، فأنت في النار، وصمت الرجل العظيم وفكر طويلا واستعرض الأشخاص حتى إذا اقتنع بالنتيجة رفع إليها رأسه، وهو يقول في صدق، وصراحة، وأسف : أما في الرجال فلا ! يعني أنه لا يعرف أن في الرجال من هو أكفأ منه للقيام بأمر المسلمين. وودع العجوز واستمد للقيام بالأمر، ورجع إلى المسلمين الذين ينتظرونه فأخبرهم باقتناعه وقبوله 13.

وسر القوم واستبشروا، ولكنهم كانوا يعرفون أن الفضل في حل هذه المشكلة يرجع إلى الجدة " مارن " ولذلك قال قائلهم، هلم بنا نزر " وقاية" هي خير من عمائمنا، والوقاية ما تضعه المرأة على رأسها ليقى ثيابها ما تدهنه به من زيت وغيره، وزار المشائخ الجدة وشكروها على ما قدمته لأمتها ودينها دون أن تقف خطيبة تتلوى على المنصة وهى تستعرض مفاتن جسمها أكثر مما تستعرض مواهب عقلها، وتستدر الإعجاب بجمالها أكثر مما تستدر الإعجاب بفكرها ورأيها ...

لماذا ياترى يصر الإمام ويصر المسلمون على تولية رجل يشكو الضعف، ويتباعد عن تحمل المسؤولية، وقد كانت البلاد مملوءة بالرجال الأكفاء.

إن الإمام ذكر حادثة من حوادث التاريخ التى تمر بالإنسان فتترك أثرها الذي لا ينسى ولا يمحى. إن مواقف البطولة والشجاعة والاستمساك بالحق هى المعايير التى تقاس بها الرجولة عندما تناط الأعمال.

زار الإمام عبدالوهاب طرف المملكة في الشرق هذه القطعة التى نسميها اليوم ليبيا، واتخذ مقره في قلب جبل نفوسه في قرية " ميرى " من بلد الرُّجبان اليوم، هذه القرية التى أندثرت ولم يبق منها إلا المسجد العظيم الذي بناه الناس للإمام عبدالوهاب، يلقي فيه المحاضرات العلمية، ويتولي فيه التدريس والصلاة والفصل في مشاكل الناس، ذلك أن الأئمة العدول لم يكونوا يترفعون عن العامة ولا يبتعدون عنهم، ولا يتخذون مجالس خاصة بهم لا يصلها إلا المقربون بعد استئذان، إنهم كانوا يقومون بأعباء الدولة بين جموع الأمة وفي المساجد التى هي بيوت الله يؤمها جميع المسلمين، وبقي الإمام الكبير وطاب له البقاء. فانصرمت من الزمن سبع سنين، وكان بعض مرافقي الإمام خافوا على أنفسهم العنت فتزوجوا عدداً من إماء بني زمور، وولد الأمة هو ملك لسيدها لا لزوجها كما ينص الشرع الكريم، وعندما ركب الإمام للرحيل وركب رفاقه معه، أخذ كل واحد منهم ولده من الأمة التى تزوجها، وشغل الإمام بالوداع، فغفل عن هذا الموضوع، واستحي الناس، استحى العلماء والقضاة والعمال أن يتكلموا، وأن يؤلموا خواطر هؤلاء الضيوف الذين رافقوا الإمام في آخر لحظة، لحظة الوداع، ولكن أبا عبيدة لا يخاف شيئاً في الحق، ولا يجامل عليه أحد، ولا يساير حتى

الإمام نفسه. ولذلك فما سمع بالحادث حتى جاء والناس في موقع الوداع. فلم يستأذن الإمام ولم يهمس في أذن العامل أو القاضى بكلمة لطيفة أو توسل ذليل. ولكنه صرخ بما يملك من قوة الصوت : " خذوا عبيدكم يابني زمور" إنه حكم الله. ولن يسكت عن مخالفة حكم الله ولو غصب البشر جميعاً.

وكان هذا الموقف الصلب الصريح القوي. الذي لا يحابى ولا يلين. هو الميزان الذي رجح به أبو عبيدة على غيره من الأقران في نظر الإمام. لقد أقر الإمام أمر أبي عبيدة وأعجب به. ولما جاء مجال الاختيار بين من تسند إليه مهام أمور المسلمين ذكر الإمام صلابة الرجل في الحق. وقوة إيمانه وعلمه وحصانة خلقه. فأصر على توليته. وتولي أبو عبيدة.

لقد كان أبو عبيدة من أولئك المؤمنين القلائل الذين يفرقون بين المواقف ويعرفون متى تكون الشدة ومتى يكون اللين. إنه يترسم خطا الفاروق رضى الله عنه. لاتأخذه في الله لومة لائم. ولكنه إلى كل ذلك لا يرى نفسه إلا رجلا ضعيفاً قد ألقيت عليه تكاليف ينوء بها القوي الأمين. وهو إذا خرج منها سالماً فقد نجا.

ولذلك فقد كان شديد الاحتياط. ولكنه عندما يستبين له الطريق لا يتردد ولا يقف ولا يحيد. وعندما تولي شؤون الجبل. كان هناك " خَلَف14 " رجل ممن غرته الحياة. واستعبدته الشهوة. وأذلت نفسه المطامع. فاستهان بحرمة المال والدم. وطلب لنفسه الخلافة ليقيم ملكا كالذي أقامه طلاب الدنيا في كثير من نواحى العالم الإسلامي. وكان " خلف " يستعلى

ويتقوى في النصف الشرقى من الجبل الأشم. فلم يهتم له أبو عبيدة ولم يبال به. لأنه لم يكن من طلاب التوسع أو الراغبين في تمديد الحكم على أوسع رقعة. وإنما شمر للقيام بما أنيط به. والعمل على توفير أسباب الراحة والاطمئنان. فأعطى الحق. ونشر العدل. وبسط الأمن. كما فعل سلفه أيوب بن العباس. وسكت " خلف " في بادىء الأمر كأنه يزن هذا الرجل الجديد. فلما رآه لا يلتفت إليه ولا يتحكك به ظن فيه الضعف. فبدأ يناوشه ويغير على بعض القرى المتطرفة. ويتعدى الحدود بينهم. فطلب إليه العامل العالم الشجاع أن يترك هذا الاستفزاز. وأن يكف عن هذه الأعمال التى لا يقوم بها مسلم يرعى الله في دينه وفي عمله. ولكن " خلف " اعتز بالإثم. وواصل العدوان.

بعث خلف بعثة عسكرية من الفرسان فأغارت على حدود حوزة أبي عبيدة. وقتلت ونهبت في قرية (أدرف) التى لا تبعد عن (جادو) بما يزيد عن 6 كيلو مترات. ووصل الخبر إلى أبي عبيدة. وتحقق من وقوع الغارة. وعلم أن ما لايقل عن عشرة من المسلمين المسالمين أريقت دماؤهم ظلماً وعدواناً. وأنه قد استحلت أموال. وانتهكت أعراض. فقال لأصحابه لا يحل لنا السكوت بعد هذا العدوان. وخرج لتأديب هذه البعثة. فلقيت منه الصفعة المؤلمة التى يوجهها الأب أو المربي إلى خد الإبن العاق. او التلميذ الشرير.

ولما تولت هذه البعثة منهزمة فارة. أصدر أمره إلى جنده أن لايتبعوا مدبراً. ولا يجهزوا على جريح. وأن لا يستحلوا مالا. أو يغنموا شيئاً. إنه ذلك الموقف الذي عرفته من الخلفاء الراشدين.

وعرفته في سيرة الحارث، وأبي الخطاب،وأبي حاتم، إنه نفس الموقف لا يتغير إلا في الزمان والمكان ؛ سيرة عطرة، ووقوف عند حدود الإسلام، وتخلق بخلق الإنسانية الرفيع.

ورجع بعد أن ضرب هذا المثل الرائع، وبرهن أنه قوي حين تستدعى الظروف القوة، وعنيف إذا تطلب الموقف العنف، وشديد إذا كانت مصلحة الأمة تتوقف على الشدة، ولكن هذه القوة وهذا العنف وهذه الشدة لا تبلغ حد الطغيان، ولا تتجاوز الحدود التى رسمها الإسلام لرد العدوان، ولما رجع العامل القوي إلى مركزه، بعث رسالة إلى خلف يقول فيها وهو يرجو أن يحقن بذلك دماء المسلمين : " وإذا نزعت يا خلف يدك عن الطاعة فكن في حيزك وأكون في حيزى وما بال الحرب ".

ووصلت الرسالة إلى " خلف "، فماذا فهم ؟ إن الشيطان إذا نفخ بالغرور في قلب إنسان لا يترك فيه مجالا للإستبصار والرشاد.. إن " خلفاً " لم يفهم إلا أن أبا عبيدة قد كان له صفعة مؤلمة يجب أن يردها له بأعنف منها، وأن أبا عبيدة هذا ما بعث بهذه الرسالة اللينة الوادعة القائمة، وما رضى بإقامة الحدود بينهما إلا لأنه شعر بالخوف، وأحس في نفسه ورجاله الضعف، وإذا كان كذلك فلماذا لا يهجم عليه هجمة يستولي بها على الحوزة التى يتولي أمرها هذا الرجل الخائف الذي يقنع بإقامة الحدود.

إن تفكير " خلف " لا يسمو به إلى تفكير " أبي عبيدة " ولذلك فهو لايفسر الإلحاح في طلب السلام إلا بالضعف والخوف، لأنه لا

يقيم لأموال المسلمين ودمائهم وزناً، فهو من أولئك الرجال الذين يعيشون تحت ضغط الشعور بالحقارة، فهو يبذل كل مجهود ليكون لنفسه سلطة، وليظهر بين الناس بمظهر العظمة.

وأعد خلف عدته، وكون جيشاً لجبا، وهجم عليأبي عبيدة في حين غفلة، ولما بلغ الخبر أبا عبيدة كان الجيش المعتدي قريباً من مركز أبي عبيدة، فلاقاه بمن حضر من الرجال الأبطال، ولما تراءى الجمعان كان جيش أبي عبيدة لا يتجاوز ألفا، وكان جيش خلف لا يقل عن أربعين ألفا، وبدأت حرب الأعصاب، ولعب الغرور بقلب الفتى، فزين له الشيطان سوء علمه، فأطلق جمعا من جيشه اللجب في القرى المجاورة الوادعة، وفي الناس الآمنين المسالمين، يعتدى وينهب ويسلب ويقتل، ثم بعث إلى أبي عبيدة يطلب منه الانسلاخ من بيعة الإمام الرسمي، وبيعة خلف.

انقلاب في التفكير، وقلب للأوضاع، ونظرة حولاء لا تستبين الحق ولا تهتدي إلى سبيل الرشاد ؛ وحاول العامل الحكيم أن يقنع الوفد الذي يطالب بالبيعة لهذا الباغي الذي لا يفرق بين الحلال والحرام من شرع الله، ولا يلتزم الحدود التى حدها الإسلام، فلما ألزمهم الحجة، رجعوا إلى قائدهم يحملون إليه خبر الفشل وتصميم الرجل على الدفاع.

سلك أبو عبيدة كل طريق لحقن الدماء وإراحة المسلمين من مصائب الحرب ودمارها، ولكنه لم يجد إلى ذلك سبيلا. وفسر عدوه هذا الموقف النبيل، وهذا التحريج، بالخوف والخشية، بل لقد سولت لخلف نفسه أن يبعث لأبي عبيدة من يقول له : " دع

عنـك القتال، فإنـك لا طاقة لك اليوم بمقابلة خلف وعسـاكره، ولا حاجـة لـك في لقائه " 15. وغضب الرجل الشـجاع ! هل بلغ الموقـف بالطامعـين إلى هذا الحد ؟ هل ظن المغـرور أن أبا عبيدة لـم يتخذ هذا الموقـف إلا خوفا منـه، وطلبا للسـلامة، وتحاميا للسـيوف القواطع، وهنا بـرزت تلك القوة التـى يغطيها الرجل العظيـم باللين ؛ تلك القوة التى يودعها الله في قلب من يشـاء من المؤمنين الأوفياء..

إنه الغضب لله، الغضب الذي لا يبرد إلا بإحقاق الحق، فأقسم بكل لغة يحسـنها لهذا المغرور قائـلا : " لأقاتلن خلفاً، ولو ألقاه منفرداً بسـيفى هذا " وضرب بسـيفه على فخذه، ثم طلب ماء فاغتسل وتوضأ وصلى ركعتين لله، وتوجه إليه بقلب المؤمن الذي لايلجـأ إلا إلى الله فيمـا دق وعظم من أمره، وقـال في دعائه : " اللهـم يا من لم أعرض عنه منذ اسـتقبلت أمـره، لا تفرق هذه العصابة على يدي، إنك على كل شـيء قدير 16" وبعد ذلك تهيأ لرد العدوان وبدأت الحرب، ولكنها لم تسـتمر طويلا، فلقد انهزم الجيـش اللجب القوي، الذي يتكون من أربعين ألفاً، وانتصر الجيش الصغير الذي لم يبلغ ألفاً من الأبطال.

وعندمـا ولى المنهزمين الأدبار، صاح أبـو عبيدة بصوته القوي الأمر الذي يعرفه المؤمنـون إذا حاربهم البغاة من الموحدين، صاح فـي أصحابه : لا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تتعرضوا لمسـالم، ولا تستحلوا مالا، فاستمع الجند لكلمة القائد المظفر، ووقفـوا عند حدود النصـر، فلم يبغوا، ولم يطـاردوا هذه الفلول المعتدية ليثخنـوا فيها الجراح، ويكثروا فيهـا القتل، ولم يذهبوا

إلـى أرضهم ليحتلوها ويطردوا منها خلقـاً فتذوب أحلامه، ولم يقطعـوا الرؤوس ليرسـلوا بهـا إلى تاهـرت، عاصمـة الإمامة، فيكون هذا الرأس وسـيلة أخرى يرتفع بها شـأن أبي عبيدة عند الإمام. إنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك، لأن الإسلام لا يبيح شيئاً مـن ذلك، وهـم إن لم يقفوا عند حدود الإسـلام في هذا الموضع فاحرى بهم أن لا يقفوا عند حدود في غير هذه المواضع. وانكمش خلف وتفرق عنه الأتباع، وتبخر الحلم الذي كان يملأ رأسه، ولكن أبا عبيدة لم يسـتغل هذه الظروف ليثب على تلك الحوزة فيدخلها تحت الطاعة، لأن الحكم عند إبي عبيدة وأضرابه لم يكن القصد منه جمع الضرائب واسـتغلال السلطة، وتكديس الثروة لترفيه صاحب السـلطان على حساب الشـعب، بسبب ما خول له من وظيفـة، وأسـند له مـن عمل ومنح لـه من ثقـة. ولكن الحكم فـي نظر أبـي عبيدة مسـؤولية تلقى على العاتـق، يتجرد فيها المسـلم المؤمن من أعماله الخاصة، ليتولي شـؤون الأمة العامة، فيتولـي قويهم بالتربية والتهذيب، ويتولـي ضعيفهم بالعناية والرأفة والرحمة، ويوصل الحقوق إلى أصحابها من أقرب السـبل فـي أقرب الأوقات، ويعدل في الأحـكام، ويوفر الأمن والطمأنينة والسـلام، وليـس له مقابـل ذلك غير مـا يقيـم أوده من طعام بسيط، ويسـتر ظهره من لباس بسـيط، لا ترف فيه ولا إسراف، وليس له بعد ذلك حق التصرف فيما يجمعه من مال ليضمن به مستقبله ومسـتقبل أبنائه، كما يفعل الناس في هذا العصر، لأن كل الخيرات التى تسـتخرج في زمن ما هي إلا حق لأبناء ذلك الزمـن، لا تدخر لغيرهم، ولا تمنح لسـواهم، أما المسـتقبل فبيد

الله، ولا يفكر فيه الإنسان، لأن تفكير الإنسان لا يمتد إلى ما بعد الحاضر، أو المستقبل القريب، وعلى هذا التفكير كان يعيش أولئك المسلمون، الذين حملوا رسالة الله، فقد مات محمد صلى الله عليه وسلم ولم يترك لبناته وأقاربه ما يمكن أن يورث، وعاش أبو بكر رضى الله عنه على القوت الضروري، واللباس الضروري، وخدم عمر الأمة الإسلامية خدمة بلغت النهاية في الإخلاص والتضحية، وفتح لها وبها مشارق الأرض ومغاربها، وكانت زوجته الحبيبة طوال خلافته تتمنى قطعة من الحلوى ! الحلوى الرخيصة التى توجد في بيوت المتوسطين والفقراء، فلم تظفر زوجة أمير المؤمنين الغالية بهذه الأمنية الرخيصة، وعندما اقتطعت ثمن هذه الحلوى من القوت الضروري الذي كان يتناوله عمر وآل بيته، رأي عمر أن ذلك زائد عن استحقاقه اليومي، فرده إلى بيت المال !

إنه لم يأخذ من الأمة حتى حق الأجير الذي يعمل في الحقل أو المصنع، ولم يطالب بتحديات ساعات العمل ليكون الوقت الباقي لنفسه وأهله وعياله، وعلى هذا النمط كان يسيرأولئك العمالقة الذين يسهرون على شؤون الأمة، ليلهم ونهارهم، ويؤرقهم أن يبيت فرد من الأمة عاريا أو جوعان، و يحز في نفوسهم أن يتعطل حق من الحقوق، فلا يصل إلى صاحبه في أسرع وقت.

إنهم وقد تقلدوا هذه المسؤولية العظمى، وتحملوا تلك الأمانة الغالية، ووضعت فيهم تلك الثقة العظيمة، حسبوا أنهم أقل من أُجَراء فوضعوا أنفسهم وأموالهم ومالهم من قوة البدن، وقوة العلم، وقوة الفكر، وضعوا كل ذلك لخدمة الأمة،

وهم يشفقون مع ذلك أن تكون أعمالهم تلك غير مقبولة عند الله، إن تولي الإمارة والقيام بمهمة الحكم في الأمة الإسلامية، لا يعني سوى تضحية الفرد، تضحية كاملة، ينسى فيها نفسه وأهله وقرابته من أجل هذه الأمة التى أولته الثقة، وحكمته في مصيرها وشؤونها.

تحدث أبو العباس الشماخي عن البطل الذي يندر أن تجد له مثيلا فقال: " وكان أبو عبيدة شديد الشكيمة، قوى العريكة، لا تأخذه في الله لومة لائم ".

إنها شهادة رائعة من مؤرخ أمين مطلع على أسرار التاريخ، عارف بسير الرجال، فهل لأبي عبيدة شواهد من هذا التاريخ تسند هذه الشهادة، وتثبت هذا الحكم. ؟

إن الباحث الذي يريد أن يدرس حياة هذا العامل الصادق المخلص يجد في سيرته عشرات الشواهد والشهادات. ويكفي عن كل ذلك فيما يظن، شهادة أربعة أعلام أجمعت أمتهم حينئذ أن كل واحد منهم يقوم مقام مائة. إنهم الوفد الذي سافر من جبل نفوسة إلى تاهرت، لينصروا الإمام في الميدانين العسكري والعلمي، ولما أعجب بهم الإمام سألهم : هل تركوا أحد في الجبل يبلغ ما بلغوا إليه من العلم والخلق والدين. قالوا : تركنا من هو خير منا18: أبا عبيدة عبد الحميد الجناوني، فكانت هذه الإجابة منهم أو كد شهادة عرفها التاريخ في الاعتراف بالحق والفضل.

وشاءت إرادة الله أن يزور الإمام عبدالوهاب جبل نفوسة – هذا

الجبل الشامخ، الضارب في السماء الذي نسميه الآن : الجبل الغربي – في حاشية عظيمة من أهل العلم والفضل والادب، وأن يختار قرية " ميرى " التى تعتبر قلب الجبل في ذلك الوقت مركزاً لإقامته، وأطلق سراح الخيل بعد عناء السفر الشاق، هذه الخيل التى حملت الركب العظيم من تاهرت الى جبل نفوسة، فتساهل الرعاة في حفظها إكراماً لها، واحتراماً لمن جاء عليها، فدخل بعضها إلى الغابة، ونالت من هذه الغابة التى يحرص الناس عليها، لأنها مدار زراعاتهم، ومنبت أرزاقهم، وكان أبو عبيدة في ذلك الحين رجلا عاديا من سائر الناس، لا يمتاز عنهم بشيء غير ما يقدمه لربه، فلما سمع بوصول الإمام إلى قرية " ميرى " وبتهاون رعاته في رعاية الخيل وحفظ المزارع منها، خف إلى ملاقاة الإمام، لا ليسلم عليه، ويرحب بمقدمه، ولا ليتملقه ويتزلف إليه، لم يخف إليه لذلك، ولم يذهب إلى الإمام ليرفع اليه الشكاة، ولم يراع سلسلة المراتب، فيتقدم إلى العامل أولا، ليكون هذا العامل هو واسطة الحديث، ولكن وقف أمام الإمام وقبل أن يرفع إلى اعتابه العالية، ومقامه السامي، أرق التحايا، وأخلص النوايا، كما يفعل المتملقون من طلاب الدينا، الذين يتزلفون للحكام، قبل أن يفعل شيئا من ذلك، صرخ بصوته القوى، الذي يعتز بالإسلام وبالحق، قال : " إنه الرعاة عن المضرة، إن لم تعرف فقد اعلمناك، والا فصل بيننا هذا "19وهز السيف في وجه الإمام الضيف.

كان الإمام ينظر إلى هذا الرجل الخشن القوي العنيف في أعجاب، ثم سأل عنه من يكون ؟ فقيل : أبوعبيدة عبدالحميد،

وذكر الإمام شهادة الوفد في تاهرت، فقال : صدق الشيوخ، هو مثلهم أو خير منهم.

ثم ابتسم الإمام في بشر وتواضع وأصدار أوامره المشددة على الرعاة لتحرص على حفظ أموال المسلمين.

فهل تكفى هذا الحادثة لتكشف عن الخلق العظيم الذي يتحلى به هذا المسلم المؤمن. إنك تستطيع أن تضعه في صف مع ذلك المؤمن الذي أجاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين هدد بإمالة رأسه الى الدينا فقال له : إذن نقومه بالسيف فحمدَ عمر الله أن جعل في المسلمين من يملك من القوة والشجاعة ما يردع به حكام الدولة، ويلزمهم السير في الطريق اللاحب الذي اختاره الله ورسوله لسلوك البشرية الواعية.

إن أول عمل قام به أبو عبيدة بعد أن تولي أمر المسلمين في الجبل أن أدب رجلا دعا بدعوى الجاهلية فقال : ياآل فلان، يستنجد بقبيلته. وإنك إذا أردت أن تعرف من أ عماله مثل هذه الحادثة، فستحتاج إلى صفحات كثيرة.

إن هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ خالص يحصى الخطوات ويسلسل الحوادث، ويربط الأحداث بعضها ببعض. إنه صور مشرقة من أولئك الذين ملأوا الدنيا حقاً وعدلا ومروءة، وشهامة واستقامة، إنهم أولئك الذين كانوا على الإسلام الحق في حربهم وسلامهم، في عقيدتهم وعبادتهم، لم تمتد أيديهم إلى زخرف الدنيا بالباطل، ولم تلوث سيوفهم بالدماء المظلومة، ولم تمتزج عقيدتهم بالبدعة المنحرفة، ولم تمتزج عبادتهم بالخرافة الضالة.

ولعلـه من المناسـب أن أختم هذا الفصل بمـا جاء في كتاب السـير القيم : " وما إلى ما طبع عليـه من الورع، واطراح الحرص علـى الدنيا وترك الطمع، وكان غاية فـي إنفاذ الأمور وإمضائها، وقائما بالمدافعة لأحـوال البغاة ودفاعها،ووافيا بما أمر من إصلاح النفس والدين والدنيا وتحصينها، ولما ولى أحسن السيرة. "

العباس بن أيوب

بطل من أبطال الكفاح، ومؤمن من أخلص المؤمنين، رجل من أولئـك الرجال الذين خلقوا أقوياء لتحمـل الأعباء الثقال، أولئك الرجـال الذين يضعون أنفسـهم لخدمة الأمـة، وصيانة الدولة، وإقامـة الحق.. إقامة الحق دون نظر إلى مـن يقام عليه الحق.. ومع هذه القوة أناة يزينها الحلم، وتفكير تسدده الاستشارة، وتردد في بعض المواقف يفرضه استبانة الحق، واستيضاح الدليل ...

كتب مشـائخ نفوسـة إلـى الإمام فـي تاهـرت يعزونه في أبي عبيدة، ويطلبون منه إسـناد أمرهم إلـى والٍ آخر، يكون قويا فـي دين الله، حريصاً علـى المؤمنين، ففوض إليهـم أمر الاختيار، وأخبرهم أنه سوف يولي عليهم من يشيرون به. فتشاوروا وأجمع أمرهـم على العبـاس بن أيوب، وكتبوا إلى الإمـام برأيهم دون أن يخبروه.

أصـدر الإمـام أمر الولايـة إلى العبـاس، وبعث إليه برسـالة التوليـة، فلم يفرح بالمنصب، ولم يتهرب من المسـؤولية، ولكنه جمع الناس وأبلغهم رسـالة الإمام، واستشـارهم في أمورهم، ودرس معهـم ماجدّ من الحوادث والمشـاكل، ثم رتـب أموره، وهيأ نفسه للقيام بالمهمة العظمى الملقاة على عاتقه.

كان " خلف " قد انكمش بعد الضربة القوية التى وجهها إليه أبو عبيدة عندما غرته نفسه، ومنته الأماني، فهاجمه في مركز حكمه، ولم يتحرك بقية مدة ذلك العامل القوي. فلما توفى أبو عبيدة وبقيت البلاد بدون عامل، وانصرمت أيام طوال تجرى فيها المخاطبة بين رجال الشورى والإمام في تاهرت، تحرك الشيطان للعمل، ووسوس لخلف فأوحى إليه أن الفرصة سانحة، وأن هذا وقت العمل لتحقيق الحلم اللذيذ ؛ الحلم الذي كان يداعب خلفا ليرتفع إلى مرتبة السلطان، ويتربع على كرسي الحكم، وتحرك الرجل من جديد، وبدأ في تجهيز الجيوش وإعداد العدة فما يكون موقف العباس بن أيوب، أو توفيق بن أيوب كما يحلو لأبي مرداس أن يسميه.

بعث العباس بن أيوب العامل الجديد إلى خلف أن يكف عن العدوان، وأن يلتزم حوزته، وأن لا يتعدى على أموال الناس وارواحهم، ولكن خلفاً أخطأ مرة أخرى في فهم هذه الرسالة، وظن هذه الملاينة مرة أخرى ضعفاً وخشية لقوته، ورهبة من جيشه، فتمادى في غيه وأصر على موقفه، واستمر في عداوته، وسار بجيشه الكثيف، نحو مركز العامل الحريص على سلامة البلاد والعباد.

ولما علم العامل الفتى الشجاع هذا الموقف من خلف، ورأي منه هذا الأصرار والعناد، وسمع بمسيره نحوه، استعد له وكون حملة لتأديب هذا الرجل العاق، الذي ينحرف عن الإسلام، ويستحل ما حرم الله من دماء المسلمين وأموالهم، والتقى الجيشان داخل حوزة العباس وتراءى الجمعان ...

كان جيش خلف كالموج الزاخر، يضطرب بالفرسان، كثير العدد، حسن التجهيز، وكان جيش العباس عبارة عن حملة تأديبية، عبارة عن سرية صغيرة قصد منها رد العدوان، ورأي بعض ضعاف النفوس من جيش العباس، هذه الكثرة الهائلة في جيش العدو، وهذا الاستعداد المتين فخاف العاقبة، فذهب إلى أبي مرداس وهو من رجال الشورى الذين يؤثرون على قائد الجيش، ذهب إليه يكشف له عن رأيه، ويبين له أن العدو يفوقهم عدداً وعدة، ولكن أبا مرداس أجابه إجابة المؤمن الواثق بربه الراجى للنصر، العارف بقيمة الأبطال، الذين يحاربون إلى جنبه ؛ الأبطال الذين يحاربون عن الحق، ويرغبون الشهادة، ويثبتون على المبدأ، إن الفرق كبير جداً بين رجل يحارب من اجل جاه أو مال، ورجل يحارب من أجل حق وعقيدة ؛ إذ أن الأول إذا تعسر عليه الحصول على الجاه أو المال، تركها محافظة على الروح، محافظة على سلامة نفسه، أملا أن يجد فرصة أحسن، ووقتاً أكثر ملاءمة، أما الثانى : فإن أول ما يقدمه هو روحه، أو لذلك فليس له إلا أحد أثنين : أما النصر، وإما الشهادة، وليس له شئ يحافظ عليه، ويبقي على سلامته.

قال أبو مرداس : لا أخاف على جيش فيه أبو الحسن الأبدلاني. وسكت الرجل، ولكن الجواب لم يقنعه، إنه يريد جواباً عملياً، إنه يريد تأخير المعركة حتى يستعد لها كل الاستعداد ولذلك ذهب إلى أبي الحسن الأبدلاني في الطرف الأخر من الجيش، وأخبره نفس الخبر، وأطلعه على الحقيقة المخيفة ؛ أراه كثرة العدو واستعداده، وأراه قله جيشهم بالنسبة إلى عدوهم، ولكن أبا الحسن الأبدلانى أجابه إجابة الواثق بربه، العارف بصحبه، فقال

له : لا أخاف على جيش فيه أبو مرداس. وعجب الرجل من حسن الاتفاق وصدق الفراسة، وعظم الثقة في الله، واقتنع أن النصر لا يأتي من كثرة العدد وقوة الساعد فقط، ولكنه ينبع من القلب، ينبع من الإيمان ووقعت الحرب، وتصادم الجيشان، وطال بينهما النضال ...

لم ينهزم جيش الباطل بالسرعة التى يظنها المؤمنون الصادقون، فذهب أبو مرداس إلى العباس، عامل الإمام، وقائد الجيش العام، وقال له : "تب إلى ربك فما تأخر عنا النصر إلا لأن شيئاً ما وقع منك، وما كان للباطل أن يقف أمام الحق هذا الوقت الطويل.. " ولم يغضب القائد على هذا الرجل الذي يتهمه بالمعصية، ويحمله مسؤولية تأخر النصر، ولكنه قال في حرارة وصدق وأخلاص، اللهم إنى أتوب إليك من كل ذنب ارتكبته، ثم اندفع إلى الميدان، وصاح في القوم : اعملوا كما تروننى أعمل، ولم تمض على هذه التصفية إلا لحظات قلائل، حتى أنهزم الباطل بكثرته، وانتصر الحق بقلته، ووقف أبو مرداس وفلول جيش العدو تولي منهزمة مدبرة، وصاح في الجيش : لا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تستحلوا مالا. ولكن جندياً في طرف الجند تحدى البطل العظيم، أحد أولئك الأفراد الذين لا تهمهم الشخصيات، ولا تعظم في أعينهم الأوامر، إلا إذا كانت متسمة بالحكمة والحق. وأعلن هذا الجندي العادي لقائد الجيش، ولأبي مرداس، أن فلول العدو لاتزال داخل الحوزة وأنهم سوف يطاردونهم حتى يخرجوا من الحدود، وعرف أبو مرداس الصواب في رأي الجندي البسيط، فسكت، ووافق القائد على هذا الرأي

فطوردت تلك الفلول حتى تجاوزت وادى الآخرة 22، وهو آخر الحوزة في ذلك الحين، وقضى منذ ذلك الحين على هذه الفكرة التى كانت تراود خلفاً، فلم يحلم بها من بعد، ولم ينهض لقتال.. انتهى خلف بعد هذه الصفعة المؤلمة، فلم يعد يحلم بالإمامة، ولم يطالب بالبيعة، ولم يعد يباشر عمل السلطان الغشوم ؛ يقتل الأرواح ويسرق الأموال، ولكن أولئك القوم الذين كانواناصرونه ويعقدون عليه آمالا طوالا، وتعودوا العدوان بالغارة، واستمرأوا طعم النهب والسلب، واستحلوا الأموال بالباطل، أولئك القوم لم ينفكوا عن موقفهم ؛ فكانوا يغيرون على أطراف الحوزة يقتلون ويسلبون ويغزون، ولما أصبحوا لا يجتمعون تحت إمرة قائد عظم خطرهم وكثرت غاراتهم، وتواصلت تعدياتهم، ولهذه الأسباب قرر العامل الحازم أن يقضي على هذا الفساد، وأن يفرض الأمن على البلاد التى لا تخضع لحكم ولا تتبع نظاماً، وكون جيشه القوي، وسار فكان الناس يتسابقون إليه مرحبين به منضمين إليه، وقد تعترضه شراذم متفرقة فتراق دماء، وتذهب أنفس، وكان أبو مرداس من أخلص المستشارين وأحرص المؤمنين على مصلحة الأمة، وأكره الناس لإراقة الدماء، فلما رأي تسابق الناس وترحيبهم بعامل الإمام، أمل أن يتوب أولئك العصاة المارقون دون قتال أو استعمال شدة، فجاء إلى العامل الذي يزمع التقدم بنصحه بالرجوع، ويطلب إليه أن يعطي القوم فرصة لعلهم يفكرون فينضمون إليه، أو يقلعون عن الشغب، ولكن العباس وقد استعد وصمم على إقرار الأمن، رأي أنه لاداعي للرجوع بعد أن أمن مجموعة من القرى والمدن، وأقبل الناس عليه

فرحين مستبشرين، وهو يأمل أن يتم هذه المهمة في أسرع وقت. فقال أبو مرداس ارجع وإلا صحت في الناس أن يرجعوا.. ولما رأي العامل هذا الإصرار من أبي مرداس استجاب له، ووقف خطيباً فقال : " أيها الناس نفذ الزاد، وضعف الكراع، فارجعوا حتى إذا سمنت الدواب وجددنا الزاد، رجعنا ".

لم تكف هذه الحملة لتأديب أتباع خلف، فما رجع حتى عادوا إلى ماتعوده من الاعتداء على الآمنين، وسلب أموالهم ونهب أرزاقهم. وجرد العامل الحازم حملة أخرى لتأديبهم ففروا من أمامه، وأراد هذه المرة أن يستأصل الداء، وأن ينتهى من هذه المشكلة التى طالت، ولكن أبا مرداس كان لا يزال عند رأيه الأول، كان لا يريد استعمال القوة، وكان يرجو أن يثوب أولئك العصاة إلى رشدهم، ويتوبوا إلى ربهم، فنصح للعباس بالرجوع، ولكن العباس هذه المرة كان مصمما على المضي، فلم يمتثل لنصيحة الشيخ ولم يستجب لدعوته، فرجع أبو مرداس إلى نفسه وقال : " ماأعظم جنون مهاصر – يعني نفسه – حين يترك ربه ويلجأ إلى رجل مثله، يطلب إليه امراً " ثم اتجه إل ربه داعياً أن ينزل عليهم غيثاً عميماً، فاستجاب الله دعاء الشيخ ونزل الغيث مدرارا، سالت به الأودية، وارتوت به الهضاب، فجاء الجند إلى القائد يستأذنونه في الرجوع ؛ لأن الموسم موسم زراعة وهم جند يقاتلون دون أن تكون لهم مرتبات، وليس لهم مطمع في غنيمة لأنهم يقاتلون الموحدين البغاة، واضطر القائد إلى تلبية رغباتهم، فقال له الشيخ ردهم الآن إن استطعت ! وهكذا انتهت الحركة الثانية وفق رغبة أبي مرداس، ولكن آمال أبي

مرداس لم تتحقق، فلم يثب أولئك القوم إلى رشدهم، ولم يتوبوا إلى ربهم، ولم يحاسبوا أنفسهم، بل ما كف عنهم حر القتال، حتى عادوا لما نهوا عنه.

لقد كان الشيخ يعتقد أن هذه المناورات التى يقوم بها الجيش القوي المظفر، كافية لإرهاب العدو، وإيناس الصديق، فينكمش المعتدون، وأما المسالمون فإنهم سوف ينضمون إلى الإمامة، وبذلك يكون قد استطاع أن ينشر الأمن في جميع الربوع، دون أن يريق الدماء.

ويظهر أن رأي القائد كان أنسب لهؤلاء الذين طبعوا على العناد، وألفوا الغارات، وتعكير الأمن، وسلب أموال الناس، ولذلك فقد جهز للمرة الثالثة حملة قوية لتأديبهم، وصمم على أن يقضي على الأيدي العابثة، ولما كان ببعض الطريق تفقد الجيش، فلم يجد أبا الحسن الأبدلاني وأبا مرداس، فحبس الجيش ورجع يلتمسهما مخافة أن يكون وقع حدث دون أن يعرف، غضب منه الشيخان، وهو حريص أن يكون عند رضائهما بل إن الأمة كلها كانت حريصة على رضائهما.

أما الشيخان فقد تعبا من المسير، وضعفا عنه لكبر السن فرأيا أن يستريحا قليلا بالطريق، وقصدا " أغرميمان " بتغرمين عند العجوز هذه العجوز العالمة الصالحة التقية، التى قصرت نفسها في مجلس الذكر كما تدل عليه كلمة " أغرميمان " التى تعنى قصر النفس في مجلس الذكر، وأصلها أغرم إيمان.

وفرحت العجوز أم الخطاب بزيارة الشيخين، فذبحت شاة

لضيافتهما، وكانت تناقشهما في مسائل العلم ومعاني العبادة وما لبثا حتى وصل العباس يلهث من التعب ويتساءل في حيرة وارتباك عما أرجعهما عنه،فبادر أبو مرداس يطمئن القائد قائلا : " إنك على الحق لم ننكر عليك شيئاً " وأوضحا له أنهما تعبا وأصبحا لا يطيقان السير العنيف، ومصاولة الأقران، فاطمأن قلبه وقال لهما دعا الحرب لمن يطيقها.

كانت العجوز تستمع إليالحديث الذي يدور بين الأبطال الثلاثة وكانت لم تعرف أنهما رجعا إليها من الجيش، فلما علمت بذلك، وعرفت أن العباس ذاهب إلى قتال العدو، عمدت إلى اللحم وكان قد نضج واستوى، فوضعته في خرج العباس، وقدمت إلى الشيخين المرق قائلة لهما وهى تشير إلى العباس وقد امتطى جواده وانطلق به : هذا الذي يستحق اللحم أما أنتما فيكفيكما الجلبان تعنى العدس وما معه، فابتسم الشيخان في رضا واستحسنا منها هذا السلوك.

أما العباس فقد تعقب الجناة واستمر ينشر الأمن ويقيم العدل ويحافظ على قواعد الإسلام، حتى بلغ كَكَّلَة فأمن الناس وعم الرخاء، وانقطعت أسباب الفتنة.

لقد كان العباس مثل أبية، قوة وشجاعة وإيماناً، لا يرهب بطلا ولا يخشى معركة، ولا تغره دنيا، ولا يدخله الشيطان من باب، يتواضع للمؤمنين حتى تحسب به ضعفاً به ويقسو على العصاة والمجرمين حتى تخال به عنفاً، ولا يتمسك برأيه في عناد وإصرار، ولكنه يستمع النصيحة ويرجع إلى الشورى، ويعمل بما يقول به المخلصون.

أبو ذَرّ أَبَان بن وسيم

نشأ كما ينشأ الفقراء من أبناء العوام، كفاح متواصل في سبيل العيش، وعمل دائب في زراعة الأرض، حتى شب عن سن الدراسة، واستعصى عوده عن حمل المحفظة، وأصبح رجلا من أولئك الرجال الذين لم يتح لهم أن يغترفوا من مناهل العلم العذبة، فنشأ جافاً، وإن كان ذا ذكاء متوقد ونفس حساسة، وعزيمة دونها الفولاذ مضاء.. مرض يوماً فلزم حجرة مع أخيه عبدالله : العالم الفقيه فكان الناس يزورونهما، ينصرفون بأحاديثهم ووجوههم وقلوبهم ومؤاساتهم إلى أبي عبدالله، ولا يلتفتون إلى أبان إلا إذا نهضوا للخروج، فتنطلق منهم كلمة المجاملة : " كيف حالك ياأبان؟"،فيجيبهم ونفسه تكاد تنفجر : " إن عاش أبان جعل للدنيا جزاءها إن شاء الله ".. وعاش أبان، وسلم من هذه المرضة، وشفى من ذلك الداء، وخرج لا ليواصل كفاحه في غرس الأشجار،ورعي الأبقار، وجمع وسائل العيش ؛ ولكنه خرج ليستقبل عملا جديداً، يخجل أكثر الناس أن يقوم به، ويضربون لذلك المثل فيقولون : " بعد ما شاب دخل الكتاب "، خرج ليزيد إلى كفاحه في سبيل حياة الجسم، كفاحاً في سبيل حياة الروح ... كفاحاً أشد، يقتضى صبراً وسهراً، وقوة إرادة، وصدق عزيمة، وبدأ يتعلم ...

بعد أن ينتهى من كفاحه المادي، يذهب إلى علامة زمانه أبي خليل الدركلى، للدراسة، وكان أبو خليل، من أولئك الذين خلقوا بطبعهم للتعليم، وتبليغ رسالة الله، وتوجيه الناس إلى المثل العليا، فلم يكن يقتصر في تعليمه على وقت، أو يقف عند نظام، أو يراعي طبقة، إنه وهب نفسه كلها، ووقته كله للتعليم ؛ يلقي الدروس النظامية على الطبقات النظامية في مدرسته العامرة، في الأوقات المخصصة، ولكنه عند ما يخرج من المدرسة إلى السوق، إلى المسجد، إلى البيت، في الليل أو في النهار، كان لا يكف عن التدريس، ولا ينقطع عن التعليم، ولا ينتظر أن يكثر الطالبون، أو أن تستدير به الحلقة، ولذلك فقد كان نبعاً ثراراً عذباً، يستقى منه أبان في أي وقت أمكنته الفرصة وحضر إليه.

وواظب أبان على هذه الدراسة، وتفتح قلبه وعقله للعلم والفهم، يساعده على ذلك عزيمة صادقة وصبر على المتاعب والمصائب، راض نفسه عليها يوم كان يكافح من أجل الحياة، وإيمان بأن حياة الانسان بدون علم لا تستحق أن تحيا، أو تحسب من العمر، وبلغ في درجات العلم فوق ما أمَّل، وأجازه أستاذه أبو خليل الدركلي، إجازة لم يتحصل عليها أحد من طلابه الأذكياء النجباء، وما كانت تجاز إلا للقليل من الأعلام، الذين يدركون أسرار الشريعة، ويفهمون مقاصدها العميقة، ويفرقون بين الحالات المتشابهة المظاهر، ويعرفون بواعثها، ويتعمقون في دراسة نفسيات الناس، ومدى ارتباط أعمالهم بإيمانهم، فقال له : " افت للناس بالرخص، لكل زمان نذير، وأنت نذير زمانك ". إن الفتوى بالرخصة لا تصح لكل أحد، ولا لكل حالة، ولا تكون قاعدة عامة

تبني عليها الأحوال المتشابهة، ولا يفتى بها كل متعلم، إنها كالدواء الضروري، الذي لا يعطى إلا في حالات خاصة ؛ تراعى فيها جوانب معينة، لا يمكن أن يدركها إلا قلة من العلماء، الذين أوتوا فهما لأسرار الشريعة، وحكمة الفريضة، ومعرفة نفسيات الناس ؛ وكان من هؤلاء الصنف : هذا العلامة الذي درس بعقله، واعتمد على فكره، وبلغ أعلى مراتب علم الشريعة، بفهمه لا بحفظه، فأصبح أعظم مرجع للإسلام، وقدوة للعلماء الأعلام، ولا يخلو كتاب من كتب الإباضية عن آرائه وفتاواه وتحقيقاته، وكثيراً ما تكون تلك الآراء هى خاتمة النقاش، ومحز الخلاف.

لقد كان نافذ البصيرة، حاد الذكاء، عميق الفهم، قوى الحجة، واسع الاطلاع، ولكم وجهت إليه الأسئلة في معضلات المشاكل، فوجدت عنده الجواب السهل القريب، وكان بعض المتعلمين يؤلفون أسئلة فيما يظنونه مستحيلا أو قريباً من المستحيل، ويوجهونها إلى ذلك العلامة، فيجيبهم دون روية أو تفكير ...

قيل له يوماً : كيف المخرج لرجل حلف لإمرأته بالطلاق أن لا يزوج ابنتهما لمن يحبان ؛ ولا لمن يبغضان ؟ وظن السائل أنه وضع بين يدي الشيخ سؤالا معقداً يحتاج إلى تفكير على أقل تقدير، ولكن الشيخ خيب ظن السائل وأجابه على الفور : يزوجها لمن لا يعرفان، واقتنع السائل وسكت.

وقد كان الطلبة كثيراً مايضعون أمثال هذه الأسئلة التى يعتقدون استحالتها أو صعوبتها، ويأملون من وراء ذلك أن يقف

هــذا البحر حائراً مرتبكاً، ولكنه كان فــي كل مرة يخيب ظنهم، ويجد الجواب الشافي دون حيرة أو أرتباك ...

لهجت الألســن بعلمه، وفضلــه، وتقاه، وقــوة إرادته، واتباعه للحق، فهمه للأســرار، وشــدة ذكائــه، وكان الإمام فــي " تاهرت " يبحث عــن مثل هذا الرجل ليوليه أمور المســلمين. إن العلماء والصلحــاء والتقاة كثيرون في ذلك الحــين، ولكن العلم والصلاح وحدهــا لا يكفيان للإختيار؛ إن الذكاء وقــوة الإرادة والصلابة في دين الله، أمور ضرورية لمن يتولي شأن المسلمين.

كان الإمام يبحث عن هــذه العقول النيرة، والقلوب البصيرة، ليحملهــا أمانة الأمــة، ويضع بين يديها تلــك المهمة العظمى. فبحث إليه بعد وفاة العباس بالولاية على جبل " نفوســة ". وما والاه.

إن تولــي أمر المســلمين عنــد أولئك الناس لا يعنــي جاها ولا منصبــا ولا ثروة، ولكن يعنــي تحمل أعباء ثقال، يحاســب عليها الرجــل من ضميره، ومن الإمام، ومن الأمة، ومن الله ؛ ولما جاء أمر الإمــام إلى العالم الكبيــر بالولاية لم يرده ؛ ولكنه قبله في حزن وأســف، ثم أتجه إلــى الخالق الذي بيده المــوت والحياة، وتضرع إليه فــي حرارة : أن لا يطيــل مدة هذه الولايــة، وأن يجعلها لا تتجاوز ســبعة أيام، فإن تجاوزتها فلا تتجاوز سبعة أشهر. وأستجاب الله لدعوة عبده، فلم تتجاوز مدة ولايته ســبعة أشهر. " إن لله رجالا لو أقسمو عليه لا برهم ".

أبو منصور إلياس

مؤمــن عميــق الإيمــان، وبطل لا يهــاب أعباء البطولة، نشــأ في "تَنْدمَّيــرة" في هذه القرية التى كانت ولــم تزل مقراً للعلم والديــن، ومنبعاً للذكاء والخلق المتين، لم تتح له فرصة الدراســة في صغره، وكان في خلقه خشونة وعرامة. وفي بنيته أسر وقوة، وفي طبعه حدة وشدة. لم يهذبه من ذلك في زمن الصغر إرشاد المدرس، ولم تنل منه عصا المؤدب. فشــب صلبــا قويا، ولكنه في هذه الصلابة والعزة كان يجل العلم والعلماء.

كان ذات يوم في " تيجى " في هذه القرية الجميلة الوســنانة، التى تســتلقي في اســترخاء عند أقدام الجبل الشــامخ. تمتص الــزلال العذب مــن منابعه الصافية، وكان ينحــدر الماء إليها من القمم الشماء التى تناطح السحاب في كبرياء. وكانت " تيجى " في ذلك الحين مدينة آهلة بالعلم والعلماء، وكان سعد بن أبي يونس الذي أسندت إليه ولايتها بعد أبيه، يتولي شؤونها، ويرعى أمورهــا، ويقيم فيها كتاب الله، ويشــرف على المدرســة العامرة، التى أسســها أبوه فيهــا، والتى خرجت فيمن خرجــت أبا معيد الجناوني ؛ العالم الزاهد، الذي يقوم مقام أمة.

قلت : إن أبا منصور كان في تيجى لشــأن من الشؤون، فلقي أبا مرداس مهاصر، وكان أبو مرداس حافي القدمين، منهك القوى،

قد أدمى الشجر والحجر قدميه، وكان في سنة قحط وشدة، فرق له أبو منصور، ونزع نعليه فأعطاهما للشيخ، فتقبل الشيخ هذه الهدية، ثم اتجه بقلبه إلى ربه وقال يخاطب أبا منصور - وكان أبو منصور فتى قويا من أهل الجملة - : " نزع الله منك يافتى مالا يرضي، ورد فيك مايرضي". قال أبو منصور يتحدث عن نفسه : " فأحسست حين دعا بما غشيني " فوقع في نفسه التعلق بالمراتب العالية من العلم والعمل.

وهكذا تغير وجه التاريخ بالنسبة إليه، واتجه اتجاها جديدا، حتى بلغ غاية يقصر عنها كثير من العاملين. واشتهر علمه وخلقه ودينه بين الناس. حتى بلغ ذلك، الإمام أبا اليقظان في تاهرت، فعينه واليا على ليبيا، وسار في عمله السيرة التى يعرفها المسلمون : قوة في الحق لا تبلغ الطغيان، وعدل بين الناس يجري على ما أمر به كتاب الله وهدي محمد صلى الله عليه وسلم، وخلق كأخلاق الصحابة، يدفعها الإيمان للعمل، ويقف بها الإيمان عن الانحراف عن سبيل الله، يبلغ في شدته على العصاة والمجرمين والمنحرفين، ما يملأ قلوبهم خشية للحق، ويقف لكلمة حق يسمعها من أي شخص عادي، لا تغلبه نفسه عن الرجوع إلى الحق في أي موقف أو أي مكان. إنه كان صورة ثابتة للفاروق رضى الله عنه، ولو لم يتح له ما أتيح للفاروق : من إقامة دين الله، والمحافظة عليه ...

جاءته رسالة من أحد عماله يطلب فيها إقامة الحد على حاملها، وكان جماعة من العلماء حاضرين ؛ فيهم القاضي عمروس ؛ وقرأ الوالي الحريص على إقامة حدود الله الرسالة،

وفهمها، وبدأ في إقامة الحد.

وفي هذه الأثناء وصل العالم الزاهد أبو الليث 28، فأفسح له المشائخ في المجلس، وطلبوا منه أن يشرف مجلسهم، ولكنه أجابهم - وهو يشير إلى الوالي - حتى أنظر ما يقع هناك، ووصل إلى الوالي وهو يباشر إقامة الحد، فسأله عن عمله هذا ؟ فأخبره الوالي أنه يقيم الحد برسالة وردت إليه من أحد عماله، فقال له : " أمن أجل سواد في قرطاس، تضرب الناس، ياإلياس ؟. " وقرعت كلمة الحق سمع الوالي العظيم، وتمكنت من قلبه، فأوقف يده الضاربة ؛ ووقف موقف التلميذ المذنب أمام المدرس الحازم، وسأله عن رأيه في القضية، فقال الشيخ العالم : تضع الرجل في الحبس، وتبعث بالأمين. فإذا ثبت عليه الحكم أنفذت فيه الحد، وإلا وجب أن تقاصصه من نفسك ؛ وأطاع الوالي، وبعث بالأمين، فثبت عنده أن الرجل مظلوم، وأن الجاني المطلوب لم يحضر، وإنما سلم الرسالة إلى هذا الغافل، ونزل الوالي على حكم الشيخ، وقاصص الرجل من نفسه.

هذا مثل يوضع بين يديك أيها القاريء الكريم، يوضح لك قيمة العلم عندما يقوده الإيمان والحق والدين الصحيح. إن العلماء هم حجة الله في الأرض، يستوي عندهم الحاكم والمحكوم ؛ لا يقع بين أيديهم شأن من شؤون الدولة والأمة حتى يفهموه حق الفهم، ثم يصدرون فيه حكم الله ؛ وما دام هؤلاء العلماء في الأمة، فإن الأمة بخير ؛ فإذا انقلب العلماء إلى أتباع للحاكم، يبررون أعماله، ويساندونها بالفتوى، ويوجبون طاعته على الناس، ويطالبون الشعب بالصبر، ويتلقون ما يقذفه عليهم هذا

الحاكم من أرزاق وعطايا.

إذا انقلب العلماء إلى مهازيل، يسيرون وراء القافلة يَحْدُون ويصفقون، فإن الأمة سوف تنحدر إلى هوة سحيقة العمق، لا يعلم إلا الله قرارها.

لم يكن أبو منصور جبارا ولا طاغية، ولكنه أخطأ بعدم التثبت ؛ وكان بمجلسه جمع من العلماء جاز عليهم هذا الخطأ كما جاز على أبي منصور، فلما عرف الحق رجع إليه، وأقاد من نفسه، وهو موقف رائع، يدعو إلى الإعجاب والتقدير.

إنه موقف الحاكم المسلم، الذي لا يعتز بالأثم بالسلطان، ولا يعتصم بالقوة، ولا يتردد في قبول الحق، مهما كان هذا الحق، وكيفما كان هذا الحق، وعلى من كان، ولمن كان ...

عرف الناس ماعليه أبو منصور من الصلابة في دين الله، فلزموا الجادة. ولكن أبناً لخلف بن السمح، خطر له أن يجدد أمر أبيه، وأن يدعو لنفسه، وأن يعكر الأمن الذي ساد، والسلام الذي انتشر ؛ فطارده أبو منصور حتى ألقى عليه القبض في جربه، وحبسه أياما ثاب من بعدها، وصلح حاله، وأصبح يسمي بعد ذلك " الطيب بن الخبيث بن الطيب ".

حصل بين العباس بن أحمد بن طولون وبين أبيه نفور وسوء تفاهم، فانتهز العباس غياب أبيه عن مركز الدولة في القاهرة، وأخذ ما فى خزائن الدولة 29من الذهب، ويقدرها بعض المؤرخين بحمل ثمانمائة حمل من الدنانير الذهبية، وجهز جيشا واتجه إلى المغرب.

كان ينوي أن يحتل هذه البلاد الواسعة الغنية، التى تقع ما بين الإسكندرية والمحيط الأطلسي، ويكون فيها دولة مستقلة مركزها القيروان -عاصمة الأغالبة في ذلك الحين – وسار بجيشه الذي زحف على برقة زحف الجراد.

فلما وصل إلى طرابلس حاربه عامل الأغالبة فيها " ابن قهرب " ولكنه انهزم وتحصن في المدينة، ولما وصل إلى " لبده " خرج إليه عاملها وأهلها وأكرموه، ولكنه لم يرع حق هذا الإكرام، فأمر بنهبها فنهبت على حين غرة، وقتل رجالها وانتهكت حرماتها. قال الزاوي : " وقد امتدت يد جند ابن طولون إلى البوادي الذين يسكنون خارج المدينة، وكانوا من البربر الإباضية، ومن أتباع إلياس أبي منصور النفوسي : صاحب جبل نفوسة، ونالوا من حرماتهم وأموالهم فاستغاثوا به من جيش بن طولون

وقد كتب إليه ابن طولون حينما كان يحاصر طرابلس : " أن أقبل بسمعك وطاعتك، وإلا وطئت بلدك بخيلي ورجلي، وأبحت حرماتك " فرد عليه إلياس : " أما أنك أقرب الكفار مني، وأحقهم بمجاهدتي، فقد بلغني من قبيح أفعالك ما لا يسعنى التخلف معه عن جهادك، وأنا على أثر رسالتى إليك " وجهز جيشا من اثنى عشر ألف مقاتل، والتقى بابن طولون في قصر حاتم سنة 267، فانهزم ابن طولون، وتشتت شمله، واستبيحت أمواله، وأخذ أهل طرابلس كل ما معه من مؤن وعتاد، ولم يأخذ البربر شيئا من الغنائم، لأنهم يرون حرمة أموال الباغين من الموحدين، ولا يستبيحون دماءهم ماداموا محاربين لهم، ولايستبيحونها في حال السلم .

ووصل ابن الأغلب إلى طرابلس بعد أن تمت المعركة وانهزم ابن طولون، ورجع أبو منصور إلى مركز حكمه.

وصل ابن الأغلب كما تصل الغربان، يبحث عن الدنانير التى عف عنها أبو منصور، ويلتقطها من الناس، حتى أن الجندي كان يبيع دنانير ابن طولون سراً بأي ثمن، خوفا من وجودها عنده.

في هذه الحادثة التاريخية يلتقي ثلاثة قواد من قادة الأمة الإسلامية : هم العباس ابن احمد بن طولون، وابراهيم بن احمد بن الأغلب، وأبو منصور إلياس ...

وفي إمكانك أيها القارئ الكريم أن تقارن بين هؤلاء الرجال، وأن تعرف أيهم كان يتبع في جميع تصرفاته هدى الإسلام، وأيهم كان يتبع هواه، ويسير في سبيل الشيطان ؟

أيهم كان يمثل الإسلام حق تمثيل ؟ وأيهم كان لا يبالى بدين ؟ ولا يقف عند حدود الله ؟ ... هذا فتى يجد غرة من أبيه السلطان فيسرق خزائن الدولة، لأنه يتعجل الوصول إلى الحكم، ثم يكون جيشا ويتجه إلى المغرب، يقتل الأنفس البريئة، وينتهك الحرمات المصانة، ويجازى من أحسن إليه شر الجزاء، ويهدد مسالما لم يتعرض له فيقول : " أقدم بسمعك وطاعتك، وإلا وطئت بلدك بخيلي ورجلي، وأبحت حرمك ".

ما مقدار إيمان هذا الرجل الذي يسرق خزانة الدولة، ثم يتوغل في بلاد المسلمين : يقتل ويسلب ويغنم، وينتهك الحرم، ولا يقف عند هذا الحد العملي، بل يتجاوزه إلى أن يسند لنفسه التشريع، فيقول لمؤمن عصم الإسلام ماله ودمه وحرمه : " وأبحت حرمك "

إن الذي بيده الإباحة والتحريم، إنما هو خالق الخلق، وليس لغيره أن ينزل ديناً على حسب هواه، يحلل ويحرم.

إن الرجل الذي يستحل ما حرم الله، ثم ينسب ذلك إلى نفسه في غرور ووقاحة وتبجح، لا يخشى أمر الله، ولا يستحي من مخالفة دينه وأمره، ليبعد عن الإسلام !

وضع إلى جانب هذا الموقف الظالم الخارج عن حدود الله، موقف خصمه، هذا الخصم الذي اعتدى عليه في مقره، وهدد بإباحة حرمه، وبأن تطأ الخيل بلاده ؛ وطولب أن يقدم السمع والطاعة لفتى مغرور، أقل ما يوصف به عقوق الوالدين.

لقد ثار ! ... وأي حر لا يثور ؟ ... ولاقى الطاغي الجبار في قصر حاتم ... وكانت المعركة.. وشاءت إرادة الله أن ينتصر الحق والشهامة والمروءة ! ... وأن ينهزم الطغيان المتكبر الجحود ! ... فماذا كان من المنتصر ؟.. ما هو موقف أبي منصور إلياس ؟.. هل ذبح الأسرى ؟. هل قطع الرؤوس ؟ هل انتهك الحرمات ؟ : حرمات المحاربين، أو حرمات المسالمين، هل أطلق أيدي الجند للغنيمة ؟ هل جمع الأموال ليستأجر بها المرتزقة ؟ أو ليبني بها القصور ؟ أو ليكدسها في بيت المال ؟ هل جمع الذهب الذي يتناثر في المعركة كما يتناثر الحصا ؟ إن وقر ثمانمائة حمل تنتشر هناك ؟ ! ... ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك !..

وعند ما ولَّى العدو منهزماً، وركب ابن طولون فرسه هارباً، أوقف أبو منصور رحا القتال، ثم أمر جيشه بالرجوع، هذا الجيش الذي يقاتل في سبيل الله، لا يأخذ من الدولة مرتباً، ولا من

ساحات القتال غنيمة. ورجع أبو منصور بجيشه المظفر، بريئاً من الإنتقام، بريئاً من الظلم، بريئاً من العدوان، نظيفاً من الدماء المسالمة، نظيفاً من الحرمات، نظيفاً من جميع الأموال ! ... أموال المسالمين، وأموال المعتدين، إنه لم يأخذ من هذا الذهب المتناثر في ميدان المعركة قطعة واحدة يحتفظ بها للذكرى، أو يجعلها في دور الآثار ...

وجاء الطامعون، بعد ما خلا الميدان من المنهزمين والمنتصرين، يتخاطفون ما عف عنه أولئك الأبطال المؤمنون، الذين يعرفون أين يقفون من حدود الله ...ووصل القائد الثالث، الذي كانت الحملة الطولونية موجهة إليه، وصل بعد أن انتهى كل شيء، فماذا فعل ابن الأغلب ؟.. إنه رجع إلى أشلاء المعركة، يجمع بقية الأسلاب، ويطارد الناس الذين غنموا من غير جهد، فينتزع منهم ما أخذوه، ويفتش الأفراد والجماعات، ليتحصل على هذا الذهب، الذي فرطت فيه خزائن القاهرة، حتى كان الرجل يبيع ما معه من دنانير ابن طولون بأي ثمن، ليتخلص منها، مخافة أن يجدها عنده أعوان الطاغية الثاني.

وسار التاريخ، لا يلتفت، وفنى الذهب الذي سرقه ابن طولون من خزائن أبيه ليبني به عرشاً، فنثره أبو منصور النفوسي في ميدان المعركة، وفنى ابن الأغلب، رغم هذه الدنانير التى كان يفتش عنها بدقة، ويجمعها بحرص، وفنى أبو منصور أيضاً، كما يفنى جميع الناس، ولكن هذ المثل الرائع، الذي ضربه للحكام، وهذه السيرة العطرة التى سار بها بين العدو والصديق، وهذا الخلق الكريم الذي اقتبسه من أخلاق النبوءة، وهذا الدين القويم،

الذي يعصمه من الخطأ والزلل، هذه الصفات وما إليها، بقيت خالدة مع الإنسان، توحى بالعبرة والذكرى لكل من يتولي أمر أمة.

إن الشهامة التى يتصف بها أبو منصور، والعبرة التى تركها للأجيال، والقدوة الحسنة التى خلقها لقواد الجيوش ؛ أغلى من ملء الدنيا ذهباً، وما عند الله خير وأبقي ! ...

الزاوي وأبو منصور

كتب الأستاذ الطاهر الزاوي عن مجيء العباس ابن طولون إلى طرابلس، وملاقاة أبي منصور النفوسي له، ورغم أن الأستاذ الزاوي في هذا الموضوع لا يجد مفراً من ذكر حقائق التاريخ، إلا ان قضية العنصرية لا تزال تشغل فكره، وتستحوذ على قلمه، يقول في كتابه " تاريخ الفتح العربي في ليبيا " صفحة 152 وهو يتحدث عن أبي منصور : " وأخذ أهل طرابلس كل ما معه من مؤن وعتاد – أي مع ابن طولون – ولم يأخذ البربر شيئاً من الغنائم لأنهم يرون حرمة أموال الباغين من الموحدين ". لست أدرى لم يحشر كلمة البربر في هذا الموضوع ؟ وهم قبائل متعددة في ذلك الحين، وفيهم صفرية يستحلون دماء وأموال الموحدين، وفيهم مرتزقة مع مرتزقة العرب 33 التى يتكون منها جيش الأغالبة على رأي الأستاذ الزاوي نفسه. ليس الموضوع موضوع عرب وبربر، ولكنه موضوع إيمان ودين ... إن أبا منصور وجيشه لم يتورع عن غنم أموال المسلمين لأنهم بربر، ولكنهم تورعوا عنها لأن الإسلام قد صان أموال المسلمين، فلم يبحها إلا بشروط معينة، وأبو منصور وأتباعه، يقفون عند حدود الإسلام : قاتلوا المعتدين، فلما انهزموا عفوا عن دمائهم وأموالهم ؛ لأن الإسلام يأمرهم برد العدوان، ويحرم عليهم أموال الموحدين، ويظهر أن

للأستاذ الزاوي رأيا غير رأي أبي منصور ورأي الإباضية ورأي الإسلام في قضية الأموال والغنائم، وفى الصورة الآتية تتضح لك معاني ربما لم تتضح من تعبيره في الجمل السابقة : -

كتب الأستاذ الزاوي عن أبي منصور في كتابه " أعلام ليبيا " ولعله مما يهم القارئ الكريم أن أنقل إليه هذه المقتطفات من هذا الكتاب القيم : قال الأستاذ الزاوي : " ومن أظرف ما وقع، أن الإباضية لم يأخذوا من هذه الغنائم شيئاً، لأنهم يرون حرمة أموال الباغين من الموحدين، ويستبيحون دماءهم ما داموا محاربين لهم، ولا يستبيحونها في حال السلم، مع أن إلياس كتب إلى ابن طولون رسالة قال فيها : أما أنك أقرب الكفار منى ... الخ، وكثيراً ما يريد الإباضية بالكفر، كفر النعمة. "

قرأت هذا الكلام، وأنا أعجب لهذا المسلم الذي لم يجد ما يعلق به على هذه الحادثة التاريخية الهامة إلا قوله : ومن أظرف ما وقع ... الخ، ماذا يقول الزاوي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عندما انتصر في وقعة الجمل ولم يغنم الأموال ؟...

أيرى أن ذلك شيئاً ظريفاً ؟ وهل عادت أحكام الإسلام من التفاهة في نظر المؤرخين، بحيث يحكم عليها بالأحكام التى نطلقها على بيت من الشعر أو قطعة من الأدب ؟!.

ما وقع الظرافة في هذه القصة يا ترى ؟ أأن وقف المؤمن الورع حيث يقف به الإسلام، لا يظلم ولا يبغى ؟ إن هذا ليس فيه ظرافة ... إنه حق، وعدل، ودين ... وقف عنده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ووقف عنده أبو منصور إلياس، هذا الرجل الذي لم

تنتكس له راية، ولم ينهزم في موقعة ولم يلوث يديه بدم برئ، ولم يملأ جيبه بمال حرام، وأمثال هؤلاء الأبطال يجب أن يكونوا قدوة لولاة أمور المسلمين.

ويقول الزاوي : " الإباضية يرون حرمة أموال الباغين من الموحدين " فهل يرى حضرة الأستاذ الكبير غير هذا الرأي ؟ أليس هذا هو حكم الإسلام ؟ ألم تعصم كلمة الشهادة دماء المسلمين وأموالهم إلا بحقها ؟ أم يرى أن الأباضية أخطأوا سبيل الإسلام، حيث لم يرتكبوا من الفواحش ما يرتكبه أولئك الذين اتخذوا الحروب ذريعة للغنيمة، ووسيلة لكسب المال.

ولم يجد الأستاذ الزاوي شيئاً يلمز به هذا البطل العظيم في جميع أعماله وسيرته، فأورد الكلمة التالية : " مع أن إلياس كتب إلى ابن طولون رسالة قال فيها : " أما أنك أقرب الكفار منى ... الخ. وكثيراً ما يريد الإباضية بالكفر كفر النعمة."

وما دام الأستاذ الكبير يعرف أن كلمة الكفر قصد بها كفر النعمة في استعمال أبي منصور، فما وجه إيرادها ؟. أم أن الأستاذ الزاوي يرى أن ابن طولون وهو يسرق خزانة الدولة، ويقتل الأبرياء، ويغتصب الأموال، وينتهك الحرمات، إنما يقوم بأعمال البر والإحسان ...

ثم لماذا لم يذكر أن هذه الرسالة كانت جواباً لرسالة من ابن طولون يقول فيها لأبي منصور " أقبل بسمعك وطاعتك، وإلا وطئت بلادك بخيلي ورجلي، وأبحت حرمك " ؟ وأيهما أكبر في نظر الأستاذ الزاوي : إطلاق كلمة الكفر على رجل يرتكب من

الفواحش ما يندى له وبين الإنسانية، وينسب تشريعاً يخالف تشريع الله : فيحلل ويحرم حسب الهوى ؟ أم هذا الموقف المتجرد من الدين والخلق، المحاد لأحكام الله، الزائغ عن طريق المؤمنين ؟ ...

إن الحق أحق أن يتبع، وهو لا يخفى على الأستاذ الزاوي، ولكن شيئاً في صدره يحيد به عن منهج الصواب، ويجعله يسلك طرقاً ملتوية، وهو يتصدى لكتابة التاريخ.. وليت الأستاذ الزاوي ضرب مثلا أعلى في النزاهة للشباب المسلم الذي نرجو أن يرتفع عن دنايا النفوس المريضة، ويرجع إلى الحق الذي جاء به الإسلام، ويستمسك بهدى العدول من أبناء أمة محمد صلى الله عليه وسلم، لا تؤثر عليه طائفية، ولا تميل به عنصرية، ولا يقدس إلا ما قدمته شريعة الله ...

أفلح بن العباس

بطل آخر من أبطال الكفاح، الكفاح بأوسع معانية، كفاح النفس والهوى ... وكفاح الظلم والباطل ... وكفاح الباطل من أي طريق جاء ... وثقت فيه الأمة ... ووثق فيه الإمام، فاسند إليه الإمامة على ليبيا ... وسار على النهج الذي سار عليه أسلافه : أبان، وأبو عبيدة، والسمح، وآباؤه : العباس وأيوب.

تواضعٌ للمؤمنين يكاد يكون ذلك ... وقوة على العصاة والمجرمين تصل إلى درجة الحدة ... وحمل للناس على السير في السبيل الواضحة، وقيام بأمور المسلمين ومهامهم دون تفريط في قليل أو كثير، وحب يشمل جميع : المسلمين.. وشورى تقف حيث يريدها خيار الأمة، وتتجه أنى يطلبون فلا يقطع أمراً دون رأيهم، ولا يصر على عمل وهم له كارهون، ولا يقف عن أمرهم فيه راغبون. ولعل موقفه هذا يتجلى في الموقعة التاريخية المشهورة، التى حطمت فيها سيوف نفوسه ... وقعة مانو.. جهَّز إبراهيم بن أحمد بن الأغلب جيشاً عظيما من تونس يريد به غزو مصر، ولما وصل إلى رقاده، أقام بها مدة يستكمل عدته، ثم أتجه إلى مصر يريد حرب ابن طولون ... وطريق هذا الجيش يمر بليبيا، وليبيا إباضية المذهب، تابعة للدولة الرستمية، ماعدا طرابلس العاصمة والبحر - حسب المعاهدة التى وقعت بين

عبدالوهاب الرستمي وعبدالله ابن الأغلب، وكان الوالي على ليبيا حينئذ هذا البطل الذي تتحدث عنه.. إنه أفلح بن العباس بن أيوب، وكانت شواطئ البحر والسهول الممتدة بين طرابلس والجبل مملوءة بالسكان، عامرة بالقرى والدساكر، وكان هؤلاء كلهم من الإباضية الذين يرجعون إلى أفلح ...

ولما سمعت نفوسة في الجبل بعزم ابن الأغلب على محاربة ابن طولون في أراضيهم، وأرادوا منعه من المرور، ووقع خلاف بين أهل الرأي والمشورة، فكانت الأكثرية تريد الوقوف في وجه هذا الغازي الظلوم، وكان بعض أهل الرأي يفضل عدم التعرض له ما لم يكن قصده محاربة الإباضية في ليبيا، وكان على رأس أصحاب هذا الرأي الوالي أفلح بن العباس، وعامل قنطرارة سعد بن أبي يونس. ولكن أهل الشورى والغالبية الكبرى من الأمة كانت ترى وجوب رده عن المرور في أراضيهم، وعدم السماح له بالاجتياز، وخضع الوالي الشجاع لرأي الأغلبية، واستجاب لمطلبهم، وجهز الجيش وقاده، حتى التقى بعسكر ابن الأغلب في قصر " مانو " على ساحل البحر، قرب قابس.

والتحم الجيشان، ووقعت معركة ندر أن يقع مثلها في التاريخ، وكثر القتل في جيش أفلح، وخاف أن يضعف إخوانه، فأمر حامل الرأية أن يركزها في الأرض حتى تثبت، ولا تحدث أحداً من أصحابه نفسه بالتخلى عنها، وحاول حامل الرأية أن يمتنع عن هذا العمل الخطير الذي كان حريا أن يقضي على الجميع، ولكن الوالي البطل أصر على أمره، وركزت الراية في الأرض، واستمرت الحرب، وكانت الرؤوس تتساقط من حولها حتى كاد

يفنى الجيش ولا يبقي منه أحد، وحينئذ تشجع أحد العقلاء الذين أيقنوا بالهزيمة، وعلموا أن الدفاع عن هذه الراية المثبتة يعني انتحاراً جماعيا، فضرب الراية وأسقطها وتفرقت البقية القليلة التى سلمت – وهم عدد قليل. وكان الوالي فيمن نجا، فرجع إلى مركز حكمه في الجبل، ورغم أن الوالي كان معارضاً لفكرة هذه الحرب، وأنه ما قادها إلا مكرها، رغم ذلك وجد بقية المشايخ قد استاءوا منه، وتشاءموا من ولايته، وحملوه مسئولية الهزيمة، واتفقوا على عزله، وولوا عليهم ابن عم له ... وآلمه هذا الموقف من إخوانه، وحز في نفسه، وفكر في أن يستمسك بالولاية، فاستشار العلامة أبا معروف حاكم شروس، فاقتنعه أبو معروف بضرورة الموافقة، والخضوع لرغبة المشائخ ؛ مادامت هذه الولاية ليست أمراً دنيويا، يطلب منها العلو في الأرض، وجمع الثروة والمال ؛ فرضى بحكمهم، ووافق على رأيهم..

ولكن ما لبث المشائخ إلا قليلا حتى أدركوا خطأهم، وعجز الوالي الجديد عن القيام بمهامهم، فعزلوه، ورجعوا إلى أفلح يطلبون منه أن يتولي أمرهم من جديد.. وفكر هذا البطل المؤمن أن يمتنع عن قبول هذا العرض، ويرفض الولاية التى نزعت عنه أمس دون سبب، ولكنه نظر إلى مصلحة الأمة، واستعرض حالة البلاد، فوجد أن المؤمنين الأقوياء في دينهم، وعلمهم، وخلقهم، قد أكلتهم الحرب في وقعة " مانو " ولم يبق إلا شيوخ يقعد بهم ضعف الشيخوخة عن تحمل هذه الأعباء الثقال، أو رجال ليس لهم من العلم والكفاءة ما يؤهلهم لشغل هذا المنصب الخطير، ولذلك فقد أنتصر على نفسه مرة ثانية، فرضى بما عرضه عليه

أهل وطنه، وقبل الولاية، وسار بهم سيرة السلف الصالحين ...

رحم الله تلك النفوس المؤمنة، التى تدور مع الحق حيث دار ...

لم أعترض الإباضية طريق إبن الأغلب

لكي تعرف السبب الذي حمل الإباضية في ليبيا أن تمنع ابن الأغلب من المرور في أراضيها بجيشه اللجب، يجب أن نذكر حقيقتين تاريخيتين :

الأولى تتعلق بتاريخ مضى، وتلك هى محاولة ابن طولون المرور في أرض ليبيا، فإن هذا الجيش الذي لا يخاف الله ولا يتقيه، عندما كان في ليبيا ارتكب من الفظائع ماتقشعر له أبدان المؤمنين، ولم تسلم منه القرى الوادعة، ولا الأحياء الضاربة بأنعامها وسط البراري، تنتجع الماء والمرعى، ولذلك فما سمع الناس بتكون جيش آخر بزمن المرور بأراضيهم،حتى كثر اللغط حول الموضوع، وبدأوا يفكرون في الفرار بأموالهم، وأعراضهم، ودينهم، عن هذه الجيوش المخربة، وعلى أثر هذه الحركة تكونت فكرة معارضة هذا الجيش ورده قبل أن يدخل البلاد ...

أما الحقيقة الثانية فهي تتعلق بإبراهيم بن أحمد بن الأغلب نفسه، وأرانى مضطرا أن أضع للقارىء الكريم صورة صغيرة عنه، ليدرك شيئاً من طبعه وخلقه، ويعرف بعضاً من دينه وسيرته وعمله، ويفهم السبب الذي حمل الإباضية في ليبيا ولا سيما

نفوسة على معارضته، ومحاولة منعه من الدخول إلى البلاد ... يقول الأستاذ الزاوي في كتابه " تاريخ الفتح العربي في ليبيا " صفحة 151 : " ولكن الناس طالبوا بإمارة إبراهيم بن الأغلب، لما عرفوه فيه من الحزم وحسن السيرة ".

وينقل الأستاذ الزاوي بعد ذلك وفي نفس الكتاب صوراً رائعة من هذه السيرة الحسنة التى يتصف بها إبراهيم بن الأغلب، فاستمع إليه إيها القارئ الكريم35.. يقول الزاوي :

" فسار إلى طرابلس – أي بعد وقعة " مانو " التى انتصر فيها على الإباضية – وكان بها ابن عمه أبو العباس محمد بن زيادة الله بن الأغلب فقتله. "

" وسار إبراهيم في جيشه من طرابلس إلى تاورغه، وهناك قتل خمسة عشر رجلا وأمر بطبح رؤوسهم، وأظهر أنه يريد أكلها هو ومن معه ".

" فكان يكثر القتل في أقاربه وأبنائه وإخواته وخدمه وأنصاره، فقد قتل إبنه بين يديه صبراً وقتل ثمانية إخوة له : ضربت أعناقهم بين يديه، "وأخفت عنه أمه بنات له، حتى رأت منه ذات يوم انشراحاً فأزادات أن تزيده مسرة فأخبرته عنهن، وقدمتهن إليه، وما خرجت بهن حتى أمر بقتلهن جميعاً، وكن ست عشرة بنتاً كالأقمار. "

هذه سيرة الرجل، وهذا دينه وخلقه وعمله، وعندما يكون أمثال هذا الوحش على رأس جيش من المرتزقة، يخضعون له كل الخضوع، ولا هم لهم من الحرب إلا الغنيمة والمتعة، ثم يمر

هـذا القطيع من الوحـش المتعطش على بلد مـن البلدان، فإن الآثـار التـى يتركها لن تكـون إلا الخراب والدمـار. وكان الإباضية في ليبيا وفي نفوسـة على الأخص يعرفون هذا الرجل، ويعرفون سـيرته وسـيرة جيشه الذي لم يهذبه الإسـلام، ولم يحترم في يوم من الأيام الحرم التى صانها الدين، وحفظها الخلق، وقدستها الإنسـانية. كانوا يخشون من هذا الجيش المرتزق الذي يقوده رجل مجنون أن يبسـط يده بالأذى والخراب في كل مكان يمر به، ولذلك أرادوا منعـه والوقوف في وجهه ... إنه موجة عارمة من الحيوانية التـى لا يتحكم فيها خلق ولا دين ولا ضمير ولا حياء ! ... فلم لا يحاول كل عاقل أن يبعد هذا الخطر عن وطنه وأمته ؟ ...

حاول الإباضية أن يقفوا في وجه هذا الفسـاد، ولكن الله أراد غيـر ذلك فقتل من قتل من أبطال الإباضية، وانتصر ابن الأغلب، انتصر هـذا الوحش الـذي وجد ناسـاً يأتمرون بأمـره، ويخضعون لسـلطانه، ومر على البلاد كما يمر الوباء، لا يسلم منه قريب ولا بعيـد، لأنه لا يرى حرمـة للنفس ولا للمـال ولا للعرض.. لا يقف عند حدود شـريعة أو دين.. وحسبك وحشية وشراً من رجل يقتل أبنـاءه صبـراً، ويقطـع رؤوس بناتـه دون أن يرتكبن إثمـا، ويطبخ رؤوسـا بشرية ليجهز منها عشاء له ولجند... إنه عمل لم يرتكبه المتوحشـون من بني آدم منذ أقدم العصور ... فهل أخطأ أولئك الذين دعوا إلى الوقوف في وجهه، وحبسه في مكانه، كما تحبس الأوبئة الفتاكة المعدية ؟ ...

لا ريب أنهم كانوا على حق ! ...

عَمْرُوسٌ بن فتح المسَاكني

قمة شـامخة من قمم العلم، يندر أن تجـد له مثيلا، ومؤمن مخلص في إيمانه، فهم حقيقة الإسـلام وأسرار تشريعه، وبطل مـن أبطال الكفـاح، يتضاءل أمامه الأقران، ويسـوق الجموع في الميـدان كما تسـاق القطعان،يملك إرادة بلغت مـن القوة مرتبة تذلل الصعاب، وتسهل العقاب، وتيسر الأسباب.

نشأ في " قطرس " : هذه القرية الجاثمة على ضفة وادي تاله العميق من أرض الرحيبات، وفيها درس وبلغ هذه المرتبة السامقة مـن العلـم، ولقـد كان – علـى هذا البعـد عن مركـز الاتصال والحركة – يسـتورد نفائس الكتب وغرائبها من كل مكان، وتصل إليه فيدرسـها دراسة المتعمق الفاهم، في أقل الأوقات ؛ وعندما يحـس بالتعـب أو السـآمة كانـت أخته تتولـي عنه القـراءة أو الكتابة أو النقاش.. وكم شـهد بناء ذلك المنزل العامر من نقاش واع لمشاكل العلم والاجتماع، يدور بين ابنة فتح وأخيها، بين هذه الصبية الحسـناء الذكية المثقفة التى تمثل المرأة المسـلمة حتى التمثيل، وبين أخيها الذي كان حجة من حجج العلم.

ويطـول النقـاش بـين الأخوين العالمـين حتى تقتنـع بصحة رأيـة فتسـلم أو يقتنـع بوجاهة نظرهـا فيرجع إليهـا، وعندئذ يسـتمران في الدراسة أو يسـتمر عمروس في التحرير والكتابة،

بمساعدة هذه الأخت الفاضلة العالمة، التى تهيئ لأخيها العالم المصادر، وتنسق له العمل، وتعد له ما يحتاج إليه ما أداة العلم : الكتاب،أو القلم، أو الورق، أو الدواة، وقد تتولي عنه إنجاز العمل إذا كان ذلك في إمكانها ...

ولقد بلغت هذه الصبية هذا المبلغ من العلم دون أن تمزق الحجاب، وأن تسعى بين الرجال عارية الصدر مكشوفة الراس ؛ إن محافظتها على المظهر المحتشم لم يمنعها أن تبلغ مالم تبلغه كثير من بنات اليوم، السافرات المتخلعات،الخبيرات بالحركات والغمزات ...

مر بقطرس – القرية التى أنجبت عمروس – العالم المحدث الفقيه " بشر بن غانم " يحمل معه مدونته، واستقبله عمروس استقبال الأخ المسلم لأخيه المسلم، وعندما أراد الرحيل ترك المدونة وديعة عند القاضي الأمين، حتى يعود ...

لم يخطر للقاضي أن يستأذن المؤلف في استنساخها، ولكنه فكر في نفسه ورأي أنه إذا لم يغتنم هذه الفرصة فإن هذه الثروة العلمية سوف تفلت من يديه، واستعد للعمل. أحضرت له أخته ما يحتاج إليه من ورق وقلم ومداد، وكانت تملى عليه وهو يكتب في فناء الدار، حتى إذا وصلتها الشمس تحولا إلى الظل، ولم يمض عليهما وقت طويل حتى أتما نسخها، ورجع صاحب الوديعة " بشر ابن غانم " يطلب وديعته فأرجعها إليه عمروس، ولكن بشراً كان يتوقع هذا العمل من عمروس، ولذلك فما تصفحها حتى ظهرت له آثار النقل، في قطرات المداد، واستعمال الصحائف،

فقال لعمروس وهو يبتسم : لقد سرقتها، وأجاب القاض يوهو جذلان : سمى سارق العلم.

أخذ العالم الكبير بشر بن غانم الخراسانى مدونته وارتحل إلى المغرب، وقصد عاصمة الإمامة في " تيهرت " ؛ وزين مكتبتها "المعصومة " الشهيرة بكتاب قيم جديد، هو مدونة أبي غانم، وكانت " المعصومة " من أعظم المكتبات الإسلامية، حوت أقيم الكتب وأندرها.

وعندما استولي الحجانى مولى عبيدالله الشيعي على تاهرت، أحرق المعصومة بما فيها من نوادر الكتب ونفائسها، واحترقت مدونة أبي غانم فيما احترق. ولو لا حرص عمروس وخدمته للعلم وجده في تحصيله، لخسر العالم الإسلامي كنزاً نفيساً من كنوز الشريعة الإسلامية، كما خسر من قبل ديوان جابر حين أحرقت مكتبة بغداد.

كان عمروس من أكبر أئمة العلم والدين، وله أقوال انفرد بها، وحسب من أجلها إماماً. ألف في علم الكلام وفي الفقه، ولايخلو موضوع في علوم الشريعة من آرائه وأقواله. وقد وضع تصميما لتأليف موسوعة علمية على طريقة حديثة في ذلك الحين، فيبين فيها الأحكام التى استخرجت من الإجماع، والأحكام التى استخرجت من القياس، ولكن المنية أعجلته عن إنجاز هذا العمل العظيم.

بعث إليه العلامة عبد الخالق الفزاني أن يؤلف له كتابا في الأصول، فبعث إليه كتابه المعروف بالعمروسى، ودرسه العالم

الكبير، وكان قليل النظراء، فاعترف في صراحة المؤمن وصدقه بأن صاحب هذا الكتاب أغزر مادة منه فقال : " النفوسي أقوى مني " 37وكانت للفزاني كتب قيمة في هذا الفن، ولكن الاعتراف بالحق، والابتعاد عن الغرور، كانت من الصفات التى يتحلى بها أولئك السلف الصالحون.

حج في جماعة من أهل الجبل، وحضر مجلساً للإمام الكبير محمد بن محبوب رحمه الله، وهو عمدة المذهب وإمامه حينئذ، فوجه إليه عمروس سؤالا، فقال الإمام : إذا كان أبو حفص في شئ من هذا البلد فهذا السؤال منه، ثم أجاب عن السؤال، وتعارف العالمان الكبيران، ووقف عمروس موقف الطالب النجيب من المدرس البارع، فكان يسأل وكان الإمام يجيب، حتى قال له الإمام : هذا من مكنون العلم، ولا يصح النقاش فيه بحضور العوام.

وكان إلى علمه وذكائه وسرعة بديهته لا يخشى أحداً في الحق. سأله رجل بمحضر أبي مهاصر : عمن أخذ من مال ابن طولون خرجا فتاب ولم يعلم له صاحباً. فأجاب القاضي العالم : تسأل عن صاحبه، فإن أعياك أمره فتصدق به. فغضب أبو مهاصر وقال : لا أقعد في مجلس يفتى فيه بمثل هذا.

قال عمروس : إن شئت أن تقعد فاقعد، فإن من شأن المسلمين أن لا يؤيسوا أحداً من رحمة الله ...

لقد كان أبو مهاصر شديداً، وهو يرى أنه يلزم صاحب الخرج أن يبعث عن صاحبه أو ورثته مهما كلفه الأمر، ولن يبرئه من

التباعة غير ذلك.

أما عمروس فقد كان أعمق فهما لأسرار الشريعة وروح الإسلام، والعمل بمقتضاه، وقد أصبح قول عمروس هو القول المعمول به في الأحوال المشابهة.

دعاه أبو منصور إلياس، وعرض عليه القضاء.

ومَنْ غير عمروس يمكن أن يلي القضاء لأبي منصور، إنهما نسخة مكررة من طبعة واحدة ؛ في الإيمان، والنزاهة، وقوة الإرادة، والشجاعة، وليس بينهما فرق في غير غزارة العلم. هذه الغزارة التى يتحلى بها عمروس : العالم الذكي الذي انقطع للدراسة منذ صغره. بينما رجع إليها أبو منصور بعد أن صلب عوده واشتد ساعده، ونضجت رجولته. فقال عمروس : " إن لم تأذن لي في قتل مانع الحق، والطاعن في الدين، والدال على عورات المسلمين فخذ عني قمطرك وخاتمك " واستجاب الوالى لشروط العالم، وتولي عمروس القضاء، وسار فيه سيرة المؤمنين الأمناء، الذين يحافظون على حقوق الناس، ويخشون الله في عباده ويتقونه، وكان شديداً على الظالم، قوياً عليه حتى يأخذ الحق منه.

اختصم إليه رجلان في مجلس الحكم بمحضر أبي منصور، وجمع كبير من المشائخ، فأدلى المدعي بالحجة، فاسترده المدعي عليه الجواب فسكت، وأعاد فسكت، ثم أعاد، فبقي المدعى ساكتاً ولم يقل شيئاً، فاستبان للقاضي لدد الرجل في الخصومة، فقام إليه فركله برجله، فقال الجلساء للقاضي : عجلت على الرجل.

فالتفت القاضي الذكي إليهم، وجمع أصابع يده وقال لهم

: كم هذه ؟ فأجابوه : تلك خمسة !.. وتبسم القاضي وقال لهم : لقد عجلتم، لماذا لم تبدأوا العدا من الواحد ؟ ... إن الحق إذا استبان، واتضحت براهينه لا يحتاج إلى الاطالة وتضييع الوقت وتعطيل الحقوق.

جاء قوم إلى أبي منصور يذكرون له : أن قطاع طرق غالبوهم على عير لهم ولما ذهب الوالي إلى محل العير، وجد كل فريق من القوم يدعى أن العير له، وأن الفرقة الثانية هم قاطعوا الطريق، فحار وبعث إلى القاضي.

جاء عمروس، فأبعد الطائفتين عن العير، ثم فتش أمتعتهما حتى عرف أسرارها ودخائلها، وعندئذ انفرد بكل من الفرقتين يسألهم عما في متاعهم،حتى استبان الفرقة التى تعرف كل شئ في العير، والفرقة التى لا تعرف إلا الظاهر فقط، وجاء بهم إلى الوالي وقال له – وهو يشير إلى أصحاب العير : هؤلاء أصحاب الرفقة، ثم أشار إلى الغاصبين وقال لأبي منصور : وهؤلاء أضيافك، يكنى بذلك عما يجب من حبسهم، والتنكيل بهم.

قلت في صدر هذا الحديث : إن عمروسا كان شجاعاً بطلا في ميدان الحرب كما كان عادلاً في ميدان القضاء، وذكياً في حل المشاكل، وقوياً في إثبات الحق ...

حضر وقعة " مانو " بين نفوسة والأغالبة : تلك الوقعة الكبرى بين الإباضية في ليبيا، والأغالبة الزاحفين من القيروان. وكان لعمروس فرس في مثل قوته وإقدامه، فكان يحلق على العدو كما يحلق العقاب، وعندما يلحظ ضغطاً على جانب من

جوانب جيشه، يطير إليه، فيفرج عنه الكروب، ويشتت الجموع، وحار العدو في هذا البطل الذي ينزل بهم الضربات القاتلات في جميع جهات الميدان، فقال قائلهم : إنكم لن تحرزوا نصراً إلا إذا هوى هذا الشهاب، فاعمدوا إلى الحيلة – والحرب خدعة – فثبَّتوا حبالا في مكان، ما ووجهوا ثقلهم إلى تلك الناحية، ورأي البطل الكبير ما يقع في ذلك الجانب لأبطال جيشه المغاوير، فاتجه إليهم ليخفف عنه الضغط، ولكن الحبال اختلفت بين أرجل الجواد، فتعثر وسقط الفرس والفارس، وتسارعت عشرات الأيدي والسيوف إليه فأخذ أسيراً، وجئ به إلى أمير القوم : إلى إبراهيم بن الأغلب، إلى الرجل المسعور، الذي لم يرتكب فظائعه قائد حرب في تاريخ البشرية الطويل – فيما أعلم – وأراد القائد المجنون أن يشمت بالبطل المؤمن، فقال له : سلنى العفو فأعف عنك، فأجاب البطل : إن الأعمار بيد الله، وتلك كلمة لن تسمعها منى أبداً !.. فقال ابراهيم : إذن فارجع عما أنت عليه لنتركك، فقال : تلك كلمة لا أقولها حتى ألحق بالله ! ...

وكانوا يوجهون إليه هذه الطلبات وهم يوالون تعذيبه، أملا منهم أن يجدوا منه ضعفاً ولو في آخر اللحظات ... فكانوا يقرضون يديه بمقاريض من الحديد، شيئاً فشيئاً، ويقدمون إليه عروضهم. وكان ثابتاً في إيمانه، ثابتاً في عقيدته، ثابتاً في مبدئه، ثابتاً في شجاعته وبطولته، حتى بلغوا بقطعهم ليديه إلى المرفقين، ففاضت روحه، رحمه الله !!! وسجل التاريخ على ابراهيم المجنون صفحة أخرى سوداء، مع الصفحات السوداء الكثيرة، التى تركها في حياته.

حالة سياسية

كان أغلب المملكة الليبية تابعاً للدولة الرستمية في تاهرت ما عدا المدينة، حسب معاهدة عبد الوهاب وعبدالله بن إبراهيم بن الأغلب. وبعد وقعة مانو بقليل، تغلب أبو عبدالله الشيعي على تاهرت وخربها، وأحرق مكتبتها، فانقرضت الدولة الرستمية، وانقطعت الصلة السياسية بين ليبيا والجزائر، فأصبح مركز الإباضية في ليبيا جبل نفوسة، وبسقوط تاهرت صار هذا الجبل وما يتبعه مستقلا عن جميع الدول الأخرى ؛ إنه لم يخضع لإبن طولون، ولم يخضع للأغالبة، كما لم يخضع قط للدولة الفاطمية أو لغيرها من الدول التى تعاقبت على الحكم في المغرب الإسلامي إلى الاحتلال التركي.

ولكنه مع هذا الاستقلال لم يعلن ميلاد دولة جديدة، ولم يبايع إماماً وإنما كان يختار من رجاله الأكفاء حاكما يتولي شؤون الأمة ؛ فيحل المشاكل، ويوصل الحقوق، ويدافع العدو، ويوجه الأمة بإستشارة العلماء، وبالجملة يقوم بجميع ما يقوم به الإمام دون أن يتسمى بذلك.

وفي الصفحات المقبلة سوف أحدثك أيها القارئ الكريم عن عدد من هؤلاء الحكام الذين تولوا أمر الأمة في الجبل، فساروا بها في الطريق القويم؛ الذي سار عليه السلف الصالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وأنا حين حدثتك عمن ولى الحكم في ليبيا ابتداء من عدوان العباسيين على الإباضية دون حدث، وقتلهم للعلامة عبدالله بن مسعود التجيبي إلى انقراض الدولة الرستمية، أو حين أحدثك عمن ولى الحكم في جبل نفوسة إلى الاحتلال التركي، لا أتبع سلسلة التاريخ، ولا أتقصى الأشخاص، ولم يكن عرضي شاملا لجميع أولئك المؤمنين الذين ألقيت على كواهلهم أعباء الأمانة العظيمة، أمانة القيام بأمور المسلمين، ولكنني أحدثك عن بعضهم كأمثلة لما سار عليه الجميع.

وللقارئ الكريم أن يرجع إلى التاريخ المبسط المنصف، وسوف يجد أمثال ما أعرضه عليه من الصفحات المشرقات في أولئك الذين تولوا أمر الحكم، سواء كان ذلك في مناطق فزان المختلفة، أو في سرت، أو في زواغة، أو في قنطرار " تيجى " أو جبل نفوسة، إنه لن يجد في حكم هؤلاء وفي سيرتهم وفى أخلاقهم وفي دينهم إلا ما يرضي الله، ويرضي رسوله، ويرضي صالحي المؤمنين، ويشرف الإنسانية المعتزة بالحق والعدل، اللهم إلا إذا لم يفرق بين الإباضية والنكار، أو بين الإباضية والصفرية، أو بين الإباضية والشيعة، أو بين الإباضية وغيرهم من الفرق، فينسب إليهم، ما ارتكبه أولئك من الفظائع، أو ينسب إليهم مايرتكبه أعداء الأمة من أعوان السلاطين الظلمة، الذين لم يحترموا حكماً من أحكام الله.

أبو محمد
عبدالله بن الخَيْر

نشأ في قرية صغيرة من قرى الرحيبات تسمى " تيوِ نُزيرِف " والحرف (تي) في اللغة البربرية معناه : آل، أو أهل، وقد يستعملون [آت] بدلا من (تي).

تقع " وِنُزِرُفْ " هذه على قمة جبل شامخ، وتطل على واد سحيق العمق، يفصل بينها وبين " تميجار " (أولاد بوجديد) اليوم، وهي مركز الرحيبات في هذا العصر، وتبعد عنها نحو أربعة أميال.

في هذه القرية الصغيرة الجميلة، وعلى ضفة هذا الوادي العميق الأخضر، وفوق تلك القمة الشاهقة، نشأ أبو محمد عبدالله بن الخير، واستقبل أول ما استقبل من حياة العمل : مدرسة القرية ؛ فحفظ كتاب الله، وتأدب بآداب المسلمين، ودرس مبادئ الدين الحنيف على مشائخ القرية الفضلاء، فلما وجد أنهم لا يُشبعون نهمه، انتقل إلى مدرسة نذير زمانه العلامة أبان بن وسيم، ومن تلك المدرسة العامرة تخرج، فكان موسوعة علمية متحركة حتى ضرب به المثل فقيل : من ضيع كتاباً كمن ضيع خمسة عشر عالماً مثل عبدالله ابن الخير ...

وهذا المثل كاف في الدلالة على ماللرجل من شهرة في العلم.

رجع من بقي من الإباضية بعد وقعة مانو، وقد قتل فيها أكثر العلماء، وبعد زمن يسير من هذه الوقعة تغلب الشيعة على الدولة الرستمية في الجزائر، وخربوا تاهرت، وأحرقوا المعصومة، وبذلك أصبح جبل نفوسة وما يتبعه شرقاً وغرباً مستقلا عن الدولة المجاورة، غير مرتبط بواحدة منها، كما أن الإباضية في ليبيا لم يشاءوا أن يبايعوا أحداً بالإمامة، أو يدعوا إلى إقامة دولة، ولكنهم كانوا يكتفون بحكم خاص بهم.

يجتمع أهل الرأي والمشورة، فيختارون أكفأهم ؛ يسندون إليه أمورهم، ويضعون بين يديه شؤونهم، فيتولي القضاء بين متنازعيهم، والفصل في مشاكلهم، ومدافعة العدو بهم، وكل ذلك لا يتم إلا باستشارتهم، فإن سار على النهج وأعجبهم منه السلوك ساعدوه، وإلا عزلوه واختاروا لمكانه غيره، وفي أكثر الأحيان يتم هذا الاختيار بين مستشاري جبل نفوسه كلهم، وتكون صلاحيات الحاكم الذي يختارونه جارية على جميع الإباضية في الجبل وتوابعه، ولكن قد يقتصر حكم أحدهم على ناحية من نواحي الجبل، بينما يتولي غيره رعاية شؤون الأمة من الناحية الباقية ؛ وحينئذ تكون العلاقة بينهم علاقة تعاون ومشاركة في السراء والضراء، وليس توزيع الحكم بينهم إلا تقسيما للعمل، كي يتيسر القيام به على أهون سبيل، اما الأمة فهي لا تزال أمة واحدة، مرتبطة المصالح، لا تفرقة ولاخلاف، وعندما ينقضي هذا الوضع، تعود الأمة إلى ماكنت

عليه من وحدة السياسة والهدف والحكم.

لست أعني بذكر الحالة السابقة، أن نزاعا على الحكم، أو اختلافا في الرأي، أو تفرقة بين أبناء الأمة قد جرى في زمن من الأزمنة، التى تقع بين سقوط الدولة الرستمية ودخول تركيا إلى ليبيا، إن شيئاً من ذلك لم يكن في حفظي، ولا في المصادر التى بين يدي من كتب التاريخ، ولا استثنى من ذلك إلا الخلافات الفردية العادية، التى تقع عند كل أسرة.

ذهب أبو محمد عبدالله بن الخير فيمن ذهب إلى مانو، وكان من الأفراد القلائل الذين قدرت لهم الحياة بعد هذه الوقعة، فرجع سالما إلى قريته الصغيرة، وهو يتحسر ألما على الخسارة التى منى بها الجبل، وعندما توفى أفلح بن عباس هرع بقية المشائخ إليه، يعرضون عليه طلبهم، ولم يشفع له كبر سنه، فإن الحاجة إليه شديدة، إذ لم يبق من الأعلام الكبار بعد تلك الوقعة غيره، وغير أبي القاسم البغطوري، وكان أكبر منه سنا، وأوهن عظما، فاسندوا إليه الحكم عليهم، والقضاء بينهم، فسار بهم سيرة أولئك الأعلام الذين عرفت تقواهم لربهم، ولزومهم لهدي محمد صلى الله عليه وسلم، وتمسكهم بدين الله القوم، ورأيت نماذج من حكمهم : مساواة في الحق، وعدالة في الحكم، وسهر على مصلحة الأمة، ينبعث كل ذلك عن فهم عميق لأسرار الشريعة، وإيمان خالص بدين الله.. ومحبة صافية للمؤمنين ...

كان الإباضية في جبل نفوسة من أحرص الناس على اتباع السنة، والعمل بها، فكانوا لا يولون أمر الصلاة بهم إلا من

تجتمع فيه شروط الصلاح الكاملة، ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، وكان أبو عبدالله ممن اجتمعت فيه هذه الشروط ؛ فهو أعلم القوم، وأحفظهم لكتاب الله، وأشدهم استمساكا بدين الله، وأكبرهم سنا ؛ ولذلك فقد كان يتولي أمر الصلاة بالناس، وغلب عليه الكبر، وأثقل طول الزمان سمعه، فكان يجهر بصوته في القراءة السرية حتى يسمعه من خلفه فقال له يحيى بن يونس السدراتي يوما : ماتسعنا الصلاة خلفك وأنت تجهر بالقراءة حتى نسمعك. فقال الإمام العالم : لم أكلف سماعك يأبنيونس ؟.. وكان هذا الجواب كافيا أن يعرف ابن يونس وغيره أن تكليف الله لعباده إنما يتعلق بما عندهم من قوى، لا بما عند غيرهم، إنه عندما يقرأ في صلاة السر لا يراعي إلا أذنيه، فإذا كان صوته عاليا بحيث سمعه من خلفه – لأن في أذنيه ثقلا – فلا يعني أنه قرأ جهراً في موضع السر، لأنه مكلف أن يسمع أذنيه في قراءة السر.

جلس للتدريس والتقوى بعد وقعة مانو، وبذل من الجهد في نشر العلم ما يعجز عنه من كانوا في عنفوان الشباب، ولم يحل دون قيامه برسالة التعليم المقدسة لا كبر السن، ولا ضعف البدن، ولا الإنشغال بمهام الحكم، ولقد استطاع بما بذل من جهد أن يعيد في مدة ليست بطويلة ما خسرته الأمة في معركة مانو الطاحنة، ولم يسانده في هذا العمل إلا أبو القاسم البغطوري، الذي بذل من الجهد العلمي أكبر مما بذل أبو محمد عبدالله، لأن أبا القاسم لم يشغل بالحكم، وكأن حكمة الله أرادت أن يكون هذان الرجلان هما دعامة النهضة، فأتاحت لهما من العمر الطويل ما لم يتح لغيرهما، فقد عاش أبو

محمد مائة وعشـرين سـنة، أمضى أولها فـي الكفاح من أجل التعلم، والاغتراف من مناهل الثقافة الواسـعة. وأمضى آخرها فـي كفاح الجهل والظلم والباطل. حتى قبضه الله إليه. فرحمه الله رحمة واسعة.

أبو يحيى
زكريا الأَرْجاني

" أرجان " اليوم، أطلال قرية قريبة من " مَزُّو " تقع إلى الشرق منها على نحو ميل، وهى فوق ربوة عالية تشـرف على مايجاورها مـن الأرض، وعلى قمة تلك الربوة يجثم اليوم في وقار وخشـوع مسـجد فسـيح، ينسـب إلى أبي زكريا، الأرجاني ولد أبي يحيى. ولا يـزال هذا المسـجد إلى اليوم مقصد المسـلمين عند صلوات الاستسقاء والاستغاثة.

وفـي هذه القرية التى تقتعد قمة ربوة عالية كالحصن المنيع، يحيـط بها آلاف من شـجر الزيتـون كما يحيط الإطـار الجميل بالصورة الرائعة، في هذه القرية المتفتحة للحسن نشأ أبو يحيى زكريا الأرجاني، وفيها درج، وبين رياضها الغناء وقممها الشامخة الشـماء، وضفة واديها العميق سرح، وفي شـلال ماصِر وبحيرة الزرقاء عبث وسـبح، فـي هذه المناظر الجميلة السـاحرة تكونت المواهب الأولى للطفل، ثم انطلق إلى معاهد العلم ينهل منها بذهن متفتح، ويغتـرف من المنابع الغزيرة التى كانت متوفرة في ذلك الحين، فبلغ في المعرفة أسـمى الدرجات، وتحلى بما يتحلى به أولئك المؤمنون من الخلق الرفيع، وسـار سيرتهم العطرة، التى لا

توجد إلا عند الصفوة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وعكف بعد ذلك عليدراسة كتاب الله وسنة رسوله، وتفهم أسرار الشريعة. حتى كان في ذلك مرجعاً، وعرف فيه المسلمون هذه الصفات النادرة، من العلم، والعمل، والخلق، فأولوه ثقتهم، وولوه أمرهم، وبايعوه إمام دفاع،على أن يتولي شؤونهم حتى في حالة السلم ؛ فيفصل مشاكلهم، ويحكم بين متنازعيهم، ويأخذ الحقوق من أغنيائهم ليضعها في فقرائهم، إلى آخر ما هنالك من شؤون أمة يوجه سياستها الداخلية مؤمن آمين ...

وقد قبل ما عرضوه عليه، وتحمل هذه الأعباء الثقال بما عرف فيه وفي أسلافه، من أمانة ودين وحرص على مصلحة الأمة ...

عندما تشاور المسلمون في أمر الحكم، وعرضوه عليه، واتفقوا على إسناده إليه، لم يتهرب من المسؤولية، وقبلها مستعينا بالله على القيام بواجباته، كانت أمه وأخته وهما من العالمات الصالحات خائفتين عليه من هذا العبء الثقيل، وعندما كانت النساء مقبلات عليهما للتهنئة بهذا المنصب الرفيع، وبهذه الثقة، وهذا الاختيار، كانت الأم والأخت تنتحبان، وتذرفان الدموع، وتجيبان المهنئات : أنهم قدموه إلى النار: أنهم وضعوا على كاهله أعباء ثقالا ينوء بها : أنهم اختاروه ليفصل مشاكلهم ويفرز بين حقوقهم، فيبوء الناس بالمشاكل المفصولة، والحقوق المتاحة، ويؤوب بالحساب العسير، والغرم الكبير.

وانتصب الحاكم المدافع للقيام بهذه المهمة الثقيلة رغم معارضة أمه الرءوم، وأخته الحنون، ولم يتردد في التضحية

بنفسه عندما احتاجته أمته، فكان مثلا للمؤمن الذي يرعى الأمانة ويتبع الحق، ويفصل المشاكل، ويستميت في الدفاع، وهو في كل ذلك معرض عن متاع الحياة وزخرف الدنيا.

ولد له ولد، فجاءه الناس للتهنيئة، وقدم فيمن قدم جماعة من اليهود، جمعوا له أربعين ديناراً للمولود الجديد، فقال لهم : لو كنت أقدر على صيانتكم لأخذتها منكم جزية، ولكننى لا أقدر على صيانتكم، فخذوا أموالكم 42، وعبثا حاولوا أن يقدموها إليه هدية، إنه لا يقبل الهدايا وهو في منصب الحاكم أو الأمير، ولعله كان يذكر في ذلك الحين حديث رسول صلى الله عليه وسلم : (أما بعد : فإني استعمل رجالا منكم على أمور مما ولانى الله، فيناجي أحدكم فيقول : هذا لكم، وهذه هدية أهديت إلي، فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا ؟ والذي نفسي بيده لا يأخذ منه شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر). ثم أطعم هؤلاء اليهود عنباً، وانصرفوا وهم يعجبون. كانوا يتحدثون وهم يقولون : عجباً : "ما رأينا مثل هذه البلاد، لايطمع سلطانها في أموال الناس ". وحق لهم أن يعجبوا. فهم يعرفون ما يرتكبه أصحاب السلطان من الجرائم للحصول على المال من أي طريق، فكيف يمتنع هذا عن قبول هدية طابت بها النفس، واستراح لها الضمير ...

كان بين بني زمور 43 وطرميسه سوء تفاهم وعناد، يؤدي في كثير من الأحيان إلى المشاغبة والنزاع عندما يتلاقون في أسواق جادو – ومركز الحكم، ومدينة جبل نفوسة في ذلك الحين – فخص

كل واحد من الفريقين بسوق واحدة في الأسبوع، لايجوز للفريق الآخر حضورها، حتى لا يقع هذا الشغب الذي طال مداه، وكان ذلك كافياً ليسود الهدوء بينهم.

بين جادو مركز الحكم وأرجان بلد أبي يحيى مسافة تبلغ ميلين أو تزيد، وكان أبو يحيى يقدم كل صباح إلى مجلس الحكم، وكان أول عمل يقوم به : أن يتجه بهذا الدعاء إلى ربه في إيمان وإخلاص : " اللهم اعط الحق الذي لذي الحق، ياذا الحق، ولا حجة لمحتج إذا احتج بلا حق ".

وبعد هذا الدعاء الحار يستقبل الناس بوجهه، ويستعرض مشاكلهم حتى يفرغ منها، وقد أنهكه التعب، تعب البدن وتعب الفكر، فيرجع إلى قريته الجميلة على قمة الربوة، وقد يستريح في الطريق عدداً من المرات قبل أن يبلغ إليها، لما ناله في مجلسه ذلك من النصب والعناء ...

قلت في صدر هذا الحديث : أن الأمة بايعت أبا يحيى إمام دفاع، فقام بمهمته هذه خير قيام، وكم حاول أبو عبيدالله الشيعي أن يحتل الجبل، فيقف له هذا البطل بالمرصاد، ويرده محطم الآمال، خائب المسعى ...

أغارت جيوش أبي عبيد الله الشيعي بقوة عظيمة على الجزيرة – وهي قرية حصينة على قمة جبل شامخ في جهة الحرابة – فتصدى له الإمام أبو يحيى، والحق به شر هزيمة. وسولت للشيعي نفسه أن يعيد الإغارة على قرية بعيدة من مركز الحكم، لعله يستطيع الحصول على شئ قبل أن يتمكن حاكم

الجبل برد العدوان،فهجم على " تِيرَكُتْ " وهي قرية أخرى تقع في الحوامد، بين " لالوت وكباو " فتصدى له إمام الدفاع القوي، وألحق به هزيمة أخرى شَراً من الأولى، وهكذا استطاع أن يحمي حوزته، كما يحمي الأسد عرينه، رغم كثرة المعتدين ومحاولات المستغلين؛ الذين غرتهم الدنيا، وسولت لهم أنفسهم، لقد كان رحمه الله صورة رائعة للمؤمن القوي، الحريص على إيمانه، الوثيق الصلة بربه، المحب لأمته.

استشهد في " تيركت " بعد أن هزم الشيعة وطردهم شر طردة – بطعنة غادرة، امتنع رحمه الله أن يسمي صاحبها، وفوض أمره إلى الله..

واجتمع رأي المسلمين بعده على تولية أبي عبدالله بن أبي عمرو، حفيد أبي منصور؛ فقام بالأمر مدة يسيرة، لكن أهل الشورى اتفقوا على عزله، وولوا مكانه أبا زكريا بن أبي يحيى الأرجاني،لإعتقادهم أنه أكفأ من أبي عبدالله، وأقدر على مجابهة الأحداث، ولم تطل به المدة، فقد هجمت جيوش العباسيين على الجبل، فتصدى لهم أبو زكرياء. ووقعت مقتلة كبرى بين الفريقين، ورجع " المسودة " جيوش بني العباس دون أن ينالوا من الجبل منالا، وعندما كان أبو زكرياء راجعاً، أصابته طعنة غادرة، كالتى أصابت أباه، واجتمع إليه المشائخ يسألونه عن رأيه فيمن يتولي أمورهم، فأجابهم وهو يعالج سكرات الموت، ويستعد للقاء ربه : أرى لكم زيد بن أفصيت الدرفي.

وهكذا لم يألهم نصحاً حتى في آخر لحظات الحياة، إنه موقف

شـــبه بموقف الفاروق رضى الله عنه ... ومواقف المؤمنين تتشابه في الإخلاص والنصيحة للمسلمين ...

إننـــي اختصـــرت الحديث عن هذيـــن البطلين، ولـــم يكونا أقل علما ودينا وجدارة وخلقا من أولئك الذين تحدثت عنهم بشئ من الإســـهاب والتفصيل، لأن هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ يتقصى الأخبـــار والأحداث، وإنما هـــو مجموع صور لحياة أمـــة متمثلة في أعمـــال يقوم بها أفـــراد أو جماعات، وكثيرا مـــا اكتفى بصورة ما عـــن مجموع من الصور القريبة منها، أو المشـــابهة لها، ولو أردت الاســـتقصاء لمـــا كفاني الزمـــان والجهد الذي قدرتـــه لإخراج هذا العمـــل الضئيل، وهـــذه الصـــورة الباهتة، التـــى فارقتها حياتها وجمالها عندما تناولتها بريشتي الهزيلة، وأسلوبي الضعيف.

الأعلام الثلاثة

أبو يحيى سليمان بن ماطوس الشرُوَسي، وأبو هارون موسى بن يونس الجلالي، وأبو الربيع سليمان بن زرقون النفوسي: ثلاثة أعلام يتسابقون إلى المكارم فلا يتفاضلون، ويتنافسون على بناء الأجيال لإعداد الرجال فلا يتأخر أحدهم عن أخويه. ترنو الأبصار إلى الواحد منهم فلا تنحدر عنه، حاسبة أنه الغاية إلى لا مرمى بعدها لكمال الشخصية وصفات البطولة، فإذا علقت بزميله، رأت منه ما ينسيها مظاهر العبقرية الأولى ...

جدوا وراء الدراسة حتى بلغوا الشأو الذي تقصر دونه مدارك الكثير، ولا يبلغه إلا النزر اليسير، ممن وهبتهم عناية الله مواهب تكاد تكون خارقة للعادة، ثم ركنوا للعمل.. العمل بما علموا ... فبلغوا أيضاً الغاية التي لا يبلغها إلا النادر القليل من الأبطال الصابرين، الذين يهبون مايملكون من قوى مادية ومعنوية لأمهم.

` ابن ماطوس 44 وثق المشايخ بأبي يحيى بن ماطوس، فاسندوا إليه حكم الجبل، وقبل العالم الكبير هذه المهمة، كما قبلها أسلافه من قبل، فكان من خير من أسند إليه حكم، فتولاه عن دراية وعلم، وطبَّقه بحذق وفهم، وحل المشاكل المتشابكة

بحق وعدل، ولم يشغل ابن ماطوس بهذا العبء الثقيل عن الرسالة التى خلق من أجلها، رسالة التعليم. فكانت مدرسة ابن ماطوس من أعظم المدارس التى نشرت العلم في جميع الربوع، وورد إليها الطلاب من كل مكان. لم يكن ابن ماطوس مجرد مدرس يلقي النظريات العلمية ويشرحها للطلاب حتى تصل إلى أذهانهم، وإنما كان مع ذلك مربيا يحسن التربية، وقدوة صالحة للأقتداء، فكانت دروسه مشبعة بروح الإسلام، وكان خلقه الكريم بين الطلاب داعيا لتهذيب النفس، وكانت سيرته القويمة مضرب الأمثال. وإلى هذه الشخصية القوية في أخلاقها ودينها وكفاحها،كانت غزارة العلم من أعظم الأسباب في تكوين هذه الشخصية، فلم يخل كتاب من كتب الإباضية عن أقوال ابن ماطوس، ولم يبق بلد من بلدانهم لم تدخله فتوى ابن ماطوس. قال أبو يحيى الفرسطائي: اجتمعت ببعض العلماء بناحية " زويله " فقال: إن فتوى ابن ماطوس كلها حسنة، إلا أنه يرى أَنْ لا الشفعة ليتيم، ولا لغائب. قال أبو يحيى: فلما قدمت أتيت ابن ماطوس فأخبرته، فقال: قل له: ذلك تعطيل الحقوق.

إن هذه القضية البسيطة توضح انتشار فتوى هذا العالم العظيم، ومبلغ تقدير رجال العلم له. كان الطلاب يلتحقون بالمدارس المنتشرة في المغرب الإسلامي، ثم يعودون فيصححون ما درسوه على هذا العالم العظيم.

درس الطالبان النجيبان: أبو صالح وأبو موسى في بعض المدارس بالجنوب التونسي، ولما أتما دراستهما قررا الرجوع إلى جبل نفوسة، ليعرضا ما درساه على ابن ماطوس، فالتقيا بالعلامة

بكر بن أبي بكر الفرساطائي، وكان في دور التعليم حينئذ، فرافقهم، وفي طريقهم وجهت إليهم عدة أسئلة، وكان جواب بكر الخلاف ما درس الشيخان.

وعندما وصلا إلى العالم الكبير ابن ماطوس ذكرا له قصتهما، والخلاف بين فتواهما وفتوى ابن أبي بكر، فقال الشيخ لهما: الفرسطائي عالم ...

أنها شهادة ممن يحق له أن يعطي الإجازات الدراسية، فيفخر بها الطلاب وموضوع الأسئلة موضوع فقهي، وجواب الشيخين هو الجواب الآلي الذي تجده عند المختصرات الفقهية، أما جواب ابن أبي بكر فهو جواب العالم الذكي الذي يتغلغل بفهمه العميق إلى أسرار الشريعة، ويغوص إلى الحقائق التى يكتشفها العقل المستنير في أحكام الإسلام، ويكفي أن أذكر لك إحدى هذه المسائل التى عرضت لأولئك الطلاب، لتعرف مقدار الفرق بين المتشبث بظواهر النصوص لعلماء الفقه، والمتفهم لسر الحكم الشرعي. سألهم سائل فقال: رجل تيمم لعذر شرعي ويده نجسة، فما الحكم في اليد والتراب المستعمل للتيمم ؟. أجاب الشيخان أن اليد طاهرة والتراب نجس. ولكن ابن أبي بكر قال: إن اليد والتراب طاهران. فقيل له:أين ذهب النجس ؟ ! فقال: ذهب بين الضربات ! ولك أيها القارئ الكريم أن تتأمل هذه المسألة على أحكام الشريعة السمحة، التى وضعت التيمم في مقام الوضوء أو الأغتسال، لترفع الحدث، حتى لا تكلف المسلم شططاً، وتحمله ما لا يستطيع، لك أن تتأمل ذلك ثم تقف في صف من شئت من هؤلاء الطلاب، أما أنا فقد اخترت موقفي

ووقفت إلى جانب ابن أبي بكر، ما لم تكن النجاسة التى في اليد ذات عين باقية الأثر في التراب الذي استعمل في التيمم ...

كان رجل من أهل بلده غائباً، ورجع في ليلة من الليالي لعمل ضروري سريع، وأخبر زوجته أنه سيعود إلى عمله في الصباح الباكر، وفكرت الزوجة الصالحة فيما يترتب على هذا المجيء المفاجيء الذي حضر فيه الزوج، صاحب الحقوق المعينة، دون أن يراه أحد أو يسمع به ؛ فكرت وهي تنظر إلى المستقبل القريب ... فصنعت طعاماً لزوجها، ثم بعثت إلى ابن ماطوس تدعوه أن يرافق زوجها في العشاء، وحضر العالم الحاكم، وأكل الطعام مع الزوج الذي غادر البلد مع غبش الفجر، وقدر لها أن تحمل من تلك الليلة، وأن يقع ما توقعته وتحدث الناس أن فلانة حامل، مع علمهم بأن زوجها غائب، وبلغتها قالة السوء فآلمتها، فإذا جنها الليل، ورأى الناس إلى مضاجعهم، تستقبل هي عالم الأسرار والخفايا ثم تقول: ياملائكة السحر ذكروا ابن ماطوس، وبلغ مسامع الشيخ ما يتهامس به الناس عن المرأة الفاضلة الذكية الحازمة، فأمر بضرب الطبل، وعندما اجتمع الناس أخبرهم بما عرف، حتى لا يقذفوا امرأة مؤمنة غافلة بما حرصت أشد الحرص أن تبعده عن نفسها.

ولعله يكفي أن نختم حديثنا عنه بهذه الشهادة القيمة من عالم لا يلقي الكلام جزافاً قال البغطوري: " إن ابن ماطوس قادة بعد أبي القاسم وبورك في علمه، فبلغت فتواه شرقاً ومغرباً، وهو أحد فروع مانو " راجع سير الشماخي 45 ص 276.

` أبو هارون موسى بن يونس الجلالي: -

درس على أبي القاسم البقطوري أحد الشيخين اللذين بقيا بعد معركة مانو، وبرع أبو هارون في الأصول والمنطق والرياضيات ؛ أما علم الفقه فقد كان يسميه هو وزملاؤه من الطلبة الأذكياء " علم العجائز ".

اهتم هذا العلامة الكبير بمثل ما اهتم به صديقه ابن ماطوس، من نشر العلم، ورث الخلق الحميد، وبث روح الإسلام الصافية في نفوس الطلاب والمجتمع. وأسس مدرسته العظيمة التى تعتبر مثالية في ذلك الحين، وندر من لم يستفد من الأثر الكبير في حياة الأمة، مع شدة إقبال الناس على هذه المدرسة، كان ابن ماطوس يرى أن الناس مقصرون في الاغتراف من هذا المنهل العذب، فكان يقول: " لو علم الناس ما ينفعهم لازدحموا عند باب داره كما يزدحمون عند باب دار أبي عبيدة في البصرة " جمع أبوهرون بين غزارة العلم، ووفرة المال، فقد كان دائم الكفاح !.. الكفاح المتواصل الذي لا يعرف الراحة أو الاستجمام، فلن تجد أبا هارون متى جئته إلا في إحدى حالتين: نشر العلم، وبث المعرفة، وتثقيف العقول. أو جمع المال من طرقه المباحة التى يعرفها حق المعرفة، وفي رأس السنة المالية لميزانيته يقسم موارده إلى ثلاثة أقسام:

يخصص القسم الأول للنفقة على نفسه وعائلته ومن تلزمه مصاريفه، ويخصص القسم الثاني للضيوف وأبناء السبيل، والحقوق التى تجب عليه أو على بلده من هذه الناحية.

ويخصص القسم الثالث للإنفاق على الأقسام الداخلية في مدرسته العامرة، التي يؤمها عدد غير قليل من الطلاب البعداء، فتتكفل المدرسة بإيوائهم والإنفاق عليهم، وكان إلى هذه المكانة السامقة من العلم والمال ؛ شديد التواضع، لين الخلق، سهل المعاشرة، يوقر أصحاب الفضل والعلم، ويستشيرهم حتى فيما يعرفه حق المعرفة.

زاره أبو محمد عبدالله بن الخير " بالجزيرة " وبينما كان الشيخان يتحدثان إذا ارتفعت صيحة عن غارة موجهة إلى القرية فوثب أبو هارون إلى سلاحه ثم اندفع إلى الميدان.. ثم تذكر أن في ضيافته العلامة أبا محمد عبدالله بن الخير، الحاكم والقاضي على الجبل، وأنه يجدر به أن يلتمس منه النصح والإرشاد قبل أن يبدأ العمل، وإن كانت السبيل واضحة أمامه وحكم الله جليا في مثل هذه القضية. ورجع إلى الضيف الكبير يستشيره ويستنصحه فيما يجب أن يفعلوا إن أدركوا العدو. فقال القاضي العادل، والحاكم العالم: " إن قتلوا الأنفس وحازوا الأموال فقاتلوهم، وإن أخذوا الأموال خاصة فاقصدوا أموالكم، فإن حالوا بينكم وبينها فقاتلوهم " 46

تلك السيرة الرائعة التى تتبع تعاليم الإسلام في تنظيم الهجوم والدفاع، اتباعا لأمر الله، لايحيد به غضب، ولا يستفزهم كيد، ولا يوصلهم إلى الطغيان عدوان.

إن العلماء الأعلام الذين درسوا على أبي هارون، وتخرجوا من مدرسته، أكثر من أن يحصيهم العد، أما آراؤه وفتاواه وأقواله،

فلا يخلو منها كتاب من كتب الفقه والأصول والكلام، وكثيراً مايكون رأيه أرجح الآراء، ومعتمد المذهب ...

` أبو الربيع سليمان بن زرقون 47 النفوسي من نفوسة " تاديوت"، درس في " سجلماسه " على العلامة ابن الجمع 48. وقد كانت " سجلماسه" في ذلك الحين، من المراكز العلمية التى يؤمها الطلاب من جميع النواحي، لاستكمال الدراسة، وعندما توفى الشيخ العالم، أوصى بثروته العلمية إلى تلميذه النجيب الذي خدمه بإخلاص زمنا غير قصير.

وأصبح هذا الطالب بعد أن استكمل دراسته شيخاً عملاقا تنحني أمامه الرقاب، وتذوب بين يديه شبه المشاغبين، ولما رجع من سجلماسة إلى الجنوب التونسي وجد أن النكار قد نشروا بدعهم في كثير من تلك البلاد. وأصبح لهم أتباع ومريدون، ولم يزل يتنقل من بلد إلى بلد، ومن مجمع إلى مجمع، حتى قضى على تلك البدع التى كادت تفتك بدين الناس، وسكت أولئك المشاغبون، فلم تعد تنطلق آراؤهم ا لمنحرفة لتزيغ عقول البسطاء من الناس عن دين الله.

كان قوي الحجة، فصيح اللسان، غزير المادة، شديداً في دين الله..

رأى تبرجا من نساء " قصطالية " فقال: ما أكثر إماء أهل هذا البلد، فحملهن على غير الحرائر. وقد كان في هذه الكلمة من التوبيخ والزجر ما يدفع الضمائر الحية إلى العمل، كان مسافراً في شتاء شديد البرد، ومعه شيخان ورعان، فمروا بغدير وقت

الظهـر، فاختلفوا في وجـوب الوضوء، فتيمم ابـن زرقون، وتوضأ أحد الشـيخين الورعين، فأصيب من شـدة البرد، فقال ابن زرقون لصاحبـه: لم تجز لنفسـك أن تتيمم لصلاة واحـدة، فتيمم الآن لصلـوات عـدة. إن فهم روح الشـريعة والمقاصد السـامية من تكاليفها هـي حقيقة الورع، وإن الجمود علـى ظواهر النصوص قد يؤدي إلى عكس المطلوب. فقد فر صاحب ابن زرقون من تيمم واحد، ولكنه اضطر -لقصور فهمه حكمة الطهارة في الإسلام - إلى التيمم لعدد من الصلوات.

كان ابن زرقـون في صغره: ذكيا، ظريفاً، نجيبـاً، وكثيراً ما كان أسـتاذه " ابن الجمع " يمازحه بتوريات عامضة، فينتبه لها الطالب الذكـي، ويجيب على البديهة. قال له يومـا: إنك ولد في الطين، يوهمـه أنه يصفـه بالفطنة، فقـال الطالب النجيـب: إنه غير منزلق، ليبرهن لأستاذه أنه فهم التورية.

وقـام يوما من الأيام بعمل يسـتحق عليه الشـكر، فقال له الشيخ: الزيت خير، يوهمه أنه قال له: جزيت خيراً، ولكن الطالب النجيـب فهـم أيضـاً هـذه الدعابة من أسـتاذه وقـال له على البديهـة: يصلح للخبز، وهكذا كان الفتى الظريف مع أسـتاذه الكبيـر، يتلقى عنه العلم، ويتلقف منـه الدعابة، ويقتبس منه الهداية والرشد.

أبو عمرو
ميمون بن محمد الشَّرْوسِي 27

عالم اشـتهر بكفاح الرذيلة حتى بلغت أخباره أقاصي البلاد. سمع يوماً إن جماعة يشربون الخمر " بالفحص " وبين هذا المكان " وشـروس " مركـز حكمـه وإقامته مـا لايقل عن سـتة أميال، فذهب إليهم، وأراق شـرابهم، وكسر آنيتهم، وأقام الحد على من يستحقه منهم.

جمع إلى الورع الشـديد، العلم الغزيـر، وإلى رقة القلب، قوة الإرادة ومتانـة الدين، ولهذه الصفـات وغيرها من الصفات التى يتحلـى بها المؤمنون المخلصون، وثق فيه الناس فولوه أمرهم، كان شـديد الخوف من حقوق الناس، فكان يرتعد كما ترتعد السعفة فـي مهـب الريـح إذا وضعت بين يديـه قضية للحكـم، وكانت دموعـه تنحدر دون أن يملك حبسـها، إذا قال لـه الخصم أعطني حقي، خوفاً أن يكون مال عن الحق، ولم يعرف الصواب، وحسـبك ديناً وعدلا لرجل يلى الحكم، أن تكون هذه أخلاقه وسيرته ...

أخذ جانياً فحبسـه في بيته موثقاً ليستشير في أمره بعض المشـائخ، وينزلوا به العقاب الذي يقرره قانون الله، وفي الليل قام أبـو عمرو إلـى الصلاة، فوجد الجاني فرصة للإفـلات، ففك قيوده

ثم هجم على أبي عمرو بسـكين كانت في يده وجرحه، ولكن أبا عمرو – وكان شـجاعا وقوياً وشديداً في أمر الله - رجع إلى الجاني وقبـض عليه مـن جديد، ونزع منه الموسـى. ثم أوثقـه وعاد إلى صلاتـه، ولم يرد أن ينزل به أية عقوبة حتى حضر المشـائخ، خوفاً يؤثر عليه الغضب، أو أن يكون قد انتصر لنفسه، وحضر المشائخ، ورأوا فيه رأيهم الذي لا يتجاوز الحق والعدل.

ذهب إلـى جادو لبعـض الشـؤون، وعندما كان فـي الطريق وهو راجع إلى شـروس، سـمع إن جيشـاً عظيما يريد الغارة على الجبل، فتوقف في الطريق يفكر في الأمر، إنه لم يستعد للحرب والقتـال، وهو بعيد عن مركز حكمه، فما العمل ؟ وبات ليلة وهو يفكر: هل يبدأ بالدعوة إلى الدفاع من مكانه، أم يرجع إلى مركز حكمـه أولا، ثم يجهز الجيش وبعـد العدة، ولكن قد يقع الهجوم قبـل أن يصـل هو إلى مركـز الحكم وإعداد ما يلـزم للدفاع ليلة مؤرقة في عار تؤكيت (تمزّده) اليوم، وهو يقلب الرأي.

وعلم الجند أن أخبارهم سـبقتهم إلى حاكم الجبل أبي عمرو، وأن الرجل موجود في وسط الجبل ومعمعة العمران، وأنه لا يلبث أن يلاقيهـم بجموع يحرصون على الموت في سـبيل الدفاع عن حرماتهم، كما يحرصون هـم على الحياة. فلم يجدوا خيراً من أن يؤخروا هذه الغارة إلى فرصة أخرى، وبكروا بالرحيل ...

كان أبـو عمرو إلى هذا الحـزم، وهذا العزم، وهـذه القوة، مثلا للتواضع واللين بين المؤمنين ... كان يسـير ذات يوم ومعه ولد له صغير، فالتقى بأبي سـليمان التندميرتي، فنزل عن فرسه إجلالا

لأبي سـليمان وتعظيما، وعجب الولد الصغير من سـلوك أبيه، فلم يعلم في الجبل رجلا أعظم من الحاكم مقاماً، ولذلك سـأل أباه قائلا: من هذا الرجل الذي تنزل له عن فرسك يا أبي ؟..

فقـال الأب: أولا تعرفـه ؟: إنه أبو سـليمان، الرجـل الذي أنزل الحمـل الثقيل عن ظهره وحملته أنا ... هكذا كانوا يرون الإمارة.. إنهـا حمل ثقيل يفرح المؤمن عندمـا يتخلص منها، ولا يتقبلها إلا وهـو مضطر، وقد بـذل أبو عمـرو مجهوداً جبـاراً ليلقي عن ظهـره هذا الحمـل الثقيل، حتى تخلص منه فـي يوم من الأيام، وجاء بعض المشـائخ يلومونه على ذلك، فقال لهم: إننى أرغب أن أخلص إلـى عبادة ربي قبل الموت، ولو لمدة قصيرة، وإنني أريد أن لا يشتغل فكري بغير عملي في آخر حياتى..

قلـت في صدر هذا الحديث إن أبا عمرو قد اشـتهر في جميع البلدان بسـيرته الحميدة، وخلقه الفاضل، ودينه الكامل. جاء من السـودان جماعة من التكرور يحملـون بضاعة وافرة للتجارة، ولما يسمعون عنه من علم وعدل، طلبوا مقابلته، فلم يضن عليهم بهـا، واجتمع بهم: " فملأ أعينهم وافئدتهـم علماً وأدباً وحياء " فجمعـوا له أربعمائة دينار، وقدموهـا إليه من أصدقاء معجبين، فامتنع عن أخذها، وترك لهم أموالهم، وفتح أمامهم الأسـواق، ودعا الناس إلى التعامل معهم.

إنه مثل سـام من أمثلة النزاهة والشرف والفضيلة، لايجده الباحـث كثيراً في كتـب التاريـخ، تاريخ الأمـراء الظلمة الذين يزهقـون الأرواح، وينتهكون الحرمات، للحصول عليمبلغ قد يكون

أقل من هذا المبلغ بكثير..

ولعله يكون من المناسب أن أختم هذا الفصل بالكلمة البارعة التى وصفه بها أبو العباس:

" وكان ميمون الناصية على نفوسة مدة ولايته "

3. أبو الفضل سهل

هذا رجل لا أريد أن أطيل عنه الحديث،وحسبه أن ولى الحكم على الجبل في وقت بلغت فوضى الحياة في ليبيا مبلغاً يؤسف له، فقد اختاره الناس وغارات الأعداء من الدول الظالمة متوالية، وقبائل البداة الضاربين حول الجبل من الجنوب والشمال لا ينفكون عن السرقة والعدوان. إنهم أقوام لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، فلا يستمسكون بحق، ولا يتعبدون بدين، ولا يردعهم خلق عن أموال الناس، وكانوا يتباهون ويتفاخرون بأنواع العدوان الذي يقومون به ومقدار الأموال التى يغتصبونها أو يسرقونها من أصحابها، الآمنين المسالمين.

وتولى أبو الفضل سهل الحكم في الجبل، فشمر للكفاح، وقابل العدوان بالصبر والنضال، ورتب في كل جهة من الجهات المعرضة للسطو حامية ترد الضربات، وتقف للمغيرين بالمرصاد، ولم يلبث إلا قليلا حتى أمن الناس على أموالهم وحرماتهم، وانتشر السلام في كامل الجبل وما يتبعه، بل لقد سار الأمن في جميع نواحي الجبل إلى " غدامس ".

بلغه يوماً أن فساداً يقع في " غدامس "، وأن قوماً من هؤلاء الذين اعتادوا ابتزاز الأموال بالباطل، يرتكبون من الموبقات في " غدامس " ما لا يرضاه الحر الكريم، فجرد حملة توجه بها إليهم،

ورغـم معارضة المشـائخ لـه خوفاً عليـه، فقد أصـر ووصل إلى " غدامس " وضرب على الأيدي العابثة، وأصلح الفسـاد، ونشـر الأمن بين الناس.

هـاب الناس هـذا الحاكم الحـازم، فتوقـف عن الجبـل عدوان المعتدين، وغارات المغيرين، وسـرقات أولئـك الذين لا يخافون في الله إلا ولا ذمة..

وإن رجـلا يسـتطيع أن يقمـع الفسـاد، وأن يـرد كيـد أعداء يتكالبون دون أن يتقيدوا بدين، أو ضمير، لذو فضل ...

أبو محمد
زيد بن أفْصيت الدَّرَفي 30

جـد عائلة توارثـت العلم والحكـم والاسـتقامة، وإن تفاوتوا فيه على درجات، حسـبما وصفهم صاحب السـير فقال: " إن أبا محمـد: الآخرة دون الدنيا، وأبا يحيى يوسـف بـن محمد: الدنيا والآخرة، وأبا داود سـليمان بن أبي يحيى: الدنيا دون الآخرة ". وليس معنى هذا أن أبا دواد أعرض عن دين الله وأسلم قيادة للهوى، وزاغ عن الصراط المسـتقيم، وسـلك الطريق الذي سـلكه الظالمون، فـإن أمثال هـؤلاء لا يمكن أن يلوا أمرا للمسـلمين في ذلك الحين. ولكـن معناه: أن أبـا محمد زهد فـي الدنيا، فلا يقيـم لها وزنا، لايهتـم بطعام ولا لبـاس، وأن أبـا يحيى إذا اجتمـع عنده الردئ والجيد من الطعام واللباس استطرف. أما أبو داود فكان يتأنق في لباسـه، ويسـتطيب لطعامه،] قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ [ويؤكد هذا المعنى ماورد في السـير: " وكان أبـو محمد إذا قام من مجلس القضاء أكل ما حضر، وأبو يحيى يأكل ما خبز، وربما استطرف، وأبو داود يأكل اللحم والقمح وتمـر فزان في أكثر أوقاتـه، وكانت أيام أبي داود سـليمان مباركة على نفوسه. " 53

تولى أبو محمد، ثم ابنه أبو يحيى الحكم على جادو، أما أبو داود وأبو محمد عبدالله ولدا أبي يحيى فقد توليا الحكم على أهل زمور – قرى الرجبان اليوم – وقد كانت أحكام الجميع وسيرهم سير من سبق من السلف الصالحين.

إن كل واحد من هؤلاء الأعلام يستحق أن يشغل من وقت الدارس فراغا لمن أراد أن يتتبع أحداث التاريخ، ولكني في هذه الفصول إنما أعرض صوراً، وقد يجمع الإطار الواحد مجموعة من الصور، ولمن أراد الاستقصاء أن يرجع إلى كتب التاريخ، وفيها يجد ما يشبع نهمه عن كل واحد من هؤلاء الأعلام.

وحسبي هنا أن اذكر للقارئ الكريم: أن شهرة هذه العائلة في العلم والعمل لا تزال على ألسنة الناس اليوم، وإن دارهم التي أطلق عليها دار بني عبدالله، كانت مأوى للأخيار من كل مكان، وملجأ للمضطهدين، وقد كان واسطة عقد هذه العائلة: العلامة أبو يحيى: من أعلام الإسلام ؛ درس على العلامة أبي محمد الكباوي، وقال عن نفسه: لقد جمعت العلم بالقصعة، وفرقته بالأقداح، وهذه العبارة على اختصارها، تبين الفرق الواسع بين مواهب الناس، وما تمنحه إرادة الله لخواص عباده.

وفي زمن حكم أبي يحيى هجمت زنانه بجيش قوامه ألف محارب على قصر " أدرف "، فخربوه، ولكن خراب القصر وخراب قرية " أدرف " كلها لم تهدم البناء الشامخ الذي أقامته عائلة بني عبدالله، وفي الحين الذي يذكر التاريخ في إجلال عظمة أبي يحيى وأسرة بني عبدالله، يلعن هذا الجيش الذي يهجم على

قرية آمنة مطمئنة على حين غفلة من أهلها، فيقتل سكانها، ويخرب بنيانها.

أبو زكريا
يحيى بن سفيان اللّالوتي 34

نشأ في " لالوت " هذه المدينة التى كانت مقراً للعلم، ومثابة للعلماء، وحسبه تعريفاً شهادة العلامة أبي العباس حيث يقول: " وكان حاكماً عادلا، وعالماً فاضلا ". وقد ذاع صيته، واشتهر بعلمه ودينه،وعدله، حتى عرفه الناس بذلك واعترفوا له، فكان يقدمه في الصلاة حتى المخالفون له في المذهب، وكان في مرتبة من التواضع واللين، لايصل إليهما إلا الندرة القليلة من عباد الله المؤمنين ...

كان حاكماً، ولكنه لم يكن من الطراز الذي يعرفه الناس هذه الأيام، إن الحكم عند أبي زكرياء وأضرابه يعنى التضحية بالوقت والجهد والمال، دون أخذ شئ، إنه أداء واجب لا شكر عليه، ولا مقابل له، إلا ما عند الله، ولذلك فإن الحكم على أولئك الذي يلون أمراً من أمور الأمة، فيتخذون ذلك وسيلة إلى ابتزاز أموال الأمة والانتفاع بجهود أفرادها. إن هؤلاء قد خانوا الله، وخانوا الناس في أمانتهم.

كان أبو زكرياء يعمل كأي فرد من الناس، لايرى لنفسه حقاً عليهم، فكان يقوم بزراعته كما يقوم بها أي شخص آخر، وذات

يوم حصد الزرع، واحتاج إلى جمل يحمل عليه ما جمع من زرع، وكان له جار قد هيأ جمله ليحمل عليه زرع نفسه، فلما سمع بحاجة الشيخ أراد أن يؤثره على نفسه، وذهب إليه بجمله، فانتهره الشيخ، ولم يقبل منه هذا الإيثار، الذي طاب به الجار الكريم نفساً، وخشى العالم الحاكم أن يكون الجار أقدم على ذلك بدافع الخوف، أو بدافع الحياء، فلم يرد أن يتقبل مساعدة الناس على أحد الدافعين.

وتقلب الزمن، وتغير وجه التاريخ، وتوفى الشيخ، فجاء ولده إلى نفس المكان، وحصد زرعه، واحتاج إلى جمل يحمل عليه، فذهب إلى جاره، وكان هو نفس الجار الذي انتهره الشيخ لما آثره على نفسه، وكان الرجل قد أعد زرعه وأعد الجمل ليحمل عليه، فطلب ابن الشيخ منه الجمل ليحمل عليه، فاستمهله الجار الطيب حتى يوصل حمله ثم يرجع إليه الجمل. فغضب الشاب، لأن الرجل لم يؤثره على نفسه. فقال العامل الساذج الطيب: " إن ذا لمن العجب ! ... الشيخ يغضب إذا آثرناه على أنفسنا، وابنه يهددنا إذا لم نؤثره. " 55

إن الفارق بين الأب والإبن فارق عظيم، فلقد كان الأب من أولئك الأبطال الذين ينتصرون على أنفسهم قبل أن يلتحموا بالمعارك الحامية بعيداً عن أنفسهم، والمؤمن إذا انتصر على الشيطان في معركة النفس، سهل عليه أن ينتصر في كل ميدان، ولكنه إذا انهزم في المعركة الأولى،فإنه لن ينتصر في بقية المعارك،مهما بذل من جهد، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ؛ جهاد

النفس). لقد وثق المشائخ بأبي زكرياء فولوه شؤون الأمة، وكان إلى قيامه بهذا العبء الثقيل. لا يرزأ الأمة في شئ من مالها، وإنما كان يمون نفسه وأسرته بعمل يديه، كما يقوم بذلك أي فلاح عادي، ولم يشغله هذا العبء الثقيل عن مشاكل الناس، ولا هذا الكفاح الطويل في إعانة الأسرة، لم يشغله كل ذلك عن ممارسة أحب عمل إليه، وإليكل عالم يتجه بعلمه إلى الله، ويقدم جهوده للأمة خالصة، ذلك العمل الحبيب إلى كل عالم يقدس المعرفة، والتعليم، ونشر الثقافة، وتربية الأجيال،ولقد خصص أبو زكرياء زمنا من وقته الثمين للتعليم، وهداية الناس، وإرشاد أبناء الأمة، وكان الطلبة يتسابقون إلى الارتشاف من هذا المنهل العذب، ويتزاحمون عليه تزاحم العطاش على الصافي النمير، ولقد كانت له دروس لا تقتصر على صغار الطلبة والمبتدئين، بل يحضرها كثير من العلماء الأجلاء، فإن مجالسه العامرة بالموعظة الحسنة والدعوة إلى سبيل الله، لخليقة أن يحضرها كل من تهفو نفسه إلى المزيد من الاطلاع على أسرار الشريعة السمحة، وكان في أحد هذه الدروس التى يتخذها لشرح وجهات النظر المختلفة، ويكشف فيها وجوه الرأي وآراء المجتهدين، ويعقب بذلك عليتلك الآراء، ويرجح منها ما يوافق التيسير على الناس، وكان أبو الربيع حاضراً هذا المجلس، فغضب من هذا الترخيص للشيخ، وترجيحه ما يقوم على اليسر والخفة من آراء العلماء وأقوالهم ؛ فقام وهو يقول: لا أحضر مجلساً يفتى فيه بمثل هذا.. فأجابه العالم الأستاذ الذي يعرف من أسرار الشريعة،ومن طبائع الناس، ودخائل نفوسهم، ما لا يعرفه كثير من أصحاب

العلم، ويفهم من طبيعة الحياة، ومن دواعى العمل، وما يناسب ذلك في مختلف الأزمنة والأمكنة، ما لا يفهمه الكثير، أجابه يقول: إن لم ترد فقم ... وقام أبو الربيع الغاضب وفارق مجلس الشيخ على هذه الحال،ولكنه ما توارى من الباب حتى قال الشيخ لطلابه: ردوه؛ إن لم يفهم هو، فلا يفهم غيره ... وتواثب الطلاب في خفة ليدعوه، فلاقوه راجعاً فقد فكر واقتنع بوجاهة رأي الشيخ، وبعد نظره، ومعرفته بأحكام الدين، والأصول التى تبني عليها الفتوى، وعرف أن العالم الذي يفتى للناس، يقوم بعمل يشبه عمل الطبيب، فقد يفتى لرجل بفتوى لا يفتى بها لشخص آخر في سؤال مشابه، كما يناول الطبيب شخصاً ما دواء لا يعطيه لمريض ثان له أعراض ذلك المرض.

وقد رأى كثير من حذاق العلماء، أن الغني الذي يوفر لديه المال، وجب عليه كفارة، لايفتى له بالإطعام، وإنما يفتى له بالصوم.

وأبو زكرياء من أخلص الناس إيماناً وأشدهم ورعاً، وأغزرهم علماً، فهو حين يقدم على عمل، أو يصرح بقول، يكون قد فكر قبل ذلك، فأخلص العمل لربه، واستبرأ لدينه وعرضه.

وخلاصة القول: أنه أحد أولئك الأبطال الذين انتصروا عليالشيطان في أنفسهم، وقدموا أعمالهم لله خالصة، وقادوا أمتهم إلى الخير، دون أن يرزؤها في مال أو دم، وقد كان مثلا للمسلم القانع الراضي بما قسم الله له، والعارف بحقيقة الدنيا وزخرفها.

زاره المشائخ يوماً فأكثر لهم اللحم،وكان الطعام قليلا،

فاعتـذر لهم بضيق الحـال، وزاروه مرة أخرى فأكثـر لهم الطعام وقدم لهـم زيتاً، ولم يقـدم لهم لحماً، ولم يعتـذر، فقيل له في ذلك؟ فقال: لا تقصير مع الطعام والزيت.

إنـه رجل لا يعـرف المظاهر الجوفـاء، وإنما يعـرف الحقائق التى تنبني عليهـا الحياة، وحقيقة الغذاء الذي تقـوم عليه الحياة في الجبل إنمـا هو الطعام والزيت، وليس اللحم مادة ضرورية في ذلك الحين.

ولعـل فـي قصة أم المؤمنين عائشـة رضـى الله عنها وزوجة معاوية بن أبي سـفيان عبرة وموعظة لهؤلاء الذين يسرفون في اتباع الشـهوات، فقد قيل: إنه قدم لأم المؤمنين عائشة عشاؤها الذي يتكون من خبز وزيت، وكانت زوج معاوية حاضرة، فدعتها أن تشـاركها هذا الطعام، لكن الزوجـة التى ربيت في بيت معاوية، وبين موائد الشـام، اعتـذرت لأم المؤمنين، وأخبرتهـا أنها تعودت أن تـأكل أرق من هذا وأشـهي، فرفعت إليهـا أم المؤمنين عينين متعجبتين وأخبرتها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ولم يشـبع من الخبز والزيت، ولو أراد رسول الله لكانت له موائد أحفل مما يقدم لكسـرى وقيصر ... وصـدق الذي أوصى فقال: لا تجعلوا بطونكم مقابر للحيوان.

درس أبـو زكريـا على العالمـين الكبيرين: أبـي محمد خصيب التَّمَصْمِصِي، وأبي عبدالله محمد بن جَلداسِنْ.

أبو عبدالله
محمد بن جلداسن اللالوتي 36

نشـأ في " لا لوت " بلد الأشياخ والعلم كما قال أبو العباس، وقد تحدث عنه وقال فيـه: " وكان بحر العلم الزاخر، وإمام الحكام الفاخـر، قيل له: في بعـض أحكامك ضعف، قـال: اقعدوا على طريـق الحطابة، فـإن رأيتم معهم عـوداً يابسـاً فصدقتم أنني ضيعت شيئاً من الحق ".

وتكفي هذه الشـهادة للدلالة على علم الرجل، وعلى عدله، وعلى قوة إرادته، وصلابته في الحق، إنه يحكم ويعدل، وحين يتهم بالضعـف في أحكامه يتحدى - في ثقـة الرجل الذي يزن قوته، ويعرف سـطوح حجته- أولئك الذين يتهمونه بضعف الأحكام، أن يظهروا له هذا الضعف الذي انتقدوه عليه في نتائج الأحكام، ومـا يعقبها مـن آثار، ويصمـت المعارضون، لأنهـم لا يجدون ما يردونه به على هذا التحدى، فهذه نعم الله تسبغ عليهم ظاهرة وباطنة، وهذه الخيرات مبثوثة على الطبيعة، وهذا الأمن منتشر، والسلام يسـود الربوع، والناس مشتغلون بأعمالهم، راضون عن حياتهم، وحقوقهم مكفولة، لايضيع منها حق، ولا يطغى قوي على ضعيف.

وكان إلى هذه القوة في الحق، والمعرفة بالعدل ومجاريه، عالماً بأسرار الشريعة، يحارب الوسوسة والجمود، والتشدد في دين الله.

كان يوما " بشروَس " وقد نزل مطر غزير، فذهب إلى المسجد، ومشى بخفيه حتى دخل المسجد، وصلى بالناس، ليزيل من أفكار الموسوسين المتشددين ما يظنونه نجساً ما يتطاير من ماء المطر في الشوارع.

وقف له بعد الصلاة أحد المؤمنين الذين يعرفون من أحكام الإسلام مثل ما يعرف، ويعرف من طبائع النفوس البشرية بعض الجوانب التى غفل عنها العالم الكبير، فقال له: " إن متولى الناس مثل اللبن، يغيره أدنى ما يقع فيه " وفهم الشيخ ما ترمى إليه هذه الملاحظة الدقيقة، واقتنع بوجاهتها، فسلم يعد لمثلها، فإن بعض الناس قد يفسرونها بالتهاون وعدم الاحتياط والأستهتار، وهؤلاء الناس قد لا يجسرون على إبداء آرائهم هذه، ومناقشتها بالحجة ليعرفوا حكم الله، ولكنهم يجعلونها مادة الحديث والتعليق، وتنسى القضية نفسها، لكن الحكم المترتب عليها من المتهاون والاستخفاف ينتقل من أذن إلى أذن، حتى يشيع وينتشر ...

كانت أم سحنون اللالوتية من فضليات العجائز، مؤمنة، عالمة، ناصحة، وكانت مزاراً للمشائخ والعلماء، تفيض عليهم من أدبها، وعلمها، وخلقها، ودينها، ونصيحتها، وسار يوماً أبو عبدالله في جماعة من المشائخ لزيارتها، فلما كانوا ببعض

الطريق، وقد قربوا منها، سمعوا أن حدثاً وقع "بجادو "، فاضطروا إلى الرجوع، واضطر أبو عبدالله بوصفه حاكم الجبل أن يعود ليرى هذا الحدث الذي وقع بجادو، مدينة نفوسة، ومركز الحكم في أكثر الأحيان، غير أن أبا هارون لم يرجع معهم، وأتم ما عزم عليه من زيارة هذه المرأة الصالحة، فلما أخبرها برجوع المشائخ قالت: " يا أخي أخشى أن أكون ممن قيل فيهم: إذا زارت الأخيار فاسقاً سد الملائكة عليهم الفجوج، وإذا زار الأشرار صالحاً قيدتهم الملائكة ." 56

لقد كان أبو عبدالله من أولئك العلماء الذين امتلأت الكتب بأقوالهم وآرائهم وسيرهم، أما الصورة الكاملة لحياة هذا الرجل، فهي تشبه إلى حد كبير ما تقدمها من الصور التى عرفتها لأولئك الأعلام الذين وثقت بهم الأمة، فحملتهم أعباء الحكم ... وساروا بتلك الأعباء الثقال، لا يتعثرون، يعملون لله والأمة، لا يغرهم السلطان، ولا تخدعهم المظاهر البراقة، ولا يلتفتون إلى نعيم الدنيا.

أبو زكرياء
بن أبي عبدالله التَّنْدميرّتي [37]

شخصية من تلك الشخصيات التى تحتاجها الشعوب في أوقات الوهن والضعف، ولاة المسلمون أمورهم بعد أبيه أبي عبدالله، حفيد أبي منصور... أبو منصور الذي عرفه التاريخ في أنزه موقف وقفه محارب، وبأشرف سيرة سارها أمير، أما حفيده عبدالله، فيكفي فيه ماقاله عنه أبو العباس: " أما أبو عبدالله، فلم الشعث، وكشف اللبس، ورتق الفتوق، ورقع الخروق " ومن هذه الأسرة الكريمة التى شرفها الإسلام، وشرف بها المسلمون، انحدر أبو زكرياء.

ولاه المسلمون أمورهم بعد أبيه أبي عبدالله، فبقي في هذا المنصب الخطير، منصب الأمير أو الإمام، ستين سنة، لم يتغير فيها خلقه، ولم يفسد طبعه، ولم يتغلب عليه الطمع، ولم يدخله الغرور الذي يعبث بالنفوس من أصحاب السلطان.

دأب منذ أسند إليه حكم الجبل، أن يحاسب نفسه كل ليلة، ولا يأوي إلى مضجعه حتى يزن ما قام به من أعمال، ثم يميز جميع من يدخل تحت حكمه، فيعرف من يستحق الأدب، ومن يستحق المواساة، ومن له الحق، ومن عليه الحق.

دأب على هذه السيرة طول مدة إمارته خوفا من التقصير، وخشية من العىّ عن الجواب يوم الحساب، إذ كل راع مسؤول عن رعيته.

هكذا كان أبو زكريا يقضي وقته وهو أمير على جبل نفوسة، شغل متواصل طول اليوم، ينسى فيه نفسه وأهله وماله، فإذا أوى إلى بيته في الليل، ليجد قليلا من الراحة، حسد نفسه عن أن تنال هذا القسط الضئيل من الراحة، ونأى بروحه عن أهله وأبنائه، لأن المسلمين بقية حقوق تترتب بذمته لم يتأكد أنها وصلت إليأصحابها كما يوجب الحق والمروءة.

وفي هذه العزلة الروحية، وهو في بيته، بعيد عن ضجيج الناس، يستعرض شريط اليوم، ليرى فيه هذه المملكة التى يتولى أمرها، فيمر بين عينيه ذلك الشريط بما يحمل من صور الناس في الحياة.

ويتذكر أبو زكريا من غفل في زحمة الحياة، وأنساه إياهم الدوي الصاخب.. فيمر بين عينيه في ذلك الشريط: القوي الذي اعتمد على قوته فأخذ من حقوق الناس، ويمر به الضعيف الذي قعد به الضعف حتى عن الوصول إلى الحاكم، ويمر به الغني الذي تجري الثروة بين يديه ومن خلفه، فيحيا حياة الرغد والرفاهية، ويمر الفقير الذي يتغلب على الحياة بالقناعة وينتصر على الجوع بالصبر ويستر العرى بالتواري عن مجامع الناس.

وبعد أن يصفى حسابه مع الله ومع نفسه في يومه الماضي، ويضع خطوط العمل ليومه المقبل ؛ بعد ذلك يعود إلى إعطاء

حقوق أهل بيت من أولاد وزوجة وغيرهم، ويصبح إنساناً كسائر الناس، يتكلم مع أهله وأبنائه، ويستعرض شؤونه الخاصة وموارد رزقه الطيب.

وعندما يقوم في الصباح ليتولى العمل من جديد، يكون أول ما في مخططه اليومي استخراج الحقوق ممن لم تستخرج منه، وإنزال أحكام الله على من يستحقها

كان شديداً في الله، يتعقب الجناة والمجرمين، ولا يتهاون في ذلك أبداً. ذُكر له: أن جانيا في قرية " جناون " آوى إلى أهله، وبات عندهم. فهجم عليه صبيحة العيد،بعد ان صلى صلاة الصبح في مسجد أبي عبيدة، وطلب من العزابة تسليم المجرم، وإيصاله إلى السجن في " جادو " حتى يحكم فيه بحكم الله.

وذكر له: أن جانيا آخر بات في " ويفات " وهي قرية تبعد عن جادو مركز حكمه ما لايقل عن عشرة أميال، فهجم عليه هو وأصحابه، وأنفذ عليه الحكم وقد حاول الجاني أن يعتدى على الأمير الشديد في أمر الله، وهم أن يطعنه بخنجر، فتلقى عنه الضربة أحد الحاضرين الواقفين بجنبه، فقال أبو زكرياء: يقال في المثل: أحبك ولا كنفسي، وهذا الرجل أحبني فوق نفسه.

تخاصم إليه رجل وإمرأة على مال، وكان أبو يوسف الأجفري حاضراً، وهما من بلده، فقال له: ما تقول يا أبا يوسف ؟ قال أبو يوسف: إن جزت على المرأة أسلّم، وأسال لها العون، وإن أطعمتني أكلت ... وإن مررت عليالرجل لا أسلم، ولا أسال له العون، ولا آكل إن أطعمتنى ... قال أبو زكرياء للرجل: اسمع ما يقول أبو يوسف

يا أبافلان.. قال الرجل: مالي ياشيخ ؟ قال أبو زكرياء: اسمع يا فلان ما يقول أبو يوسف، قال الرجل: مالي يا شيخ ؟ قال أبو زكرياء: يا مرعون إن ذهبت إليه لأجعلنها في جنبك ؛ يعنى السياط.

إن الرجل الذي يتمادى على الباطل، ويستمسك بحق الناس، حقيق أن توضع في جنبيه السياط.

كان أبو زكريا عالما من أفذاذ العلماء، ولكنه مع سعة علمه أراد أن يطمئن في أحكامه إلى فتاوي من مشائخ يوثق بعلمهم وفهمهم، فاستنصح أبا محمد الدرفي، فنصحه أبو محمد أن يستفتي في نوازله، والمشاكل التى تعرض عليه الشيخين العالمين: أبا محمد الكباوي، وأبا يحيى الفرسطائي، فيحكم بما اتفقا عليه، ويتوقف فيما يختلفان فيه، فكان يستفتيهما، غير أن أبا يحيى كان يجيب إجابة العالم الواسع الاطلاع، فيناقش الموضوع مناقشة طويلة، ويبحثه من جميع نواحيه، ويستعرض الأقوال الواردة فيه، دون ترجيح، أما أبو محمد الكباوي، فكان يقصد إلى أرجح الأقول، ويحدد الموضوع في إيجاز وتلخيص، وهذا ييسر العمل على الأمير الكثير الأشغال، فاعتمد على فتوى أبي محمد، ولما توفى أبو محمد، حضر جنازته وشيعه إلى مقره الأخير، وعندما أراد مغادرة المقبرة، قال: سلام عليك يا كاباوى، ولما مر بقرب منزله قال: لقد أصبحت أيها المنزل كغيرك من المنازل.

ثم استفتى بعده أبا محمد خصيباً.

حاول عدة مرات أن يتخلص من أعباء الحكم، وأن يلقى عن كاهله هذا الحمل الثقيل، ولكنه لم يتمكن من ذلك، لأن أهل

الشورى من المشائخ لم يوافقوا على ذلك أبداً.

وبعد: فما هو المبلغ الضخم الذي جمعه هذا الأمير حكم الجبل ستين سنة ؟ وما هي القصور التى شادها ؟ والجنان الفسيحة التى امتلكها ؟ إنه لا شك جمع ثروة طائلة، تركها لأبنائه، وسوف ينعمون بها طيلة أجيال متعاقبة. أما هو وأسرته فلا بد أن يكونوا قد نعموا بالمال، وعاشوا في رغد ورفاهية.

ولعل في القصص الآتية شواهد تدلنا على مبلغ ما كنز هذا الرجل من مال، وجمع من ثروة.

ولد له ولد فبعثت إليه زوجته تطلب كمية من الزيت للاستصباح ودهن الطفل، فكم يا ترى يستطيع أن يبعث إليها في هذه المناسبة السعيدة ؟ إن أي موظف بسيط أو شيخ قبيلة، يمكن أن يبعث لزوجه في مثل هذه الحالة ما يكفيها أسبوعاً، أو شهراً، وإذا لم يكن هذا المقدار عنده، استطاع أن يحصل عليه بأي وسيلة من الوسائل، أما هذا الأمير الذي يتصرف في مال الجبل كله، ويتحكم في تصريف ما في " نفوسة " من زيت، لم يستطع أن يبعث إلى زوجه الحبيبة، وهي نفساء، وإلى طفله الوليد وهو يستقبل الحياة...لم يستطع أن يبعث إليهم شيئاً، لأنه لم يجد في ملكه الخاص ما يبعث به، أما أموال المسلمين، وزيوت الأوقاف التى تصرف تحت رعايته، فلم يستطع أن يمسها، لأنها أمانة في عنقه، وهو أخشى لله من أن يخون الأمانة، وأبلغها أنه ليس لديه زيت، وما دام لا يجد في ملكه الخاص زيتاً، فعليها أن تستصبح بالحطب، أما الوليد فيكفيه التنظيف

بالماء، وعلى زوجة الأمير أن تقنع بهذه الحياة إن كانت مؤمنة ترجو خير الآخرة، وإلا فإن هذا الرجل ليس برجل الدنيا الذي تغره الحياة بالنعيم الزائل..

وفي القصة الآتية مثل آخر يبين لنا كيف يستطيع أن يجمع مثل هذا الأمير ثروته الطائلة، التى لا تنبض:

مر على بعض الأحياء فاستضافوه، ولكنه اعتذر، فجاء صاحب الحي بعدد من الكباش، وقدمها للأمير وهو يقول له: هذا غذاؤك وغذاء أصحابك حيث لم توافق على البقاء ! ... فهل فرح لهذه الكباش ؟ وأمر بسوقها ليضعها إلى ما جمع من ثروة ؟

لم يفعل شيئا من ذلك، ولكنه أجاب صاحب الكباش بهذه الكلمة التى يجب أن توضع بين عيني كل صاحب سلطة من أولئك الذين يجمعون الرشاوي، ويبتزون أرزاق الشعوب، ولا يعفون عن أموال الدولة، قال: "لو كلفت بحمل قرونها ما قدرت،فكيف بحملها جميعاً يوم القيامة"(58)وترك الكباش لصاحب الكباش، وعاش الطفل على نور الحطب، وضرب أبو زكرياء لعبيد الدنيا المثل الرائع الذي يجب أن يتعظ به أولئك الذين تسند إليهم أمور الناس، ويؤتمنون على ثروات الشعوب، لقد فنيت جميع الثروات التى جمعها الجبابرة، ولكن هذه الثروة الخلقية التى تركها هذا المؤمن الصابر لم تفنى، ولن تفنى، وما عند الله خير وأبقى.

حضر إليه بعض المشائخ في أواخر أيامه، وسأله عن رأيه فيمن يولونه أمورهم، ويسندون إليه حكمهم من بعده، فاختار لهم: أما أبا زكرياء اللالوتي، أو أبا يعقوب البغطوري، أو أبا داود

سليمان الدرفي.

لما أشتد عليه المرض رأى جماعة أن يرجعوا به إلى بلده تندميره، فحملوه، فلما أفاق من غشيته وجد نفسه محمولا، فسألهم عن ذلك ؟ فأخبروه أنهم يريدون به بلدة " تندميرة " فأمرهم بإنزاله في موضعه، وكان قرب " تمزده " وهنالك فاضت روحه الطاهرة، رحمه الله، ولا يزال قبره مشهوراً معروفا هناك.

واجتمع المشائخ بعد وفاته، فولوا مكانه أبا موسى عيسى – فاتبع خطاه وسلك مسلكه، وسار بسيرته. قوة في دين الله، وغلظة على العصاة والمجرمين وإيصال للحقوق إلى أهلها، وعدل بين الناس يستوى فيه الكبير والصغير، والجليل والحقير.

أدب رجلا على عمل ارتكبه، فتألم ولم يصبر.. فقال له أبو موسى: أبلغتك حرارتها يا عدو الله ؟ فقال المضروب: أو لم تذقها ؟ فقال الحاكم القاضي العادل: ذقتها وكانت لي رشداً وصلاحاً ...

ترتب الحق يوما على داود بن علي، وكان من العظماء أصحاب الثروة، مهيباً بين الناس، صاحب قدر ومقام، فلما أراد الحاكم أبو موسى إقامة الحق عليه، أعرض ونأى بجانبه، وازور عن الحق، وثنى عطفه تكبراً أن يؤخذ منه الحق، ويقام عليه الحد، وقام من مجلس الحكم...

أمر أبو موسى برده، فلم يجد بين الحاضرين من يقوى على رده..

وفكر داود بن علي في الموضوع، ثم رجع إلى مجلس الحكم، وطلب من أبي موسى إقامة الحق، وقال له: رجعت إلى مجلسك

لتقيم على الحد لثلاثة أسباب:

` الأول: لا أريد أن أترك التكبر عن أخذ الحق سنة يتبعها كل متكبر.

` الثاني: تواضع مثلي لمثلكم لا يزيده إلا رفعة وعزاً.

` الثالث: أن في أبناء الأمة غيري، ومن هو أعظم مني.

وطلب أبو موسى من جديد إلى الحاضرين أن يقوم أحدهم بتنفيذ الحكم فلم يجد أحداً، فقام وهو يقول: " تعلم ربى أنه لو لم يكن رضاك إلا في نزع نفسى لنزعتها 59 ونفذ الحكم.

ولست أدري أيها القارئ الكريم وانا أقص عليك هذه القصة هل تعجب مثلى بهذا الخلق المتين، من الحاكم والمحكوم، بل إني لحائر بين الرجلين، لا أعرف أيهما أعظم، أهذا الذي يصر على تنفيذ حكم الله مهما كانت النتائج، أم هذا الذي يحكم عليه، ثم تعجز سلطة الحكم عن تنفيذ قرارها، وبعد أن يتيقن أنه لا أحد يقوى على تنفيذ الحكم عليه، يجيء إلى الحاكم مستسلما خوفا من أن يترك سنة سيئة يقتدي بها الناس، فيما إذا ركبتهم الحقوق، وتعلقت بهم الواجبات ... أنه خلق لم يوجد إلا في الرعيل الأول من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم..

أبو هارون

موسى بن هارون 40

نشأ أبو موسى هارون بن هارون في " تملوشايت " وأخذ مبادئ العلم عن مدارسها العامرة، ثم ألتحق بأبي محمد التمصمصي، وفي هذه المدرسة التى أعدت أعلاما، وخرجت فحولا، تخرج أبو هارون، علماً من أعلام الإسلام، وبطلا من أبطال المؤمنين، وجدّاً لأسرة متسلسلة في العلم والإيمان والكفاح من أجل المثل العليا التى حارب من أجلها محمد صلى الله عليه وسلم، وناضل عنها المؤمنون في كل زمان ومكان.

كان رحمه الله عامر القلب بالإيمان، براً، تقياً، عفيف اليد واللسان، وكان مع ذلك ذا قوة وصمود في النضال عن الحق، وحمايته من أطماع الطامعين.

كان أبو محمد خصيب هو مفتى الأمير أبي زكريا التندميرتي بعد أبي محمد الكباوي، وكان أبو هارون يحرص على حضور مجالس أبي محمد خصيب، لما يستفيده منه من علم جديد، ونزل أبو زكرياء يوماً إلى جناون، ونزل إليها أبو هارون، ولكن أبا محمد خصيباً لم يتمكن من النزول، لأن ضعف الشيخوخة حال دونه، واحتاج أبو زكرياء إلى فتوى، فطلب من أبي هارون أن يتقدم

لها، ومن ذلك اليوم أصبح أبو هارون يفتى لأبي زكرياء، حتى لحق أبو زكرياء بالله، وتشاور المشائخ فيمن يلى أمورهم، فأسندوها إلى أبي موسى عيسى، ثم أسندوها من بعده إلى هذا العالم الذي أحسن القيام بها، ورعاية شؤونها ...

في قرية " إِبَنايَنْ " التى لم يبق منها اليوم إلا أطلال دوارس، كانت إحدى العجائر التى يسميها المشائخ الجدة، وكانت تقية صالحة عالمة مؤمنة، تفيض على جلسائها بالخير والصلاح، واعتاد أبو هارون أن يزور هذه العجوز، فيقتبس من خلقها وعلمها ودينها،ولما أسند إليه الحكم، وألقى عليكاهله هذا العبء الثقيل، نقل مركز حكمه إلى هذه القرية الجميلة التى تحضنها الجبال البشرى، وتنبسط عند أقدامها الوديان الخضر، ليكون قريباً من هذا العقل البشري المستنير، وهذا القلب المؤمن الصافي... نصحه بعض المتملقين أن يشتري الأملاك الثابتة، حتى تبقى لأبنائه من بعده، فأجاب هذا الناصح بقوله: " من يتبع منهم طريق الهدى لا يعدم من الله خيراً، ومن نبذه وراء ظهره فلا أعدمه الله جوعا ".

وقارن أيها القارئ الكريم بين أمير لا يترك لأبنائه غير الله، وأمير يجمع المال من كل سبيل، لا يفرق بين حلال وحرام، ثم يتركه لأبنائه يعبثون به، ويلقى الله بالحساب..

سار أبو هارون بأعبائه الثقال من شؤون الأمة، كما سار بها أولئك الذين سبقوه بالحسنى، أقام الحق بين الناس، وحمى الوطن من عدوان المعتدين وغارات المغيرين ...

وكانت زوجة أبي هارون امرأة صالحة يحبها وتحبه. وكانت عالمة ذكية، ولكنها غير ولود.

ونصحه المشائخ أن يتزوج غيرها عسى أن يرزقه الله أولاداً صالحين...

ففوض إليهم أمر الاختيار، ووكلهم على القيام بهذه المهمة، وكل ما اشترط عليهم: أن يختاروا له امرأة يتوفر فيها الصلاح والتقوى.

وتشاور المشائخ، ودرسوا الموضوع، واستعرضوا عقائل الجبل، فاتفق رأيهم، ووقع اختيارهم ... من تكون هذه المرأة التى يتفق المشائخ على اختيارها زوجة لأعظم رجل في ذلك الحين ؟

لقد كانت جدة المشائخ السيدة " تابركانت " أعظم امرأة في الجبل وأصلحها،وكانت لها بنت ربتها على الخلق الكريم والدين القويم وثقفتها الثقافة التى تصلح للمرأة في ذلك الزمن الذي تشارك فيه المرأة الرجل في أهم الميادين بالرأي والنصيحة والإرشاد من وراء الحجاب، وقبلت الفتاة ورضى الشيخ، وزفت العروس الصالحة إلى العالم المؤمن، ورزق أبو هارون بعدد من الأولاد أقروا عين والدهم الشيخ، وخدموا الأمة بإخلاص.

كان قبل أن يتولى حكم الجبل، يقوم بالتدريس، وكان يقوم بالرحلات العلمية مع طلابه، فيدرسون البيئة، ويعلمهم أدب السلوك، ويعرفهم بالناس، ويوضح لهم طريقة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويدربهم على القيام بدروس الوعظ والإرشاد، وكثيراً ماكان ينزل بهم على أم ماطوس، المرأة التى استطاعت

ان تتغلب على إرادة أهلها في سبيل الدراسة، حتى بلغت مرتبة تتقاصر عنها أعناق الأبطال..

أبو الربيع
سليمان بن أبي هارون/4

غلب عليه لقب الشيخ، حتى أصبح علماً عليه، أخذ العلم عن أبي يحيى زكرياء بن سفيان اللالوتي، وأبي سهل البشر بن محمد التندميرتي، وأبي يوسف وَجْدَ لِيشْ بن في اليُجْلاَنِي وأخذ عنه بَشَر كثير.

سافر إلى الحج مع مجموعة من العلماء الأعلام، فترافقوا اثنين اثنين، فكان رفيقه أبا يعقوب البرني، وطال الطريق بهم، كان الرفاق يفترقون ويجتمعون ماعدا أبا الربيع وأبا يعقوب، فقد أمضيا الطريق كله في صحبة ممتعة، بين مذاكرة في فنون العلم وتعاون على ذكر الله.

وكان الركب إذا سئلوا عن عالمهم قالوا: أبو الربيع وأبو عبدالله الدرفي. وإذا سئلوا عن عابدهم قالوا: أبو موسى الدجي، وإذا سئلوا عن سخيهم قالوا: زكرياء بن عمار الشروسي، وإذا سئلوا عن أفضلهم قالوا: أبو يعقوب البرني. وعلق ما شئت أيها القارئ الكريم عن ركب يجتمع فيه هؤلاء الأعلام..

جمع أبو الربيع إلى العلم الواسع، والدين القويم، والخلق الكريم، شدة في الحق لا تلين، ومحافظة على دين الله لا تفتر،

وسيرة صالحة لا تضعف...

اشتهر طلوع هلال شوال فأفطر الجبل وبلغه أن بعض المتنطعين الجامدين أمسكوا عن الإفطار ولم يوافقوا الأمة في علمها بالشهرة فتتبع هؤلاء المتنطعين حتى بلغوا جادو وهو يلزمهم الإفطار ويكسر عليهم هذا الصوم الذي يخالفون فيه الدين والأمة ويغير هذا الحدث الذي كان خليقاً أن يحدث شغباً وخلافاً بين الناس.

وكان قوياً في العبادة شديداً على نفسه يعتقد أن في طوق جميع الناس أن يعملوا مثل ما يعمل.

صام مرة في جادو وكان حاكم الجبل حينئذ أبا عمرو وكان أبو الربيع إما أن يكون في مجلس العبادة أو في مجلس العلم لا يعرف النوم والراحة، فقال للأمير: حجر على الناس أن يناموا بالليل مدة صيامهم، ومن كسر الحجر فالسجن أولى به ... ولكن الأمير لم يعمل بهذا الطلب، وسار الزمن وأسندت الإمارة فيما بعد إلى أبي الربيع، ويظهر أنه ازداد خبرة بطبائع الناس ومعرفة بالضعف البشري، فلم يحجر على الناس النوم بالليل، وإنما كان يدعوا إليه من كان يقوى على إحياء الليل، فيحيونه يعبدون الله، أو يتذاكرون فنون العلم.

كان داود بن تيتيس طاغية متجبراً مثل جلدين بن فلاوسن، ولم يستطع المشائخ في جادو أن يلقوا عليه القبض وينفذوا فيه حكم الله، فجاء أبو الربيع وبصحبته أبو عمرو وأبو موسى الدجي وطلبوا من أبي داود الدرفي أن يرافقهم، فهجموا على ابن

تيتيس والقوا عليه القبض وأودعوه في السجن حتى حكم عليه المشائخ، ونفذوا فيه الحكم..

استحق يوسف بن عبدالله من أهل إكَرَّايَنْ الأدب، فأوثقه أبو الربيع في سلسلة حتى يجرى عليه الحكم، وقدم بعض الكبراء، يتشفعون في يوسف هذا، فقال أبو الربيع لو أمكن أن أنزع السلسلة عن يوسف بمائة دينار لدفعتها عنه وأطلقت سراحه، ولكن الحق أولى، وهكذا لم تشفع محبته لهذا الرجل، ولا رجاء الكبراء فيه، لأن الحق أحق أن يتبع ...

وهو إلى هذه الشدة والحزم في معاقبته الجناة وتتبع العصاة جم التواضع كثير الحياء، أواب إلى الحق.

ذهب هو وبعض أصحابه وطلابه إلى تندَّميرة فاستضافه رجل دخلت الشبهة إلى بعض ماله، فامتنع أحد طلابه عن الأكل تورعا، غضب أبو الربيع غضباً شديداً على هذا التلميذ، ولما كان بالطريق وهو راجع إلى مركز حكمه وإقامته - إيبناين - قال لأبي محمد بن عبدالله التميجاري: مره فليلحق ببيت أبيه - يعنى الطالب الذي تورع عن الأكل ... فقال له أبو محمد: إن لم تأثم أنت فلم يأثم هو، فطاطأ الشيخ رأسه حتى كاد يصل قربوس السرج، واذعن للحق، واستمع إلى النصيحة المخلصة ...

وكان إلى هذه الشدة في دين الله، وهذا التواضع والحياء، وهذا الرجوع إلى الحق، كثير البر، جم الصدقة، متواصل العبادة ؛ وفي رمضان يجمع إليه خيار المسلمين مثل العلامة طاهر بن يوسف وغيره، فيصومون عنده ويتعاونون على مذاكرة العلم ؛ والتعرف

على أحوال المؤمنين، والقيام بأنواع مختلفة من العبادة.

جمع بين الإمارة والقضاء والتدريس، وكان يوزع وقته بين هذه المهام فلا يؤثر قسما منها على القسم الآخر..

إذا صلى العشاء الآخرة وتنفل بما شاء الله، افتتح مجلس الدرس للطلاب إلى هون من الليل، ثم يذهب إلى داره، ويصطحب معه محمدا ابن زكرياء البغطوري ومحمد بن يفون فيقرأ عليه احدهما حتى يفتر، ثم يقرأ الآخر إلى آخر الليل، فيقوم إلى الاشتغال بالصلاة، فإذا صلى الفجر اشتغل بالدراسة حتى تطلع الشمس، فيفتتح مجلس التدريس، فإذا أتم التدريس جلس للقضاء والأحكام إلى الزوال، فيقوم ليشتغل بالصلاة، حتى قال بعض خواصه المتصلون به: " لا ندري متى ينام " ؟

أبو يحيى

زكرياء بن ابراهيم الباروني [62]

علم من أولئك الأعلام الذين يهتدي بهم الضال، ويثبت الحيران، ويلجأ إليهم الضعيف، جمع إلى غزارة العلم، وقوة الإرادة والشدة في دين الله، كرما مطبوعاً، وحيا للخير متأصلا، ورغبة ملحة في نشر العلم، وهداية الناس إلى دين الله السوى، فقد اجتمع في تلك النفس المؤمنة الصادقة كل الصفات والمزايا التى يودعها الخالق في بعض خواص خلقه لأداء رسالة في التاريخ، لا يؤديها كل أحد، وقد تحمل أعباء تلك الرسالة، واستجاب له حتى أولئك الذين شذوا عمن قبله في أغلب المملكة الليبية، ودانت له الدنيا، وأعطى بسطة في العلم والمال 63.

نعم لقد أعطى بسطة في المال حتى استطاع أن يفيض به على جميع الجبل، ولم يبق بيت من " ككلة " إلى " وازن " لم يدخله مال أبي يحيى زكرياء.

فهل تحصل على هذا المال بالطرق التى يعرفها الحكام في التاريخ القديم والحديث ؟: وسائل غير شريفة، وطرق ملتوية، واستغلال نفوذ، ورشاوي وهدايا ... إلى آخر ما هنالك من وسائل الابتزاز التى يعرفها ذوو السلطة المنحرفون عن سبيل الله.

إن أبا يحيى لم يأخذ مليما واحداً عن طريق غير شريف، ولم يرزأ الأمة في قليل ولا كثير، ولم يجد قيد أنملة عن طريق أولئك السلف الذين لم ينحرفوا عن الطريق اللاحب الذي تركه محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، ثم سار فيه أبو بكر فعمر، فالصفوة المختارة من عباد الله المؤمنين.

كان أبو يحيى ينفق على الأقسام الداخلية في مدرسته العامرة التى تشتمل على عدد من الطلاب، يتراوح بين الخمسين والمائة طالب، وكان لا يزوره زائر ولا يسمع بأحد ابتلى بضيق الرزق، وأصيب بالحاجة، إلا نفحه من كرمه، وواسى جرحه بماله، وكان الناس إلى مشاهدتهم لهذه الأفعال الكريمة والنفقات الباهظة المتتابعة يعرفون سيرته واستقامته وعفته، فلذلك كانوا يختلفون في طريقه حصول الشيخ على هذه الأموال الوافرة، يقول بعضهم: إنه عثر على كنز جاهلي، ويقول بعض: إن معه الإسم الأعظم، فهو يستطيع أن يرد الحجر ذهبا، ويرى آخرون ؛ إنه عالم في الكيمياء – على حسب ما يظن في الزمن القديم أن الكيميا تستطيع أن تستخرج من النحاس أو غيره من المعادن ذهبا وهاجا – أما أكثر القوم واقعية فقد سأل الشيخ عن مصدر ثروته ؛ فأجابه بالحق الصراح:

لقد قال له: إنه اكتسب هذا المال من التجارة، ولا سيما في أيام الشدة، فهو رجل يعرف كيف يعمل، ويعرف موارد الكسب الحلال، إنه لم يعثر على كنز، وليس معه اسم الأعظم، ولا علم بالكيمياء، ولا شعوذة يستغل بها الأفكار الساذجة.

كان يقوم بمهمة التدريس إلى جانب قيامه بمهام الحكم والفتوى، وكان بمدرسته ما يزيد على ثمانين طالبا، وفي إحدى سنوات الجفاف التى كثيراً ما تصيب ليبيا، بلغت فيها الشدة مبلغاً أثرت على طلابه الذين ينفق عليهم في مدرسته العامرة، وتذاكر الطلاب النجباء هذه الحال، وظنوا أنهم اثقلوا على شيخهم في هذه السنوات العجاف، فقرروا أن يتفرقوا، وأن يلحق كل واحد منهم بأهله وبلده، حتى تنقضى هذه المحنة، وتبدل هذه الحال، ويغدق الله نعمته على العباد..

وسمع الشيخ بما اتفق عليه طلابه، فأمر أن يقدم إليهم الطعام من غير زيت، وحين حضر الطعام، أمر أحد الطلاب أن يأخذ إناء ويحضر الزيت من المخزن، وذهب الطالب النشيط وفي يده وعاء الزيت – وكان في المخزن مجموعة من الأزيار، فكشف عن الأول ليأخذ الزيت ولكنه وجد الزير مملوءاً مالا، وكذلك انتقل إلى الثاني، حتى كشف عن مجموعة منها، ثم خرج إلى زملائه، فقال له الشيخ: أخبر رفاقك عما رأيت، فلما أخبرهم، قال لهم الشيخ: لقد سمعت بما قررتم من الافتراق، وهذا المال الذي أخبركم عنه زميلكم إنما جمع لينفق به على طلاب العلم من هذه المدرسة، ولو ذهبتم أنتم، لأنفق به على غيركم، كما أن بقاءكم هنا لا يثقل علىَّ، ولا يؤثر على حياتي. واطمأن الطلاب إلى ما رأوا وما سمعوا، واستمروا في كفاحهم العلمي.

وكما كان عالما ومؤمناً وكريماً وقوياً في الحق، كان حريصاً على المحافظة على أمته ووطنه، يذود عنها في شجاعة واستبسال. حاول أبو يحى بن إسحاق الميورقي عدة مرات أن يحتل الجبل،

بعد ما احتل أغلب شمال إفريقيا، وخرب ما وصلته يده من عمران، ولكنه رجع في جميع تلك المحاولات بالفشل الذريع، وكل ما استطاع أن يفعل في بعض تلك الهجمات، هو التخريب، وذلك العمل الذي لا يقوم به إلا المتوحشون من الناس. كون مرة جيشاً كبيراً، وقصد مدينة الجبل " جادو" وكان يريد أن يحتلها من مدخلها الطبيعي: من جهة الشمال، هذا المدخل الذي تستلقى عليه في فتنة وجمال مدينة " جناون " الرائعة، فلاقاه الأبطال المغاوير، الذين أعدهم أبو يحيى لمثل هذه المهمة، فرجعت جيوش الميورقي منهزمة، ولكنه رغم هزيمته استطاع أن يوقد النار في تلك الحدائق الغناء التى تسقيها عين " تموقت "الغزيرة،التى تندفع إليها مع شلال "القصب"64لفاتن الجميل.

واحترق في هذه الحدائق ما يزيد عن اثنى عشر ألف شجرة زيتون خاصة، وعدد غير قليل من الأشجار الأخرى، وأصبح مكان تلك الحدائق يسمى بالحاريق، إلى يومنا هذا.

ووجه " الميورقي " حملة أخرى إلى عاصمة جبل نفوسة منذ عصور قديمة، إلى المدينة العظيمة – مدينة " شروس " التى لا تزال آثارها تشهد بعظمة الإسلام في تلك العصور، وتوجه إليها مع مدخلها الشمالي، كما توجه إلى " جادو " وكان يعتقد وهو يندفع بجيوشه وسط هذا المدخل بين الجبال، أن المدينة العظيمة أصبحت بين يديه، ولا سيما وهي تنبسط على السفح، فتصلها الخيل دون عناء، ولكن الابطال المغاوير الذين كانوا يترصدون حركات العدو من المدينة الجاثمة على القمة العالية الشرقية للوادى التى تسمى " الجزيرة " انقضوا في خفة الليوث على هذه

الجيوش، التى بدأت تتعثر بين مسالك الجبل، وامتلأت قلوب هؤلاء المهاجمين بالرعب، فولوا الأدبار، لا يلوون على شئ.

وكم كانت ظريفه تلك الحيلة التى لجأ إليها سكان هذه القرية الضارية في الهواء تطاول النجم وتغازل القمر.

لقد خطر للميُّورقى أن يعاود الكرة، وأن يهجم هذه المرة على هذه القرية التى تسمى الجزيرة، والتى روعت جنده في يوم من الأيام، فيضربها الضربة القاضية، يستطيع من بعدها أن يستمر في حروبه دون خوف، فجهز جيشاً،وجاء به إلى سطح هذا الجبل الذي تقع في قمته الجزيرة الصغيرة الضاحكة، وأطال الحصار، واجتمع شباب القرية يتداولون الأمر، وفكروا في حيلة لعلها تعتبر أبرع حيلة قام بها المحاربون في التاريخ، وفي ليلة شديدة الظلام انفلت جمع من شباب القرية، وأخذوا مجموعة من الجمال وحملوها حطباً، ولما اقتربوا من جيش العدو الهاجع آمنا مطمئنا إلا عددا من الحرس منبثين هنا وهناك، يداعب النوم أجفانهم، ويلوى أعناقهم، وجه أولئك الفتية أعناق الإبل إلى معمعة الجيش، وفي خفة ولباقة أشعلوا النار في الحطب الذي على ظهورها، ثم انفلتوا هاربين وأحست الجمال بالنار تلسع ظهورها، فاندفعت بما يملك من قوة محدثة جلبة ورغاء في ذلك الظلام الحالك، واستيقظ الجيش على هذا الدوي العظيم، والاندفاع العنيف، والنار المشتعلة، فظن القوم أنهم أحيط بهم، واندفع كل واحد مهم إلى سلاحه، يقتل من لاقاه أو أحس به، ويركن إلى الفرار ...

وأصبح الصباح، فإذا بعدد غير قليل من جثث القتلى، وإذا بأموال وسلاح وعتاد خلفه الجيش المنهزم الذي قضى على نفسه بنفسه،وجاء أبو يحيى زكرياء وفتيانه فدفنوا الموتى من الأعداء، اما ما ترك العدو من أموال، فهي لا تحل لهم، ولذلك فقد رأى أكثر المشائخ في ذلك الحين: أنه يجب أن تحرق، وأن لا يتركوا شيئاً من المال الحرام يدخل إلى جبلهم، هذا الجبل الذي لا يزال يحتفظ بطهارة الإسلام.

لست أدري هل استوحى شباب هذه القرية حيلتهم البارعة من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق، أم أنها خطرت لهم دون أن يرجعوا إلى تاريخ الإسلام الحافل بالعظمة والبراعة والفكرة ...

صمد أبو يحيى زكريا ء الباروني لهجمات الميورقي ولغيرها من الهجمات، ورد بعضها بالعنف ورد بعضها بالحيلة، ورد بعضها بالصلح، إنه حافظ على هذا الوطن العزيز الأبي، فلم تدنسه أقدام البغاة الذين لا يتقيدون بدين ولا خلق ولا ضمير ...

وذهب الميُّورقي إلى ربه بما قدمت يداه، وحفظ التاريخ هذه الأمجاد..

أمجاد الإيمان والشهامة والعفة لهؤلاء الناس الذين وضعت في أيديهم أمانة الله فرعوها حق رعايتها، وأمانة الأمة فحفظوها من أنفسهم، وحفظوها من عدوان المفسدين.

عدالة الإسلام
في سير الحكام

حدثتك أيها القارئ الكريم في الفصول السابقة عما يقرب من ثلاثين بطلا من أبطال الإسلام، من الذين تولوا الحكم في ليبيا، أو في بعض أجزاء ليبيا. ولم أقصد بالحديث عن هؤلاء الأبطال، أن أقص عليك تراجم حياتهم، أو أن أعرفهم لك تعريف المؤرخ الذي يعنى بكل شأن، ولا أن أربط بين تسلسل الأحداث التاريخية، لست أقصد شيئاً من ذلك، لأن هذا الكتاب لم يوضع للتاريخ، وإنما قصدت أن أعرض عليك صوراً من تاريخ الإسلام، في سير أبطاله، تجد فيها العلم والبطولة، وتجد فيها الإيمان والشهامة، وتجد فيها الاستقامة والعفة، وتجد فيها التضحية والإيثار، وتجد فيها صوراً من حياة المسلمين كما كانوا في الصدر الأول، وتجد فيها الوقوف عن حدود الله.

تلك الصور الرائعة التى تمثل العدل المطلق، والمساواة المطلقة بين أبناء الأمة، لا يرتفع فيها شخص إلا بإيمانه، ولا ينحدر فيها إلا بعصيانه.

ولقد كنت أنقل هذه الصور على بساطتها وأنا آمل أن يقرأها اثنان من الأمة: الأول رجل وجد منصبا في الدولة، وكرسيا

للحكم، وأعطى له حق التصرف في شأن من شؤون الشعب، وأملي في هذا الرجل الذي وضعت في عنقه أمانة من أمانات هذه الأمة – سواء كانت صغيرة أو كبيرة، وأملي في هذا الرجل أن يجد في هؤلاء الناس قدوة حسنة، فيتخذ منهم مثلا يحتذيه، ويجعل من سيرتهم منهاجاً يسير عليه.

أما الثاني فرجل يقف في مصاف الشعب العادي، ليس له من الحياة والسلطان أو المال، ما يرفعه في أعين من يزنون الرجال بالمادة، وأملي في هذا الرجل أن يتخذ هو الآخر عبرة، وأن يعرف أن كرامة الإسلام تمنعه أن يرضى الظلم، وأن يسكت عن الانحراف عن جادة الله، وأن الحق يخوله أن يحاسب أولئك الذين يعبثون بمقدراته، وأن الإسلام يجعله في صف واحد مع أكبر ذي سلطة في الدولة، وأعظم ذى ثروة في الأمة، لا يفضلانه بشئ أبداً إلا أن يكون تقوى لله وعملا بدين الله.

وتاريخ صدر الإسلام في زمن النبوة والخلافة الرشيدة ليس فقيراً من أمثال هذه الصور التى أنقلها لك، من تاريخ جانب من جوانب الأمة، في جزء صغير من الوطن الإسلامي الفسيح، ولكن دعاني إلى أخذ هذه الشواهد من غير ذلك العصر الحافل بالمجد والعظمة سبب بسيط، وذلك أنني كثيراً ما أتحدث مع الناس عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجيبني البارعون في النقاش منهم: " ذلك شخص عصمته الرسالة، وأولئك قوم شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستمعوا إلى الوحي وهو ينزل من السماء، فالمسافة بين طبيعة الحياة عندهم وطبيعة الحياة عندنا شديدة البعد.

ولقد يخيل لبعض الناس أن في هذ المنطق ظلا من الحجة، ولكي يذوب هذا المنطق ويضمحل ذلك الظل، أوردت هذه الشواهد التى تنتثر خلال عشرة قرون من تاريخ الإسلام، وبين كثير من ظلم الحياة ومعاكسات الزمن.

وكما استطاع بعض هؤلاء الأبطال أن يسيروا بسيرة الإسلام النقية في أى عصر من عصور التاريخ، يستطيع اليوم أي رجل يتولى شأنا من شؤون الأمة، أن يؤدي أمانتة بإخلاص، فلا يعبث بمالها ولا بوقتها، ولا يستغل جاهه ولا مركزه، إلى آخر ما هنالك مما يجب أن يكون عليه الحاكم القوم الذي يؤمن بشريعة الإسلام، ويتحلى بما دعا إليه من خلق كريم.

وكما يجب أن يكون صاحب الأمر قويا، يجب أن يكون رجل الأمة – أى الفرد العادي – مؤمنا بدينة، مؤمنا بحقه الذي خوله له فاطر السموات والأرض، فلا يرضى المهانة، ولا يسكت على ذلة، ولا يوافق على ما يخالف أمر الله، فإن بدا لصاحب الأمر أن ينحرف، وجب أن يقف له رجل الأمة بالمرصاد، يقوَّم أعوجاجه بالنصيحة والإرشاد، فإن لم يجد النصح قومه بالسيف كما قيل لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

إن هؤلاء الأبطال الذين حدثتك عنهم، حكموا ليبيا أو جزءاً من ليبيا، وكان فيهم من بويع بالخلافة، فدان له ما بين " القيروان وسرت "، وكان منهم من كان عاملا لخليفة، وكان منهم من تولى الحكم باختيار أصحاب الرأي والشورى، ولكنه لم يبايع بالخلافة، ولم يكن تابعا لدولة من الدول الأخرى، فهو أمير مستقل، يحكم

أغلب البلاد الليبية أو بعض أجزائها، فهم يتفاوتون تفاوتا عظيما في مدى السلطة المخولة لكل واحد منهم، ولكنهم جميعا يتفقون في شئ واحد ... يتفقون في هذه السيرة العطرة التى يعطي فيها صاحبها أكثر مما يأخذ.

لقد عرف هؤلاء الذين تولوا الحكم في ليبيا من رجال الإباضية، أنه لم يسند إليهم الحكم ليستغلوه لأنفسهم، ولا ليتخذوا منه سلطانا، ولا ليجمعوا به ثروة، ولا ليتعالوا به على الناس الذين أولوهم ثقتهم،ووضعوا بين أيديهم هذه الأمانة الغالية.

وحافظ أولئك الحكام على هذه الثقة، فبذلوا من جهدهم، ومن تفكيرهم، ومن حبهم للمسلمين، ومن وقتهم الثمين، ومن مالهم الخاص الذي اكتسبوه من الأعمال الحرة – قبل أن يشتغلوا بأمور المسلمين أو ورثوه عن الجدود –بذلوا من ذلك كله ما يطلبه الإسلام من المؤمنين الصادقين ؛ ولم يأخذوا من هذه المراكز الهامة يوم انفصلوا عنها بالاستقالة أو الموت غير الذكرى العطرة عند الناس. وعند الله الجزاء الأوفى ...

إنك مهما تتبعت حياتهم فلن تجد لأحد منهم ذلك النعيم الذي يتقلب فيه أصحاب السلطة الظالمون، ولن تجد عندهم هذه الحواشى التى تخون الله والحاكم والأمة، فتقلب الحقائق وتشوه وجه الحق، وتنفخ الكذب والزور في أذن الحاكم ليغتر ويحيد عن سبيل الله، فإذا حاد فقد وجدوا ما يطلبون، وحققوا ما كانوا به يحلمون ...

ولن تجد عندهم القصور الشامخة، والجواري الحسان، إنهم كانوا يعيشون على شظف من العيش كما عاش خير الخلق عليه السلام، وكما عاش خلفأوه الأتقياء من بعده، لا يشبع الواحد منهم في حياته الطويلة وكفاحه المستمر، بالخبز والزيت، وليس ذلك للحاجة والفقر، ولكنه لقوة الإرادة والتغلب على وسوسة الشيطان والهوى..

ولقد يسأل القارئ الكريم عن أسباب هذه الاستقامة التى وجدت في جميع حكام الإباضية تقريباً، لا يشذ عنهم إلا النزر اليسير؟ وللجواب عن ذلك نحيله إلى القواعد التى اعتمدها المذهب الإباضي في قضية الحكم، غير متأثر بعواطف الشيعة، ولا عنصرية الأموية، ولا ربكة الشعوبيين ؛ فالمسلم الإباضي لا يعترف بحق ا لوراثة في الحكم، ولا يصدق بقضية العنصرية، في اختيار الحاكم، ولا يطيع من لا يطيع الله ويقيم حدوده ويحكم بما أنزل ...

ولذلك فهو أولا يختار من يضع بين أيديهم مقدرات الأمة، ويتبني هذا الاختيار على الكفاءة المطلقة، الكفاءة العلمية والكفاءة الدينية، والكفاءة الخلقية، والكفاءة العقلية، ثم هو لا يقرعلى الحكم من ينحرف عن صراط الله المستقيم: الذي سار عليه النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون، والسلف الصالحون المصلحون.

فكان أولئك الناس الذين يقع عليهم الاختيار لتحمل أعباء الحكم، يجهدون أنفسهم للقيام بالواجب، والمحافظة على

السيرة المرضية، وهم مع هذا الحرص يخشون عذاب الله من التفريط، ويخافون نقد الأمة من التقصير، فإن الحاكم الذي يعجز عن القيام بالمهام التى أسندت إليه – إما ضعفاً عنها، أو انحرافاً عن سبيل الله - يجب عليه أن يتخلى عن هذه المسؤولية التى لم يستطع تحملها، فإذا خطر له أن يستمسك بها على هذا القصور أو التقصير، وجب قتاله وقتله، وإسناد الأمر إلى من هو أهله...

حدثتك إيها القارئ الكريم عن هؤلاء الرجال الذين أسند إليهم الحكم في هذا الوطن الكريم ؛ ولم اخترهم لشرف الحكم كما قد يتبادر إلى ذهن بعض القراء الكرام، فأنا لا أرى في الحكم مظهراً للشرف، ولا مدعاة للفضل، إن الحكم في نظري ينقسم إلى قسمين: -

` أحدهما: هذا المظهر هو أحقر عمل يسعى إليه إنسان يؤمن بدينه، ويؤمن بخلقه، ويؤمن بإنسانيته ... أما أولئك الذين يزدحمون عليه في إصرار فهم حمقى، أعوزتهم العظمة في أنفسهم، فراحوا يلتمسونها في سلطة الحكم، ومهما بلغ أولئك الرجال من العظمة في ظنهم، فهم أحقر من أن ينظر إليهم التاريخ الحق نظرة التقدير والتعظيم، فإن العظمة لن تكون أبداً بمبالغ وافرة من المال، تؤخذ من الشعوب، ولا بأرواح كثيرة تزهق ظلماً وعدواناً، ولا بقهر وجبروت وطغيان مسلط على الضعاف ؛ ولقد وصل الفراعنة إلى ما وصلوا إليه من جمع الثروة واستعمال السلطة، ولكنهم لم يكشفوا بكل ما فعلوه إلا عن أنفس مريضة تتطلب الخلود في دنيا الفناء ....

ولقد انحط الفراعنة إلى أن ادعوا لأنفسهم الألوهية، فزعموا أنهم قادرون على الإماتة والأحياء. وإذا ساغ للعقل الفرعوني أن ينحط إلى هذه الدعوى التى يعرف هو نفسه أنه كاذب فيها، فإن العقل الذي يحترم نفسه بعد هدايات الله المتواليات على طرق انبيائه، وبعد استنارة العقل البشري بما يجد كل يوم من الحقائق، يجب أن يرتفع عن الأوهام والأضاليل ...

على أن العقل الفرعوني السخيف الذي يضفى على نفسه عظمة المظهر لأنه يفتقد في عظمة الحقيقة.. لايزال يحيا في هذا العصر، عصر العلم والمعرفة.. ومن المؤسف أن عدداً غير قليل من هذه الأشكال الجوفاء لا تزال تسيطر على مقدرات الأمة الإسلامية في بعض دولها.

ولست أدري والله ما هي الأعذار التى يلجأ إليها هؤلاء الناس ؟ وهم يؤمنون برسالة محمد، ويتلون كتاب الله، ويدرسون سنة رسوله عليه السلام، ويعرفون سيرة السلف الصالحين.

ما يقول هؤلاء – وهم يحيدون عن النهج القويم الذي سار عليه أمناء هذه الأمة ؟

وما يقولون – وهم يبتزون أموال الأمة – التى جعلهم الله قياماً عليها- بغير حق، ويتصرفون في دمائها بغير عدل، ويفصلون مشاكلها بغير علم ؟ ...

ما يقول هؤلاء الحكام المسلمون ؟ الذين وضعت بين أيديهم مقدرات الأمة، فأراقوا كرامتها في مجالس السكر، وموائد القمار، ودور البغاء الظاهر والبغاة الخفى ؟..

ماذا يقولون حين يأخذون من مرافق الدولة ليضعوا في مرافقهم، ويسرقون من مال الأمة ليضعوا في أموالهم، ويعبثون بمصلحة الأمة لخدمة مصالحهم ؟

ماذا يقول هؤلاء الحكام الذين منحوا الثقة ليحافظوا على أمانة الله، وعلى دين الله، فإذا بهم أول من يحارب أحكام الله، ويعطل حدوده، ويعبث بالأمانة التى بها أسندت إليهم مراكز الحكم ؟

ماذا يقول القائد الذي ينعق فتتبعه مجموعة بشرية من مصاصي الدماء، ثم يهجم على بلد مسلم آمن، فيتلف الأموال، ويزهق الأرواح، لا لشئ إلا ليتمرغ في كراسي الحكم، ويعيث أعوانه في البلاد فساداً ؟ !.

ماذا يقول هؤلاء الذين لا يفتأون يدبرون الانقلابات، لا للاستقرار والتنظيم، واتباع أمر الله ! ولكن للتحكم في الأموال والأرواح، فإذا ما أتيح لأحدهم النجاح، حكم حكم فرعون، فاستذل عباد الله، وسرق مال الله، وسمح لأعوانه بارتكاب الفظائع، وأطلق يده في الانتقام، فقتل الأرواح دون حساب، وسجن الأبرياء دون جريرة ؟

ماذا يقول هؤلاء المرضى، الذين لم يجدوا العظمة في أنفسهم، فراحوا يبحثون عنها في المظاهر ؟ ...

وإنه لحق على الأمة المسلمة في مجموعة وطنها أن تطيح بهؤلاء الخونة الذين، خانوا الله، وخانوا رسوله، فلم يرجعوا إلى دين الله في أعمالهم؛ وأن تحاسبهم حساب الخبير القدير، فلا تمنح كراسيها إلا للأقوياء على اتباع الحق، ولا تضع أموالها إلا بين

أيدي الأمناء على شريعة الله، ولا تحَكَّم في مصيرها إلا المخلصين الذين يبرهنون على إخلاصهم،وأن تجبر هذه الشرائم – التى تنعق في كل ركن من أركانها باسم دولة _ على التخلى عن هذا الاسم، لتصهر هذه الدول الهزيلة المتناطحة في دولة إسلامية قوية، لا ترهب عدواً ولا تتملق أقلية كافرة تعيش في وسطها كما تعيش الجراثيم، وتعمل كما تعمل الطوابير الخامسة في اصطلاح السياسة.

` أما الثاني: فهو هذه التضحية الكاملة التى يقدمها الحاكم للأمة، إنه الشعور بالواجب المقدس الذي يتعالى فيه الشخص عن مكاسبه المادية، ومصلحته الشخصية،وينسى فيه نفسه وماله وأهله، ليقدم للأمة ما يملك من جهد وفكر ووقت. والمؤمن حين يتولى الحكم من هذا السبيل، يجب أن يزيل من ذهنه أول ما يزيل: المتعة والراحة والسلطة والمال. لأنه خادم أمين مخلص، وخادم القوم سيدهم.

فالسعادة التى يملكها حاكم الأمة المسلمة، إنما هي في نفسه لا في مهنته، والسيادة النفسية لا تتنافى مع خدمة الناس، بل لعلها لا تكون سيادة حقاً إلا عندما تتجلى في هذا الجانب من الأعمال المبينة على التضحية ونكران الذات.

ولذلك فما من مؤمن حريص على إيمانه، حريص على كرامته،يسعى إلى أن يلي أمور الناس أو يقبلها إذا عرضت عليه – اللهم إلا في الحالة التي تحتاجه الأمة، ويكون قبوله لهذا الأمر ضرورياً، وفراره منه يؤدي إلى أضرار تلحق بها، فحينئذ يكون

واجباً من الواجبات التى لا يحل له أن يتخلى عنها، وفي تاريخ الأمة الإسلامية أمثلة رائعة من ذلك، فقد قبلها الصّديق رضى الله عنه مكرها، بعد أن حاول أن يفر منها ويضعها على كاهل الفاروق أو أمين الأمة.

وقبلها علي بن أبي طالب مكرها وهو يقول للقوم: لأن أكون وزيراً خيرلكم من أن أكون أميراً. وقبلها أبو الخطاب عبد الأعلى بعد أن خير بينها وبين القتل، وقبلها أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني بعد أن أقنعته العجوز أن إعراضه عنها سيكون سبباً لدخوله النار.

وقد تحمل الصّديق أعباء الإمامة وهو يحاول أن يعمل كأي فرد في السوق، ليعول أفراد أسرته الكبيرة، وبقي الفاروق اثنتى عشر سنة في الخلافة فلم يتجاوز بذخه في الطعام الخبز والزيت، وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يكنس بيت المال كل جمعة، وعندما استعارت ابنته حلية من خازن بيت المال تتزين بها لمناسبة عارضة ثم تردها، غضب علىً على الخازن وهم بقطع يد ابنته وقال: لولا أنها استعارتها لكانت أول هاشمية تقطع يدها.

وكان عمر بن عبدالعزيز يعيش في زمن الرغد الذي لا يوجد فقير تدفع له الزكاة، ومع ذلك فقد كان يطفئ السراج إذا انتقل الحديث إلى شأن غير شؤون الأمة، مخافة أن يرزأ الأمة في قطرة من الزيت. وتوفى عبدالوهاب بن رستم الذي كان يحكم الجزائر وتونس وليبيا بعد عشرين سنة من الحكم، فأحصيت تركته

فبلغت سبعة عشر ديناراً، وحكم أبو زكرياء ستين سنة، وولد له طفل فلما طلبت منه زوجته النفساء أن يبعث إليها بقليل من الزيت للاستصباح ودهن الطفل، اعتذر بأنه ليس لديه زيت ورجاها أن تستصبح بالحطب، وتغسل الطفل بالماء.

هؤلاء الأبطال، ومن سار بسيرتهم، وانتهج طريقتهم، هم أمراء الإسلام، ولم ينقص من الصّديق أنه كان يعمل في السوق كما يعمل أي فرد آخر من الأمة، ولم ينقص من عظمة الفاروق أنه لم يتجاوز في أكله الخبز والزيت، ولم ينقص من عمر بن عبدالعزيز أنه لم يتخذ عرشاً كما اتخذ بقية ملوك بني أمية،ولم يلغ في أموال الناس ودمائهم،كما ولغ غيره من طلاب الدنيا.

إنني أكتب هذه الكلمة، وأنا ارجو أن يجد فيها القراء الكرام بعض العبرة وبعض القدوة، وأن يدرك أولئك الذين وضعت أمور المسلمين بين أيديهم في مختلف مرافق الحياة أن العظمة إنما تكون في النفس لا في المظهر، وأن متع الحياة مهما كانت مصادرها وشيكة الزوال، وأن يتساموا بأخلاقهم وأعمالهم عن دنس الأنانية، ورجاسة المادية، ووضر الانتهازية والانتفاعية، فإن تلك الأخلاق بقايا من الصفات الحيوانية التى علقت بالإنسان ينميها النظر القصير.

إنه يجب على كل من ولى أمراً من أمور المسلمين أن يعرف أنه إنما يأخذ مرتباً مقابل أن يدفع للأمة كل طاقاته، بما يملك من علم وقوة وعمل، لا يدخر وسعاً، ولا يبقى جهداً، وأنه ليس له أي

حق في أن يضيف إلى مرتبه الذي جعل أجراً له على جميع قواه، لا يحل له أن يأخذ شيئاً من الأمة بأي وسيلة من الوسائل زيادة على ذلك، وأن أي تقصير في البذل، أو أي زيادة في الأجر – بعد الأجر المقرر – إنما هو خيانة وسرقة.. فإذا لم يستطع الإنسان أن يقوم بمهمته، أو أن يصون يده، فيجب عليه أن يتخلى لمن يستطيع ذلك ...

كفاح الإباضية للظلم في ليبيا

تنقل الكتب، كتب التاريخ، أن الإباضية قاموا بعدة حروب، وعدة ثورات، فيما بين القرن الأول والقرن العاشر الهجري، فلماذا أشعلوا نيران هذه الثورات، وقاموا بتلك الحروب ؟

وفي هذا الفصل أريد أن أعرض على القارئ الكريم أهم تلك الحروب وتلك الثورات، وأعرض عليه أسبابها ونتائجها والغاية منها.

عين عبدالرحمن بن حبيب أخاه إلياس عاملا على طرابلس، فقبض إلياس على عبدالله بن مسعود التجيبي وقتله خوفا من الإباضية، فغضب الإباضية وثاروا لهذا الظلم، فبايعوا الحارث بن تليد إماما، وأخرجوا عمال بني العباس، وكل ما فعلوه أن قتلوا رجلا واحداً مقابل صاحبهم عبدالله التجيبي.

أرسل عبدالرحمن بن حبيب من اغتال الحارث بن تليد وقاضيه عبد الجبار المرادي، فغضب الإباضية لهذه الخيانة، وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بالإمامة، وقلبوا نظام الحكم، دون أن يريقوا قطرة دم واحدة، وكل ما فعلوه أن خيروا عامل العباسيين بين البقاء فرداً من الأمة، أو السفر آمنا موفوراً.

تغلبت " ورفجومة " على " القيروان " وقتلت حبيبا بن عبدالرحمن عاملها، وارتكبت من الفظائع ما يبرأ منه الإسلام، فانتهكت الحرمات، وربطت الدواب بالمساجد، واعتدى المعتدون على النساء في الطرقات، فاستغاث بعض أهاليها بالإمام أبي الخطاب، فجهز جيشاً طهر به مدينة عقبة من عبث العابثين.

ارتكب ولاة الأغالبة ما يبرأ منه الإسلام في ليبيا، فكانوا يأخذون الأموال دون حساب، ويريقون الدماء في إسراف، ويتنقلون بين الأحياء المسلمة الضاربة في المراعي الشاسعة، فينتهكون حرمة الصبايا الحرائر والغيد المصونات، دون رادع من خلق أو دين، وغضب الإباضية من هذه الجرائم وهي ترتكب فيهم، فبايعوا أبا حاتم الملزوزى بالإمامة، فطرد هؤلاء المعتدين، وأزاح عن الأمة ذلك الكابوس الثقيل، ولما تفقد الإمام القتلى بعد انتهاء أول معركة له مع أولئك البغاة الظالمين ؛ وجد بعض القتلى من جيش العدو قد سلبوا، فجمع جيشه ثم قال لهم: إن لم تردوا الأسلاب تركت أمركم، وسارع الناس إلى رد الأسلاب، وأعلنوا التوبة..

إن هذه الحرب لم تشرع للغنيمة، وإنما شرعت دفاعا عن النفس والعرض والمال..

ارتكب الولاة الظالمون في القيروان من الإرهاب والقتل وأخذ الأموال ما يستفز الحليم، فاستغاث بعض أهلها بأبي حاتم، فجاءهم وحاصر القيروان مدة تزيد عن السنة، وحينما دخلها بعد الحصار الطويل أمن الجميع، أما الجنود المرتزقة الذين كان يجمعهم الأغالبة من كل مكان ليعيثوا بهم في الأرض فساداً،

فقد أطلق أبو حاتم سراحهم، ليرجعوا إلى أهليهم، وزود كل خمسة منهم بعصا وموسى وقربة ماء، وأعطى لكل واحد منهم رغيفا من الخبز ؛ وهذا الموقف لم أسمع بمثيل له في تاريخ البشرية.

هاجم العباسيون أئمة الإباضية عدة مرات من الشرق، فلم يرد أولئك الأئمة عن دفاعهم في الميدان، وكلما انتصر الإباضية وقفت أعمالهم الحربية عند انتهاء المعركة، وكلما انتصر المهاجمون المعتدون ارتكبوا من الفواحش ما تقشعر منه الأبدان، فلم يسلم منهم مال ولا عرض، ولم ينج منهم فار ولا مسالم،ثم تعدوا ذلك إلى المثلة بالقتلى، فاحتزوا الرؤوس، وبعثوا بها إلى القاهرة أو بغداد.

كان للأغالبة جند وافر من المرتزقة الذين لا دين لهم ولا ضمير وهم خليط من شذاذ العرب والبربر وغيرهم، وكانوا تعودوا النهب والسلب والغنائم في حروبهم، وعندما تطول مدة السلام يسأمون، لأن السلام لا يزيد في ثروتهم الحرام، فخرجت شرذمة منهم إلى الأحياء الضاربة حول طرابلس، وارتكبوا ما تعودوا أن يرتكبوه، فاستغاث المظلومون بالإمام عبدالوهاب الرستمي، وكان حينئذ مقيما في " ميري " إحدى قرى بني زمُّور " الرجبان اليوم " فجهز جيشاً وحاصر طرابلس حتى لان عمال الأغالبة للحصار، وعقدوا مع عبدالوهاب صلحاً بأن تكون طرابلس المدينة والبحر للأغالبة، وأن يكون ما عدا ذلك تابعاً للإمام عبدالوهاب.

سرق ابن طولون أموال الدولة من خزانة أبيه، وكون جيشاً من

مواليه، واتجه إلى المغرب، فمر ببرقة، وجاء إلى طرابلس، وارتكب من الفواحش ما يبرأ منه الإسلام، فاستغاث الناس من ظلمه بأبي منصور إلياس ؛ على أنه لم يكتف بما ارتكب، فبعث رسالة إلى أبي منصور يأمره فيها بتقديم الطاعة، ويهدده إذا هو لم يسارع بذلك، بأن يوطئ الخيل بلاده ويستبيح حرمه.

وجهز أبو منصور جيشاً، والتقى مع هذا الفتى المغرور في قصر حاتم، وانهزم المعتدون، وطار ابن طولون على فرس سابق، تاركا وراءه عدداً من القتلى وثمانمائة حمل من الذهب منتثرة في الميدان، فلم يأخذ منها أبو منصور وجيشه ديناراً واحداً يحتفظون به للذكرى، أو يضعونه في دار الآثار، وترك المال لمن يسعى إلى جمع المال، ورجع شهماً شريفاً، كما جاء شهماً شريفاً.

قرر إبراهيم بن الأغلب القائد المجنون الذي – لا يتورع عن أكل الرؤوس الآدمية أن يمر بالأراضي الليبية ليغزو مصر، وتوقع الناس المصائب التى تنجر عن مرور هذا المجنون، والجراد الذي يقوده، فاعترضه الإباضية بقيادة أفلح بن العباس في قصر " مانو " وحاولوا رده عن المرور بأراضيهم، ووقعت بينهم حرب طاحنة انتصر فيها الطاغية المجنون.

سعى خلف النكارى أن يستقل بجبل نفوسه، فلم يتمكن من ذلك، فجهز جيشاً وهجم به على أبي عبيدة عبدالحميد في مركز حكمه بجادو، وانتصر أبو عبيدة، فلم يزد أن منع جنده من أخذ الغنائم والإجهاز على الجرحى واتباع المدبرين.

بعد وفاة أبي عبيدة تولى الإمارة على ليبيا " ماعد المدينة "

العباس بن أيوب، وفكر خلف النكارى أن يعيد الكرة، فجهز جيشاً وهجم به على العباس، فانتصر العباس أيضا،ولم يزد على أن أخرج العدو من الحوزة أو من حدود المملكة، لم يحتز رأساً، أو يغنم مالا، أو يجهز على جريح، أو ينتقم من برئ إنها سيرة أسلافه المؤمنين، لا يحيد عنها.

وقعت بعد ذلك عدة حروب لا تزيد عن غارات توجه إلى جبل نفوسه الذي حافظ على استقلاله، غالباً مايكون القصد منها الاستيلاء على ما أمكن من الأموال. فكان أولئك الأبطال يردون تلك الغارات، ويصمدون لتلك الحروب، فينتصرون، وحينئذ لا يجد منهم أعداؤهم أي سوء بعد انتهاء المعركة، وقد ينهزمون فيجدون من أعدائهم كل عنف.

هذه أهم الحروب والوقائع التى قام بها الإباضية في ليبيا، وهي في جملتها وتفصيلها كفاح ضد عدوان يرتكبه عمال ظالمون لملوك ظالمين. ولو رجعت إلى هذه المعارك واحدة واحدة لو وجدت أن الإباضية لم يشهروا سيفاً إلا دفاعاً عن نفس بريئة تقتل، أو حرمة مصونة تنتهك، وأنهم في جميع هذه المواقف التى دافعوا فيها الظلم، وردوا العدوان لم يبدأوا أحد بقتال، ولم يرتكبوا شيئاً مما يخالف سيرة العدول من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فما حفظ التاريخ عنهم أنهم غنموا مالا، أو خانوا عهداً، أو أراقوا قطرة دم بعد أن تنتهي المعركة، وترجع السيوف إلى أغمادها، أو اتبعوا مدبراً، أو أجهزوا على جريح، أو احتزوا رأساً من الرؤوس التى بغت عليهم فظفروا بها، أو هتكوا حرمة لمسلم، رغم ما يرتكبه فيهم محاربوهم من طغيان وتجاوز

لأحكام الإسلام.

ولعل الحرب الوحيدة التى بدأوا بها وأعلنوا فيها القتال قبل أن يبدأهم أحد، هي الحملة التى وجهها أبو الخطاب عبد الأعلى إلى القيروان، ولكن الظروف التى حملت أبا الخطاب على هذه الحرب جديرة أن تحمل كل قلب ينبض بالإيمان أن يقوم، وأن تحرك كل سيف يدافع عن دين الله أن ينطلق إليها. فقد أحتلت " ورفجومةُ " القيروان بعد أن قتلت حبيب بن عبدالرحمن ابن حبيب، وليس هذا بالسبب الذي يحمل الإباضية على محاربتهم، ولكن ربط الدواب في المساجد، وارتكاب الفواحش علناً في الشوارع، واصطياد الحرائر أمام أعين الناس واغتصابها.

أعمال لا يقوم بها حتى المتوحشون من أعداء الله. فكيف بقوم ينتسبون إلى الإسلام ؟ فلما بلغت هذه المناكر التى تقع في مدينة وضع حجرها الأساسى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يصبر أبو الخطاب عن دفع هذا المنكر، وتطهير المدينة الصحابية من هذا الرجس ...

تلك هي الحقائق التاريخية للأحداث الحربية التى قام بها الإباضية في ليبيا.

وتلك هي الأسباب والغايات التى دعتهم إلى القيام. فما هو الموقف الذي ينتقده عليهم الدين، أو الشرف، أو المروءة ؟ وفي أي حركة من هذه الحركات يصح ما يقوله بعض المؤرخين المعاصرين من أن الإباضية يبحثون عن الفتنة، وما واتتهم فرصة للثورة إلا ثاروا ؟ !

إن الإباضيــة أبغــض الأمة لإراقــة الدماء، وأبعــد الناس عن أن يكونوا ســبباً في إشــتعال حرب، وحينما يضطــرون إلى ذلك بســبب العدوان الصارخ الذي يســلطه الجبابــرة، لا يزيدون عن رد هذا العدوان بأيســر سبيل، وبأقل ما يمكن من الأذى، وهم في كل ذلــك ينظرون إلى هــؤلاء المعتدين بنظرة الأخ إلــى أخيه المخطئ، يحــاول أن يــرد أذاه دون أن يلحق به أذى، وراجع أيهــا القارئ الكريم كتب التاريخ المطولة عن مواقف الإباضية ضد المعتدين عليهم، إقرأ ذلك حتى عند أشــد الناس بغضا لهم، مثل الأســتاذ الزاوي، فإنــك إذا تأملت حقائق التاريــخ وأحداثه وجدت فيه الصورة التى رســمتها لك، ولم يســتطع الأســتاذ الزاوي – مــع حرصه على تنقص هــؤلاء القوم – على أن يزيد عن كلمات ســباب يطلقها عليهم فيرميهم مرة بالبحث عــن الفتنة، ومرة بالتماس الثورة، وقد يرميهم دون خوف من الله بالمنافقين 65.

قــال لي أحد الإخــوان وهو يطالــع فصلا من فصــول الحلقة الأولــى من هذا الكتاب: إنك تدافع عن الإباضية في حرارة. فقلت له إن موقفي هو موقف الإباضية في جميع أدوار تاريخهم، إنهم لــم يبدأوا يوماً بالعدوان، ســواء كان ذلك في الميدان العســكري أو فــي الميدان العلمي. ولكنهم فــي أكثر الأحيان يقفون موقف الدفاع المشــروع الذي تدعوا إليه عزة الإسلام وكرامة الإنسانية، وليس ذلــك الدفاع خاصاً بالميادين العســكرية، فــإن طريقتهم فــي الدفــاع واحــدة ؛ لا بغــي ولا عــدوان، ولا ســلطان للغضب على نفوســهم وألســنتهم. وهم في دفاعهــم العلمي عندما يــردون العــدوان على الفكرة، أو العــدوان على المبــدأ، أو العدوان

علــى العقيدة، لا يتجاوزون فــي دفاعهم الحــدود للنقاش النزيه، والاعتماد على الأحــداث الواضحة من التاريــخ والبراهين البينة من الكتاب والسنة وسيرة السلف، أو الحجة الظاهرة من المنطق المعقــول، ثم هم في كل ذلــك لا يضيعون الفرصة على الخصم، ولا يغلقون في وجهه الأبواب، ولا يقيمون دون آراء غيرهم الحواجز، ولعــل علماء الإباضية بلغوا في إنصــاف المخالفين لهم درجة لم يبلغها علماء أي طائفة أخرى، سواء كانت دينية أو فكرية، والذي يطالــع أي كتاب من كتب الإباضية المطولة، لا ينتهي من قراءته حتــى يعــرف إلى جانــب آراء الإباضيــة آراء غيرهم مــن المذاهب الإســلامية، ويعرف الأقوال الراجحة عند الإباضية وعند غيرهم من المذاهب الإســلامية الأخرى، وليس ذلك في مقام الرد، بل في مقام البحث والتفصيل، وبســط المسائل وشرحها، واستخلاص آراء العلمــاء ونظرياتهم، وبينما يقف أغلب علماء الفرق الأخرى مــن الإباضية موقف المتحفز المســتوفز، المنكر لوجودهم، الجاحد لتراثهم الفكري القيم، يعاملهم الإباضية بكل تسامح وإنشراح صدر، إن الموقف العلمي بين الإباضية وغيرهم شــبيه كل الشبه بالموقف العسكري: تفهم وتسامح واحترام آراء، وتعامل إسلامي من جانب: وعدوان وجحود وإنكار من الجوانب الأخرى. ولســت أدري أى السبيلين أقرب إلى الخلق الكريم وأدنى إلى الحق، وأهدى منهجاً ومسلكا ؟!!!

ولعل الله ييسر لى السبيل للعمل، فأضع صورة للمقارنة بين الموقفين في بعض فصول هذا الكتاب.

كلمة الختام

اللهم إليك وحدك أرفع عملي.

وإليك وحدك أتجه بدعائي.

فلا تكلني إلينفسي فأهلك.

وأحفظني من الزلل.

وسدد خطاي. وألهمني رشدي.

وأغنني برحمتك عن خلقك يا أرحم الراحمين.